أدب الطلب ومنتهى الأرب

كيف تصبح عالماً من علماء الإسلام ؟

للإمام العلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني

(١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ)

دراسة وتحقيق

محمد عثمان الخشت

أدب الطلب ومنتهى الارب

كيف تصبح عالماً من علماء الإسلام ؟

للإمام العلامة محمد بن علي بن محمد الشوكاني
(١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ)

دراسة وتحقيق
محمد عثمان الخشت

مكتبة الساعي
الرياض تليفون ٤٢١٥٦٣٦-٤٢١١٤٣٤
ص.ب ٥٠٦٤٩ - الرياض : ١١٥٣٣

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسة التحقيق
المؤلف والكتاب

أولاً : المؤلف :

★ توطئة .
★ شخصية الشوكانى العلمية من خلال منهجه .
★ معالم حياته .
★ شيوخه .
★ مؤلفاته .
★ تلاميذه .

ثانياً : الكتاب :

★ نسبة الكتاب إلى الشوكانى .
★ أسلوب الشوكانى .
★ مضمون الكتاب .
★ تقسيم الكتاب وتبويبه .
★ سبب تأليفه .
★ مخطوطات الكتاب .
★ منهج التحقيق .

أولاً : المؤلف

* توطئة :

يعتبر الإمام الشوكانى أحد كبار الفقهاء فى الحضارة الإسلامية ، وأحد المجددين البارزين للقرن الثالث عشر الهجرى ، لما يتمتع به من عقلية منهجية منظمة ، تعرف مواقع النصوص ، وموارد الأدلة ، ومواطن قيام الحجج .

فهو يتحلى بأمانة المحدث ، ويستنبط بعقلية المنطقى الفقيه ، ويستنير بمنهج الأصوليين ، ويكتب بوجدان الأديب ، ويؤرخ بدقة الحفاظ .

وفوق هذا وذاك ، فإن تلك العقلية المنهجية يكمن وراءها ضمير حىّ يخفق بالموضوعية والصدق ، وله من عمق الدافع مثل ماله من نزاهة القصد .. ضمير متبصر يعى إلى حدٍ كبير الأزمة الحضارية التى تعانيها الأمة الإسلامية ، ويدرك مكامن الداء ، ويعرف أسلوب الدواء .

* شخصية الشوكانى العلمية من خلال منهجه :

هناك أساليب متعددة يلجأ إليها الباحثون من أجل تحديد الملامح العلمية للشخصية التى يضعونها تحت منظار البحث والدراسة . ومن أهم هذه الأساليب تحديد المنهج العلمى الذى تتبناه الشخصية ، لأنه إذا ماأمكنا الوقوف على ملامح ذلك المنهج وخطواته ، أمكننا بكل سهولة تحديد سمات تلك الشخصية وأهم مميزاتها .

فما هى أهم ملامح منهج الشوكانى ؟

من خلال الاطلاع على مؤلفات الشوكانى ولا سيما «**أدب الطلب**» و«**القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد**» يمكن للباحث أن يستنبط منهجه فى الوصول إلى الحقيقة ، وقد تراءى لى أن أقسم خطوات ذلك المنهج إلى

قسمين : أحدهما سلبى والآخر إيجابى . أما **المنهج السلبى** : فندرج تحته كل الأمور السلبية التى تعوق المرء عن التوصل إلى الحق ، والتى نبه الشوكانى إليها ، ودعا الباحثين إلى وجوب التخلى عنها بعزيمة صادقة وتحرير أذهانهم وتطهيرها منها حتى يقبلوا على البحث بذهن برىء محياد ، هذه المعوقات والسلبيات تتمثل فى :

١ ــ النشوء فى بلد متمذهب بمذهب معين وتقليد ذلك المذهب دون تبصر .

٢ ــ حب الشرف والمال .

٣ ــ الجدال والمراء وحب الانتصار والظهور .

٤ ــ حب القرابة والتعصب للأجداد .

٥ ــ عدم الرجوع إلى الحق الذى سبق لطالب العلم أن قال بخلافه .

٦ ــ عدم الرجوع إلى الحق لأن المتكلم به صغير السن أو الشأن .

٧ ــ الاستناد إلى قواعد ظنية .

٨ ــ عدم الموضوعية فى عرض حجج الخصوم .

٩ ــ تقليد المتعصبين من علماء الجرح والتعديل .

١٠ ــ المنافسة بين الأقران بلا تبصر .

١١ ــ التباس ما هو من الرأى البحت بشىء من العلوم التى هى مواد الاجتهاد .

١٢ ــ التحايل على أحكام الشريعة للتخلص من فرائضها وواجباتها وسائر أنواع ما تأمر بالالتزام به .

١٣ ــ الاغترار بمجرد الاسم عن المسمى .

١٤ ــ التسرع فى قبول الإجماع ، والقياس ، والاستحسان ، والاجتهاد (بمعنى استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن بحكم شرعى) ، دون كشف وتحر .

فهذه الأمور تعوق الذهن الإنسانى عن التوصل إلى الحق ، وينبغى على

طالب العلم أن يتخلى عنها قبل شروعه فى البحث . أما **المنهج الإيجابى** : فيمكن للمرء أن يدرج تحته كل الأشياء التى دعا الشوكانى طلاب العلم إلى وجوب اتباعها حتى يمكنهم البحث على أسس سليمة ، وهى :

١ ـــ تقديم القرآن الكريم والسنة الصحيحة على قول كل عالم كائناً مَنْ كان .

٢ ـــ وجوب الوقوف على الدليل والحجة وعدم التقليد الأعمى ، سواء كان عالماً أم غير عالم فإذا ماكان الباحث عالماً فإنه يمكنه الوقوف على الدليل من دون أن يرجع إلى غيره ، لأنه استعد لذلك بما اشتغل به من الطلب والوقوف بين يدى أهل العلم ومشاركته لهم فى معارف الاجتهاد . أما إذا لم يكن قد بلغ مرتبة العلماء فيمكنه الوقوف على الدليل بسؤال علماء الشريعة ، على طريقة طلب الدليل واسترواء النص . وبذلك يكون مجتهداً فى طلب الدليل والحجة وفهمهما ، بخلاف المقلد الذى يعمل بالرأى دون السؤال عن البرهان .

٣ ـــ أن يعلم الباحث عن الحق أن الشريعة مبنية على جلب المصالح ودفع المفاسد ؛ حتى إذا وجد أمراً لم يرد فيه نص يخصه ، ولا اشتمل عليه عموم ، ولا تناوله إطلاق ؛ فحق عليه أن يستحضر ذلك ، ويرشد إليه ، ويحكم وفقاً له .

٤ ـــ تدبر الدلائل العامة ، والتفكير فيما يندرج تحتها من المسائل بوجه من وجوه الدلالة المعتبرة . فإن الباحث إذا تمرن فى ذلك وتدرب ـــ صار مستحضراً لدليل كل ما يُسأل عنه من الأحكام الشرعية . وهكذا التفكر فى الكليات الصادرة عن النبى (ص) ؛ فإن كثيراً من عباراته صالحة لأن تكون كليات عامة تندرج تحتها كثير من المسائل الجزئية .

٥ ـــ أن يعلم الباحث أن نصوص الشريعة قرآناً وسنة يراد بها المعنى الحقيقى والمدلول الواضح ، ولا يجوز الانتقال عنه إلا لعلاقة أو قرينة ، كأن يكون هناك مسوّغ شرعى تتوقف عليه الصحة الشرعية أو العقلية التى يتفق عليها العقلاء .

تلك كانت أهم المقومات والعناصر التى يقوم عليها منهج الشوكانى — بشقيه السلبى والإيجابى حسب تقسيمنا — فى البحث عن الحقيقة ، وبهذا يمكننا تحديد ملامح شخصيته العلمية ، فنجدها شخصية عالم ، مجتهد ، أصولى بالدرجة الأولى ؛ شخصية تتميز بالموضوعية والحياد ؛ شخصية ذات ضمير حى ، وبصيرة نافذة ؛ شخصية لها من صفات الاندغام الاجتماعى ، والنضج الإنسانى ، والحس الحضارى ، ما يجعلها ترفض التقليد ، وتدعو إلى التجديد .

*معالم حياته :

ولد محمد بن عليّ بن محمد بن عبد الله الشوكانى ، بهجرة شوكان ، من بلاد خولان باليمن ؛ سنة ١١٧٣ هـ الموافقة سنة ١٧٦٠ م .

وقد نشأ الشوكانى فى بيئة ميسورة الحال ؛ حيث كان أبوه من العلماء الكبار ، وكان يشغل منصب قاضى صنعاء ؛ مما كان له أكبر الأثر فى تكوين الشوكانى ؛ حيث كفاه أبوه مؤنة طلب الرزق ، وكفل له كل وسائل الحياة ؛ مما أعانه على أن يتفرغ لطلب العلم بذهن خال من الهموم التى كثيراً ما تعوق النوابغ عن تحصيل العلوم بالشكل الذى يتطلعون إليه .

كما كان لهذه النشأة أثر آخر ، غير ذلك الأثر المادى ، ألا هو توجيه أبيه العالم القاضى له منذ نعومة أظافره إلى الاشتغال المستمر بتحصيل العلوم الشرعية . وقد ابتدأ بقراءة القرآن وتجويده على أكثر من قارىء من قراء صنعاء اليمن . وفى تلك الفترة التى كان معنيا فيها بتلاوة القرآن ، كان مشغولا أيضا بالاطلاع على أكثر من كتاب فى الأدب العربى والتاريخ الإسلامى وحفظ أكثر من مختصر فى علوم اللغة ، والفقه ، وأصول الدين .

وتلت هذه المرحلة مرحلة ثانية ، أخذ فيها العلوم الشائعة فى ذلك الوقت عن كبار علماء اليمن الذين سنتحدث عن أهمهم بشكل مجمل فى فقرة مستقلة . وشأنه شأن كل النوابغ ، لم يكتف باستيفاء ما عند شيوخه من كتب ، وإنما كان يطلع على كتب أخرى كثيرة بشكل مستقل عنهم .

ونظراً لما كان عليه الشوكانى من تفوق ملحوظ أثناء طلبه للعلم ، فقد كان كثير من التلاميذ يلجأون إليه لكى يدرّس لهم الفن أو المصنف الذى فرغ من تعلمه . ولذا فقد كان يومه موزعا بين التلقى من شيوخه وبين الشرح والتدريس لزملائه وأقرانه .

وبعد ذلك عكف على نشر ما تعلمه من علوم بين الطلاب ، فكان يدرس فى اليوم ما يزيد على عشرة دروس فى علوم أصول الدين ، والفقه وأصوله ،

والحديث ومصطلحه ، وعلوم اللغة المختلفة .

ولم يكتف بالاطلاع على العلوم الشرعية والتمكن منها ، بل قرأ العلوم الفلسفية الشائعة فى ذلك الوقت ، كالمنطق ، والطبيعة ، والرياضة ، والميتافيزيقا ، وقد بلغ مرتبة من التفوق المبكر جعلته يفتى وهو فى العشرين من عمره ، وكان لفتاويه تأثير واضح جعل الكثير من أهل صنعاء ، بل وغيرهم من أهالى المدن المجاورة ، يستفتونه فى مختلف شئون الدين .

ورغم أن الشوكانى كان قد تلقى الفقه على مذهب الإمام زيد بن على ، إلا أنه لم يلبث أن تخلى عن التقليد والتمذهب ، وأصبح لا يتقيد بفرقة من الفرق أو مذهب من المذاهب ، بل اعتمد اعتماداً مباشراً على الكتاب والسنة ، وأصبح من المجتهدين فى البحث عن الحكم الشرعى والرأى العقائدى من خلال الأدلة والبراهين لا من طريق التقليد والتلقين . وقد وصل إلى هذه المرتبة وهو بعد لم يتخط الثلاثين من عمره .

وظل مكباً على تحصيل العلم ونشره ، مركزاً كل اهتمامه فى مجالسة أهل العلم والأدب وملاقاتهم ، والاستفادة منهم ، وإفادتهم . وكان نزيهاً ، متحلياً بصفات الاحترام والاعتزاز بالنفس ؛ حتى كان منعزلًا عن المشتغلين بالمناصب العليا ، ولم يحاول أن يتمسح بقاض ، ولا أن يتملق أميراً . بل كان يجهر بالحق ، ويدعو إلى الاجتهاد ، وينهى عن التقليد ، لا يخشى فى ذلك لومة لائم ، ولا تجنى حسود .

وكان شيئا منطقياً أن يتولى بعد ذلك القضاء ، وهو فى السادسة والثلاثين من عمره ؛ فهو العالم المجتهد ، والرجل النزيه ، والداعية الصادق . وظل متولياً لمنصب القضاء العام ، حتى جمع بينه وبين الوزارة معاً ؛ فأصبح مسئولا مسئولية مباشرة عن كل شئون اليمن الداخلية والخارجية ؛ فحكم بين الناس بالعدل ، وأعطى كل ذى حق حقه ، ولم يدخر جهداً فى تحسين أحوال بلده وفى رفع مستوى أهلها العلمى والثقافى ، حتى انتقل إلى رحاب ربه فى سنة

١٢٥٠ هـ الموافقة لسنة ١٨٣٤ م .

*شيوخ الشوكانى :

كان من حسن طالع الإمام الشوكانى أنه نشأ فى إحدى العواصم الإسلامية التى كان يوجد بها عدد غير قليل من العلماء المتخصصين فى فروع علمية دينية متباينة : مثل القراآت ، والتفسير ، والفقه ، والأصول ، والحديث ، والتاريخ ، والأدب ، وعلوم اللغة المختلفة . وكانت لهم إسهاماتهم التى تتناسب مع الأسلوب الشائع فى عصرهم بصرف النظر عن مدى الابتكار أو التقليد فى تلك الإسهامات .

وأهم الشيوخ الذين تلقى عنهم الشوكانى :

١ ــ القاضى على بن محمد الشوكانى المتوفى سنة ١٢١١ هـ ، أبو الإمام الشوكانى ، وصاحب الفضل الأول عليه ــ بعد المولى سبحانه ــ فى توجيهه إلى طلب العلم ، وتيسير أسباب الحياة له .

٢ ــ الإمام عبد القادر بن أحمد الكوكبانى : (١١٣٥ ــ ١٢٠٧ هـ = ١٧٢٣ ــ ١٧٩٢ م) ، وهو محدث ، مجتهد ، من علماء الزيدية باليمن . له كتب كثيرة ، منها « مسند » فى أسماء شيوخه ، و « شرح نزهة الطرف » للأخفش الصنعانى . وقد أكثر الشوكانى من الثناء عليه والاعتراف بجميله ؛ ومما قال فيه : « كان شيخنا السيد العلامة عبد القادر بن أحمد رحمه الله من أكثر الناس نشراً للحق ، وإرشاداً له ، وتلقينا له ، وهدما لما يخالفه ، فجعله الله علماً يقتدى به ، ومرجعاً يأوى إليه أهل عصره ، وأخضع له كل مخالف له ، واعترف له كل واحد بأنه إمام عصره ، وعالمه ، ومجتهده » .

٣ ــ الإمام القاسم بن يحيى الخولانى : (١١٦٢ ــ ١٢٠٩ هـ) ، فقيه ، مجتهد . وقد تتلمذ عليه الشوكانى ، ومن الطريف أنه قد رافقه فترة فى طلب العلم . وأثنى الشوكانى عليه خلقياً وعلمياً ، وعده شيخه الأكبر .

٤ ــ العلامة الحسن بن إسماعيل المغربى : (... ــ ١٢٠٨ هـ) ،

منطقى ، مشتغل بعلوم الفلسفة . وقد درس الشوكانى على يديه علم المنطق .

٥ ـــ الإمام أحمد بن عامر الحدائى (... ـــ ١١٩٧ هـ)

٦ ـــ الإمام يحيى بن محمد الحونى : (نحو ١١٦٠ ـــ ١٢٤٧ هـ) ، مشتغل بعلم الحساب والمساحة والفرائض . وقد تتلمذ الشوكانى عليه فى هذه العلوم .

٧ ـــ القاضى عبد الرحمن بن حسن الأكوع : (... ـــ ١٢٠٦ هـ)

٨ ـــ العلامة على بن إبراهيم بن على : (نحو ١١٣٩ ـــ ١٢٠٧ هـ) .

*مؤلفات الشوكانى :

يمكن للمرء أن يتبين بوضوح عند تتبعه لمؤلفات الإمام الشوكانى مدى العمق والجدة التى تنطبع بها تلك المؤلفات ، كما يلحظ روح الاجتهاد التى تسيطر على كل ما يصدر عنه من آراء وأفكار ، فلا يكاد الباحث يطلع على رأى من آرائه إلا ويجد مبررات هذا الرأى وحججه ، فالرجل مستقل كل الاستقلال عن المذاهب والفرق مجتهد بمعزل عن التقليد والإتباع الأعمى .

وفيما يلى نقدم للقارىء إحصاء بكتب الشوكانى ، حتى يكون على علم بكل أعمال ذلك الإمام الفذ ، وهى :

١ ـــ فتح القدير : الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير . وهو مطبوع فى خمسة مجلدات .

٢ ـــ نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار . من أدق كتب الفقه ، وهو فى ثمانى أجزاء ، فى أربع مجلدات .

٣ ـــ السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار . ينقد فيه كتاب الأزهار فى الفقه الهدوى الزيدى ، كمثال عملى على تطبيق منهج الاجتهاد والاستقلال فى الرأى .

٤ ـــ در السحابة فى مناقب القرابة والصحابة .

٥ ـــ التوضيح فى تواتر ماجاء فى المهدى المنتظر ، والدجال ، والمسيح .

٦ ــ الدراية فى مسألة الوصاية . يبحث فيه مدى أحقية أو بطلان وصاية النبى ﷺ لعلىّ بن أبى طالب .

٧ ــ الجوابات المنيعة على الأبحاث المنيعة .

٨ ــ هفوات الأئمة الأربعة .

٩ ــ المختصر البديع فى الخلق الوسيع . تحدث فيه عن مخلوقات الله من سموات وأرضين وإنس .. إلخ .

١٠ ــ منحة المنان فى أجرة القاضى والسجان .

١١ ــ الوشى المرقوم فى تحريم التحلى بالذهب للرجال على العموم .

١٢ ــ هداية القاضى إلى تخوم الأراضى .

١٣ ــ شفاء العلل فى زيادة الثمن لمجرد الأجل .

١٤ ــ عقود الجمان فى شأن حدود البلدان وما يتعلق بها من الضمان .

١٥ ــ حل الإشكال فى إجبار اليهود على التقاط الأزبال .

١٦ ــ دفع الاعتراضات على إيضاح الدلالات .

١٧ ــ أدب الطلب ومنتهى الأرب .

١٨ ــ إبطال دعوى الإجماع على تحريم مطلق السماع .

١٩ ــ الأبحاث الوضية فى الكلام على حديث حب الدنيا رأس كل خطية .

٢٠ ــ إيضاح الدلالات على أحكام الخيارات .

٢١ ــ البحث المسفر عن تحريم كل مسكر ومفتر .

٢٢ ــ إرشاد الأعيان إلى تصحيح مافى عقود الجمان .

٢٣ ــ أمنية المنشوق فى تحقيق حكم المنطق .

٢٤ ــ إشراق النيرين فى بيان الحكم إذا تخلف عن الوعد أحد الخصمين .

٢٥ ــ البغية فى مسألة الرؤية .

٢٦ ــ تنبيه الأمثال على عدم جواز الاستعانة من خالص المال .

٢٧ ــ التشكيك على التفكيك لعقود التشكيك .

٢٨ ــ الروض الوسيع فى الدليل المنيع على عدم انحصار علم البديع .
٢٩ ــ رفع البأس عن حديث النفس والهم والوسواس .
٣٠ ــ الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الإتحاد .
٣١ ــ الطود المنيف فى الإنتصاف للسعد من الشريف .
٣٢ ــ العذب النمير فى جواب عالم بلاد عسير .
٣٣ ــ نثر الجوهر على حديث أبى ذر .
٣٤ ــ مطلع البدرين ومجمع البحرين . فى علوم التفسير .
٣٥ ــ كشف الأستار عن حكم الشفعة بالجوار .
٣٦ ــ القول الحسن فى فضائل أهل اليمن .
٣٧ ــ المباحث الدرية فى المسألة الحميرية .
٣٨ ــ كشف الأستار فى إبطال كلام من قال بفناء النار .
٣٩ ــ كشف الرين عن حديث ذى اليدين .
٤٠ ــ وبل الغمامة فى تفسير : ﴿**وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة**﴾ .
٤١ ــ وبل الغمام على شفاء الأورام .
٤٢ ــ المقالة الفاخرة فى بيان إتفاق الشرائع على الدار الآخرة .
٤٣ ــ المختصر الكافى من الجواب الشافى .
٤٤ ــ كفاية المحتظ .
٤٥ ــ القول المقبول فى رد خبر المجهول من غير صحابة الرسول .
٤٦ ــ القول الجلى فى لبس النساء للحلى .
٤٧ ــ القول الصادق فى حكم الإمام الفاسق .
٤٨ ــ فتح القدير بين المعذرة والتعذير .
٤٩ ــ الفتح الربانى فى فتاوى الشوكانى .
٥٠ ــ فتح الخلاق فى جواب مسائل عبد الرزاق .
٥١ ــ القول الواضح فى صلاة المستحاضة ونحوها من أهل العلل والجرائح .

٥٢ ــ نزهة الأحداق فى علم الأشتقاق .
٥٣ ــ طيب النشر فى جواب المسائل العشر .
٥٤ ــ الصوارم الهندية المسلولة على الرياض الندية .
٥٥ ــ زهر النسرين الفائح بفضل العمرين : أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .
٥٦ ــ رفع الخصام فى الحكم بالعلم من الحكام .
٥٧ ــ رفع الجناح عن نافى المباح .
٥٨ ــ جيد النقد فى عبارة الكاشف والسعد .
٥٩ ــ تنبيه ذوى الحجا على حكم بيع الرجا .
٦٠ ــ تفويق النبال إرسال المقال .
٦١ ــ تشنيف السمع لجواب المسائل السبع .
٦٢ ــ تشنيف السمع بإبطال أدلة الجمع .
٦٣ ــ تحرير الدلائل على مقدار ما يجوز بين الإمام والمؤتم من الإرتفاع والحال .
٦٤ ــ بغية المستفيد فى الرد على من أنكر الإجتهاد من أهل التقليد .
٦٥ ــ البغية فى مسألة الرؤية .
٦٦ ــ البحث الملم المتعلق بقوله تعالى : ﴿**إلا من ظلم**﴾ .
٦٧ ــ إيضاح القول فى إثبات العول .
٦٨ ــ الإعلام بالمشايخ الأعلام والتلامذه الكرام .
٦٩ ــ إطلاع أرباب الكمال على ما فى رسالة الجلال فى الهلال من الإختلال .
٧٠ ــ إرشاد المستفيد إلى دفع كلام ابن دقيق العيد فى الإطلاق والتقييد .
٧١ ــ إرشاد الغبى إلى مذهب أهل البيت فى صحب النبى .
٧٢ ــ إرشاد السائل إلى دلائل المسائل .
٧٣ ــ الدفعة فى وجه ضرب القرعة .

٧٤ ــ إتحاف المهرة فى الكلام على حديث «**لا عدوى ولا طيرة**» .
٧٥ ــ الأبحاث البديعة فى وجوب الإجابة إلى أحكام الشريعة .
٧٦ ــ رفع منار حق الجار بالإجبار على البيع مع الضرار .
٧٧ ــ القول المقبول فى فيضان الغيول والسيول .
٧٨ ــ بلوغ المنى فى الإستمناء .
٧٩ ــ ضرب القرعة فى شرطية خطبة الجمعة .
٨٠ ــ إشراق الطلعة فى عدم الإعتداد بإدراك ركعة من الجمعة .
٨١ ــ إسلاك الجوهر فى نظم مجدد القرن الثالث عشر .
٨٢ ــ إقناع الباحث بدفع ماظنه دليلًا على جواز الوصية للوارث .
٨٣ ــ المباحث الوفية فى الشركة العرفية .
٨٤ ــ الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة .
٨٥ ــ القول المفيد فى أدلة الإجتهاد والتقليد ، أو القول المفيد فى حكم التقليد .
٨٦ ــ نزل من أتقى بكشف أحوال المنتقى .
٨٧ ــ العقد الثمين فى إثبات وصاية أمير المؤمنين .
٨٨ ــ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع .
٨٩ ــ إتحاف الأكابر بإسناد الدفاتر .
٩٠ ــ التحف فى مذاهب السلف .
٩١ ــ إرشاد الثقات إلى إتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات
٩٢ ــ تحفة الذاكرين فى شرح عدة الحصن الحصين للجزرى .
٩٣ ــ الدر النضيد فى إخلاص كلمة التوحيد .
٩٤ ــ الدرارى المضية فى شرح الدرر البهية .
٩٥ ــ الدرر البهية .
٩٦ ــ تنبيه الأعلام على تفسير المشتبهات بين الحلال والحرام .
٩٧ ــ إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول .
٩٨ ــ الدواء العاجل فى دفع العدو الصائل .

٩٩ ــ رفع الريب فيما يجوز ولا يجوز من الغيب .
١٠٠ ــ شرح الصدور فى تحريم رفع القبور .
١٠١ ــ التعقبات على الموضوعات .

كما له أيضا عدد من الأبحاث والرسائل الصغيرة التى تتناول عديداً من الموضوعات وتجيب عن كثير من التساؤلات التى كانت تُوجه إليه .

*تلاميذه :

شىء طبيعى أن يلتف العدد الجم من التلاميذ والطلبة حول عالم كبير مثل الشوكانى ؛ فهو صاحب علم راسخ ، وذو عقل مستنير مجدد ، وقلب مفتوح لكل من يريد أن يرقى بفهمه ويسمو بعلمه .

وإذ كانت ثمرة علم الشوكانى الأولى ، هى مؤلفاته ، فإن ثمرة علمه الثانية هى تلاميذه الذين بلغوا من العلم تحت رعايته مبلغاً أهلهم لأن يحتلوا مراتب سامية بين الفضلاء ، ومناصب ذات تأثير فى شئون الدول .

نذكر من بين أؤلئك التلاميذ الفضلاء :

١ ــ ابنه على بن محمد الشوكانى ولد فى سنة ١٢١٧ هـ ، رباه أبوه الإمام الشوكانى فأحسن تربيته ، حتى أصبح فقيهاً من أهل الاجتهاد . من مؤلفاته «القول الشافى السديد فى نصح المقلد وإرشاد المستفيد» . توفى قبل وفاة أبيه بشهرين سنة ١٢٥٠ هـ .

٢ ــ ابنه أحمد بن محمد الشوكانى : ولد ١٢٢٩ هـ ، نهل من علم أبيه ومؤلفاته الشىء الكثير ، حتى أصبح عالماً فقيهاً ، وتولى القضاء فى صنعاء زمناً . وأصابته محن فى أيام الناصر (عبد الله بن الحسن) وأيام الإمام أحمد بن هاشم ، فسجن فى عهد الأول ، وفرّ من صنعاء فى عهد الثانى ، فطاف متنقلًا فى بعض الأطراف ، ثم استقر فى «الروضة» يحكم وينفذ الشريعة وهو لم يولَّ ذلك فكان علماء اليمن يسمونه «قاضى أرحم الراحمين» ! وتوفى فيها . من كتبه

«كشف الريبة فى الزجر عن الغيبة» . توفى سنة ١٢٨١ هـ .

٣ ــ محمد بن حسن بن على الشجنى : ولد سنة ١٢٠٠ هـ ، من أهل «**ذمار**» باليمن ، صاحب الإمام الشوكانى وأخذ عنه ، وقد أجازه الشوكانى سنة ١٢٣٩ هـ . وأهم مايتميز به الشجنى **هو** العلم بالتراجم . من مؤلفاته التى تدل على وفائه لأستاذه «**التقصار**» فى سيرة الشوكانى ومشايخه وتلاميذه ، وقد انتقل إلى رحاب ربه عام ١٢٨٦ هـ .

٤ ــ محمد بن أحمد السودى : ولد فى سنة ١١٧٨ هـ ، وقد صاحب الشوكانى وأخذ عنه من بداية طلبه حتى منتهاه . وقد عاجلته المنية سنة ١٢٢٦ هـ .

وقد أثنى عليه الشوكانى فقال فيه نظماً :

أعـز المعالـى أنـت للدهـر زينـة   وأنت على رغـم الحواسد ماجده

٥ ــ على بن أحمد هاجر الصنعانى : ولد نحو ١١٨٠ هـ ، تعمق فى دراسة العلوم الفلسفية وبرع فيها لاسيما المنطق . وقد تعلم المنطق وغيره من العلوم على يد الشوكانى ، وأثنى عليه شيخنا ثناء كبيراً حتى قال عنه فى تمكنه من المنطق : «وهو يفهمه فهما بديعاً ، ويتقنه إتقاناً عجيباً .. قل أن يوجد نظيره» . مات عام ١٢٣٥ هـ .

٦ ــ أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز **الضمدى** : ولد سنة ١١٧٤ هـ فى هجرة ضمد باليمن . ورحل إلى زبيد ثم إلى صنعاء وصعدة ، وحج مرات ، وتوفى فى مدينة أبى عريش ، راجعاً من الحرمين . وهو فقيه زيدى متمكن . من كتبه «**مشارق الأنوار**» أربع مجلدات فى الفقه ، و «**شرح ملحة الإعراب**» نحو . وله فتاوى ومراجعات فى العلوم الإسلامية . وقال الشوكانى : «**قرأ علىّ فى شرح الغاية ، وسألنى مسائل عديدة أجبت عليها بجواب سميته** » « **العقد المنضد فى جيد مسائل علامة ضمد** » . انتقل إلى رحمة الله عام ١٢٢٢ هـ .

هؤلاء كانوا بعض تلاميذ الشوكانى المباشرين ، ولا يزال تلاميذه الناهلون من علمه المكتوب فى ثنايا مؤلفاته يتزايدون يوماً بعد يوم حتى عصرنا الحالى . وكاتب هذه السطور شخصياً قد تأثر منذ وقت مبكر من حياته بمنهج الإمام الشوكانى الفقهى وبأسلوبه الاجتهادى الفذ فى استنباط الأحكام الشرعية .

ثانيا : الكتاب

*نسبة الكتاب إلى الشوكانى :

لا يدور أدنى شك حول نسبة كتاب «**أدب الطلب ومنتهى الأرب**» إلى الإمام الشوكانى ؛ للأسباب الآتية :

١ ــ توجد نسخة مخطوطة ، بخط الشوكانى نفسه ، فى مكتبة الجامع المقدس بصنعاء اليمن تحت رقم ٣٠٢ حديث .

٢ ــ جاءت نصوص متعددة فى كتب الشوكانى الأخرى مؤكدة نسبة «**أدب الطلب**» إليه ، مثل كتابه «**البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**» ، وقال عنه فيه : «فهو كتاب لا يستغنى عنه طالب الحق» . البدر الطالع : الجزء الثانى ، ص ٨٩ .

٣ ــ أجمعت المراجع التى ترجمت لحياة الشوكانى ومؤلفاته على نسبة «**أدب الطلب**» إليه .

*سبب تأليف الكتاب :

لعل السبب الرئيسى الذى دفع الشوكانى إلى تأليف هذا الكتاب ، يتمثل فى الحالة المتردية التى وصل إليها طلاب العلم فى زمنه من التقليد الأعمى ، والتعصب الرذيل ، وتقديم الثانوى فى العلم على الضرورى ، وغير ذلك من مظاهر التخلف . فلما رأى الرجل ذلك ، أراد أن ينهض بأبناء دينه بإرشادهم

إلى المنهج العلمى الذى ينبغى عليهم أن يسلكوه حتى يصلوا إلى مراتب العلم المختلفة ، وحتى يمكنهم بلوغ الحق والحقيقة فى شرائع الدين وعلوم الدنيا .

★مضمون الكتاب :

يتناول هذا الكتاب بالشرح والتحليل الواجبات التى يلزم طالب العلم القيام بها ، والصفات التى ينبغى أن يتسم بها . وينبه إلى جميع السلبيات والمعوقات التى تعوق عن الوصول إلى الحقيقة ، وحتمية التخلى عنها ، والوسائل التى تمكنّ من التخلص منها .

ثم يذكر الخطوات التى يتحتم على طالب العلم سلوكها حتى يستطيع بلوغ المرتبة العلمية التى يتطلع إليها .

وفى النهاية يتحدث عن عديد من القواعد والمنطلقات العامة التى تفيد طالب العلم وتغنيه عن كثير من المسائل الجزئية .

★تقسيم الكتاب وتبويبه :

يخلو هذا الكتاب تماماً ، كما كتبه الشوكانى ، من التقسيم ، والتبويب والعناوين الأساسية و الفرعية .

ولذا فقد رأيت أن أقوم بتقسيمه وتبويبه وعنونة موضوعاته ؛ حتى يأخذ الشكل العصرى الذى يتلاءم مع مناهج الكتابة الحديثة ؛ فقمت بتقسيمه إلى أربعة أقسام وخاتمة ، كالآتى :

القسم الأول : واجبات طالب العلم ..
القسم الثانى : الأسباب التى تؤدى إلى البعد عن الحق ، والوقوع فى التعصب ..
القسم الثالث : كيفية الوصول إلى مراتب العلم المختلفة ..

القسم الرابع : مباحث ضرورية لطالب الحق ..
الخاتمة : مفاسد أصابت دين الإسلام ..

وقمت أيضاً بتقسيم كل قسم من هذه الأقسام إلى عدة موضوعات وفقرات ، لكل منها عنوان مستقل .

*أسلوب الشوكانى :

يتميز أسلوب الشوكانى بصفة عامة بوضوح العبارة ، ودقة التعبير ، ومنطقية بناء الجملة .

ويَغلب على كتاباته روح الموضوعية وعدم التعصب . وإذا كان يشوب أسلوبه فى كثير من الأحيان لون من الحماسة والعاطفة الجياشة ، فهذا يرجع فى نظرنا إلى طبيعة حياته العلمية التى كانت مليئة بالمناظرات والمناقشات مع المقلدين والمتعصبين الذين كانوا يثيرونه بسبب منطقهم الأعوج ،وفهمهم المختل ، وعلمهم القاصر .

ويتسم أسلوبه أيضا بغلبة الوحدة العضوية أو الموضوعية ، إلا إنه يستطرد أحياناً استطرادات طويلة ، ويلح على الفكرة إلحاحاً شديداً ، مما قد يؤدى إلى شيء من التكرار وإختلال البنية العضوية لوحدة الموضوع . وهذا يرتد فى رأينا إلى ما اعتاد عليه الإمام الشوكانى من قراء زمانه المقلدين الذين ليس لهم فطنة لفهم الحقائق ؛ فكان يرحمه الله تعالى يستطرد ، ويلح ، ويكرر ؛ عسى أن يفهم أولئك المقلدة مقصده ومايدعو إليه من آراء مستنيرة .

*منهج التحقيق :

اتبعت فى تحقيق هذا الكتاب المنهج الآتى :

١ ـــ تخليص النص من شوائب التصحيف والتحريف والأخطاء اللغوية

وما إليها .

٢ ـــ كتابة النص وفقاً لقواعد الإملاء المعاصرة ، وترقيمه بواسطة علامات الترقيم العصرية . وفى ظنى أن استخدام علامات الترقيم يسهل على كثير من القراء فهم تراكيب فى الكتاب قد لا يتيسر فهمها بدون هذه العلامات ؛ وحتى يعرف القارىء أين يبتدىء وأين ينتهى .

٣ ـــ تنسيق الكتاب ، وتقسيمه ، وتبويبه ، ووضع العناوين للموضوعات التى يشتمل عليها ؛ حتى يأخذ الشكل العصرى الذى يتلاءم مع مناهج الكتابة الحديثة ؛ فالكتاب ـــ كما سبق أن أشرت ـــ خال من أى عنوان داخلى .

٤ ـــ تخريج الأحاديث النبوية المذكورة فى الكتاب وعزوها إلى مواضعها فى كتب الحديث المختلفة .

٥ ـــ شرح الألفاظ الغامضة والمصطلحات بالاعتماد على كتب اللغة والمعاجم والموسوعات .

٦ ـــ التعليق على بعض المواضع التى اقتضت التعليق .

٧ ـــ التعريف بالأعلام الواردة فى متن الكتاب بإيجاز ، مع ذكر مصادر الترجمة .

٨ ـــ ذكر الأسماء الكاملة للكتب التى كان يشير إليها الشوكانى إشارة تلميح .

٩ ـــ التقديم للكتاب بدراسة عن الإمام الشوكانى وكتابه « **ادب الطلب ومنتهى الأرب** » الذى بين أيدينا الآن .

وماتوفيقى إلا بالله ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ...

محمد عثمان الخُشْت

القاهرة فى : ٢٩ ربيع أول ١٤٠٦ هـ
٢٠ نوفمبر ١٩٨٥ م

النص المحقق لكتاب
أدب الطلب ومنتهى الأرب

[تقديم]

أحمدك .. لا أحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، وأصلى وأسلم على رسولك ، وآله ؛ وأسألك التثبيت والهداية ، وأعوذ بك من الخذلان والغواية. وبعد :

فإنّى قد عزمتُ ــ عزم الله لى على الخير ــ على أن أجمع فى هذه الورقات ما ينبغى لطالب العلم اعتماده فى طلبه ، والتحلى به فى إيراده وإصداره وابتدائه وانتهائه ، وما يشرع فيه ويتدرج إليه ؛ حتى يبلغ مراده ، على وجه يكون به فائزاً بما هو الثمرة والعلة الغائية التى هى أول الفكر وآخر العمل . وسميته : «**أدب الطلب ومنتهى الأرب**» (١) .

---

(١) المراد بـ(الأَرَب) هنا : البغية والأمنية ، يقال : بلغ أَرَبه ، ونال أَرَبه .

واجبات طالب العلم

★إخلاص النية لله

★قصد تحصيل علم الدين

★تجنب التحيز والعصبية

★تحرى الإنصاف .

★توطين النفس على الاجتهاد

★تجربة الشوكانى مع الاجتهاد

واجبات طالب العلم

وإنى أتصور الآن أن الكلام بمعونة الله ومشيئته لابدّ أن يتعدى إلى فوائد ومطالب ، ينتفع بها المنتهى ، كما ينتفع بها المبتدىء ، ويحتاج إليها الكامل ، كما يحتاج إليها المقصرّ ، ويعدها المتحققون بالعرفان من أعظم الهدايا .

★إخلاص النية لله :

فأول ما على طالب العلم : أن يحسن نيته ، ويصلح طويّته[٢] ، ويتصور أن هذا العمل الذى قصد له ، والأمر الذى أراده ، هو الشريعة التى شرعها الله سبحانه لعباده ، وبعث بها رسله ، وأنزل بها كتبه . ويجرد نفسه عن أن يشوب[٣] ذلك بمقصد من مقاصد الدنيا ، أو يخلطه بما يكدره[٤] من الإرادات التى ليست منه ، كمن يريد به الظفر بشىء من المال ، أو يصل به إلى نوع من الشرف ، أو البلوغ إلى رئاسة من رئاسات الدنيا ، أو جاهٍ يحصله به .

فإن العلم طيّب لا يقبل غيره ، ولا يحتمل الشركة . والروائح الخبيثة إذا لم تغلب على الروائح الطيبّة ، فأقل الأحوال أن تساويها ، وبمجرّد هذه المساواة لا تبقى للطيّب رائحة ، والماء الصافى العذب الذى يستلذه شاربه ، كما يكدره الشىء اليسير من الماء المالح ، فضلًا عن غير الماء من القاذورات ، بل تنقص لذته مجرد وجود القذاة[٥] فيه ، ووقوع الذباب عليه ، هذا على فرض أن مجرد تشريك العلم مع غيره له حكم هذه المحسوسات — وهيهات ذاك .

فإن منَ أراد أن يجمع فى طلبه العلم بين قصد الدنيا والآخرة ، فقد أراد الشطط[٦] ، وغلط أقبح الغلط ؛ فإن طلب العلم من أشرف أنواع العبادة ،

(٢) (الطَّوِيَّةُ) : الضمير ، والجمع طوايا .

(٣) (يشوب) : يخلط .

(٤) (كَدِرَ) : نقيض صفا .

(٥) (القَذَاة) : ما يقع فى العين والشراب والماء من تراب وغير ذلك . والجمع : قذى . ويقال : فلان قذاة فى عين فلان إذا ثقل عليه .

(٦) (الشطط) : البُعد عن الحق .

وأجلّها ، وأعلاها ، وقد قال الله سبحانه : ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**﴾ [٧] ؛ فقيّد الأمر بالعبادة بالإخلاص الذى هو روحها .

وصحّ عن رسول الله ﷺ حديث : « **إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى** » [٨] ، وهو ثابت فى دواوين الإسلام كلها ، وقد تلقته الأمة بالقبول ، وإن كان أحادياً أجمع جميع أهل الإسلام على ثبوته وصحته .

وقد تقرّر فى علم البيان والأصول بأن (إنما) من صيغ الحصر ، وثبت القول بذلك عن الصحابة : روى عن ابن عباس : أنه احتجّ على اختصاص الربا النسيئة بحديث الربا فى النسيئة ، ولم يخالفه الصحابة فى فهمه ، وإنما خالفوه فى الحكم مستدلين بأدلة أخرى مصرحة بثبوت ربا الفضل[٩] .

وكما أن هذا التركيب يفيد ماذكرناه من الحصر ، كذلك لفظ « الأعمال بالنية أو بالنيات » كما ورد فى بعض ألفاظ الحديث الثابتة فى الصحيح ، فإن الألف واللام تفيد الاستغراق ، وهو يستلزم الحصر . وهكذا ورد فى بعض ألفاظ الحديث : « لا عمل إلا بنيّة » ، وهى أيضاً من صيغ الحصر ، بل هى أقواها .

والمراد بالأعمال هنا أفعال الجوارح حتى اللسان ، فتدخل الأقوال ، ومن نازع فى ذلك فقد أخطأ .

ثم لابدّ لقوله « بالنيات » من تقدير متخلق عام لعدم ورود دليل يدل على

---

(٧) البينة : ٥ . وفى المخطوط : (واعبد الله مخلصين له الدين) وهو خطأ ، وماأثبتناه هو الصواب.

(٨) رواه البخارى : فى كتاب بدء الوحى ، باب ١ ؛ وفى الإيمان ٤١ ، والإكراه فى الترجمة ، والنكاح ٥ ، والطلاق ١١ ، ومناقب الأنصار ٤٥ ، والعتق ٦ . ورواه مسلم : فى كتاب الإمارة ، حديث ١٥٥ . وأبو داود : فى الطلاق ١١ . والترمذى : فى فضائل الجهاد ١٦ ، والطهارة ٥٩ ، والطلاق ٢٤ ، والأيمان ٥٩ . وابن ماجه : فى الزهد ٢٦ . وأحمد : فى المسند جزء ١ ص ٢٠ ، ٤٣ .

(٩) ينقسم الربا إلى نوعين :

- ربا النسيئة : وهو الزيادة المشروطة التى يأخذها الدائن من المدين نظير التأجيل .
- ربا الفضل : وهو بيع النقود بالنقود ، أو الطعام بالطعام مع الزيادة ، وهو محرم بالسنة والإجماع لأنه ذريعة إلى ربا النسيئة .

التعلق الخاص فيقدر الوجود أو الكون أو الاستقرار أو الثبوت أو ما يفيد مفاد ذلك ، فيكون التقدير : إنما وجود الأعمال وكونها وإستقرارها أو ثبوتها بالنيات ، فلا وجود أو لا كون أو لا إستقرار أو لا ثبوت لما لم يكن كذلك ، وهو ماليس فيه . لا يقال أن تقدير الثبوت والوجود والكون ونحوها يستلزم عدم وجود الذات أو عدم النية وقد وجدت فى الخارج ؛ لأنا نقول المراد الذات الشرعية ، وهى غير موجودة ، ولا اعتبار بوجودات غير شرعية ، ونفى الذات هو المعنى الحقيقى ، فلا يُعدل عنه إلى غيره إلّا لصارف ، ولا صارف هنا على أنه لو فُرض وجود صارف إلى المعنى المجازى لم يكن المقدر ههنا إلّا الصحة أو ما يفيد مفادها ، وهى مستلزمة لنفى الذات ، فتقرر بمجموع ماذكرنا أن حصول الأعمال وثبوتها لا يكون إلّا بالنية ، فلا حصول أو لا ثبوت لما ليس كذلك ؛ فكل طاعة من الطاعات ، وعبادة من العبادات ، إذا لم تصدر عن إخلاص نية وحسن طويّة لا اعتداد بها ولا التفات إليها ، بل هى إن لم تكن معصية فأقل الأحوال أن تكون من أعمال العبث واللعب التى هى بما يصدر عن المجانين أشبه منها بما يصدر عن العقلاء .

*قصد تحصيل علم الدين :

ومن أهم ما يجب على طالب العلم تصورّه عند الشروع ، واستحضاره عند المباشرة ، بل وفى كل وقت من أوقات طلبه مبتدئاً ومنتهياً ، متعلماً وعالماً : أن يقرّ فى نفسه أن هذا العمل الذى هو بصدده هو تحصيل العلم الذى شرعه الله لعباده ، والمعرفة لما تعبّدهم فى محكم كتابه وعلى لسان رسوله ، والوقوف على أسرار كلام الله عز وجل ورسوله ﷺ وآله وسلم .

وأن هذا المطلب الذى هو بسبب تحصيله ليس هو من المطالب التى يقصدها مَن هو طالب للجاه والمال والرئاسة ، بل هو مطلب يتأجرّ به الربّ سبحانه(١٠) .

---

(١٠) أى يحصل بسببه على الأجر والثواب من الله تعالى .

★ تجنب التحيز والعصبية :

وتكون غايته العلم بما بعث الله به رسله ، وأنزل فيه كتبه . وذلك سبب الظفر بما عند الله من خير . ومثل هذا لا مدخل فيه لعصبية ، ولا مجال عنده لحمية[11] ، بل هو شيء بين الله سبحانه وبين جميع عباده ، تعبّدهم به تعبداً مطلقاً ، أو مشروطاً بشروط ، وأنه لا يخرج عن ذلك فرد منهم ، بل أقدامهم متساوية فى ذلك : عالمهم وجاهلهم ، وشريفهم ووضيعهم ، وقديمهم وحديثهم ؛ ليس لواحدٍ منهم أن يدعى أنه غير متعبّد بما تعبّد الله به عباده ، أو أنه خارج عن التكليف ، أو أنه غير محكوم عليه بأحكام الشرع ، ومطلوب منه ماطلبه الله من سائر الناس ، فضلًا عن أن يرتقى إلى درجة التشريع ، وإثبات الأحكام الشرعية ، وتكليف عباد الله سبحانه بما يصدر عنه من الرأى ؛ فإن هذا أمر لم يكن إلّا لله سبحانه ، لا لغيره من البشر كائناً من كان ، إلّا فيما فوّضه إلى رسله ، وليس لغير الرسّل فى هذا مدخل ، بل الرسّل منهم متعبدّون بما تعبدّهم الله به ، مكلفّون بما كلفوا به ، مطالبون بما طلبه منهم . وتخصيصهم بأمور لا تكون لغيرهم لا يعنى خروجهم عن كونهم كذلك ، بل هم من جملة البشر ، ومن سائر العباد فى التكليف بما جاؤوا به عن الله ، وقد أخبروا بهذا ، وأخبر به الله عنهم كما فى غير موضع من الكتاب العزيز ومن السنّة النبوية ، وكما وقفنا عليه فى التوراة والأنجيل والزبّور مكرراً فى كل واحدٍ منها .

وإذا كان هذا حال الرسل عليهم الصلاة والسلام فى التعبّد بالأوامر الشرعية ، والتوقف فى التبليغ على ماأمرهم تعالى بتبليغه ، فلا يشرعون للناس إلّا ماأذن لهم به ، وأمرهم بإبلاغه ، وليس لهم من الأمر شيء إلّا مجردّ البلاغ عن الله والتوسط بينه وبين عباده فيما شرعه لهم وتعبدّهم به ، كما هو معنى الرسول والرسالة لغةً وشرعاً عند مَن يعرف علم اللغة ومصطلح أهل الشرع .

ولا ينافى هذا وقوع الخلاف بين أئمة الأصول فى إثبات اجتهاد الأنبياء

---

(١١) (الحَمِيَّةُ) : الأنفة . وفى القرآن العزيز : ﴿إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾ .

ونفيه ؛ فإن الخلاف المحرر فى هذه المسألة لفظى عند من أنصف وحقق ، فكيف بحال غيرهم من عباد الله ممن ليس هو من أهل الرسالة ؛ ولا جعله الله من أهل العصمة كالصحابة ، فالتابعين ، فتابعيهم من أئمة المذاهب ، فسائر حملة العلم ؛ فإن من زعم أن لواحد من هؤلاء أن يحدث فى شرع الله ما لم يكن فيه ، أو يتعبدّ عباد الله بما هو خارج عن ما هو منه ، فقد أعظم على الله الفرية[١٢] وتقولّ على الله تعالى بما لم يقل ، وأوقع نفسه فى هوّة لا ينجو منها إلّا طرحها فى مطرح سوء ، ووضعها فى موضوع شرّ ؛ ونادى على نفسه بالجهل والجرأة على الله تعالى ، والمخالفة لما جاءت به الشرائع ، وما أجمع عليه أهلها ؛ فإن هذه رتبة لم تكن إلّا لله ، ومنزلة لا ينزلها غيره ، ولا يدعّيها سواه ، فمن ادعاها لغيره تصريحاً أو تلويحاً ؛ فقد أدخل نفسه فى باب من أبواب الشرك ، وكان ذلك هو الفائدة التى استفادها من طلبه ، والربح الذى ربحه من تعبه ونصبه ، وصار اشتغاله بالعلم جنايةً عليه ، ومحنةً له ، ومصيبةً أصاب بها نفسه ، وبليّة قادها إليها ، ومعصية كان عنها بالجهل وعدم الطلب فى راحة . وهكذا من لم يحسن لنفسه الاختيار ، ولا سلك فيها مسالك الأبرار ، ولا اقتدى بمن أمر الله الاقتداء به من أهل العلم الذين جعلهم محلًا لذلك ومرجعاً .

*تحرى الإنصاف :

فإذا تقرر لك هذا ، وعلمت بما فيه من الضرر العظيم الذى يمحق بركة العلم ، ويشوّه وجهه ، ويصيّره بعد أن كان من العبادات التى لا تشبهها طاعة ، ولا تماثلها قربة ، معصيةً محضة ، وخطيئة خالصة ـــ تبيّن لك نفع ما أرشد إليه من تحرى الإيمان ، الذى من أعظم أركانه ، وأهم ما يحصلّه لك : أن تكون منصفاً لا متعصّب فى شيء من هذه الشريعة ؛ فإنها وديعة الله عندك ، وأمانته لديك ، فلا تخنها ، وتمحق بركتها بالتعصب لعالم من علماء الإسلام ، بأن تجعل ما يصدر عنه من الرأى ويروى له من الاجتهاد حجة عليك وعلى سائر العباد .

---

(١٢) (الفِريَةُ) : الكذب .

فإنك إن فعلت ذلك كنت قد جعلته شارعاً لا متشرعاً ، مكلِّفاً لا مكلَّفاً ، ومتعبَّداً لا متعبِّداً . وفى هذا من الخطر عليك ، والوبال لك ، ما قدّمناه ؛ فإنه وإن فضلك بنوع من أنواع العلم ، وفاق عليك بمدرك من مدارك الفهم ، فهو لم يخرج بذلك عن كونه محكوماً عليه ، متعبداً بما أنت متعبّد ، فضلاً عن أن يرتفع عن هذه الدرجة إلى درجة يكون رأيه فيها حجة على العباد واجتهاده لديها لازماً لهم .

بل الواجب عليك أن تعترف له بالسبق ، وتقرّ له بعلو الدرجة اللائقة به فى العلم ، معتقداً أن ذلك الاجتهاد الذى اجتهده ، والاختيار الذى اختاره لنفسه بعد إحاطته بما لابدّ منه ، هو الذى لا يجب عليه غيره ، ولا يلزمه سواه ؛ لما ثبت فى الصحيح عنه ﷺ من طرق أنّه : « **إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران . وإن اجتهد فأخطأ فله أجر**[١٣] » . وفى خارج الصحاح فى طرق : « **أنه إذا أصاب ، فله عشرة أجور** » . وقد صححه الحاكم فى المستدرك . وفضل الله واسع ، وعطاؤه جمّ .

*توطين النفس على البحث والاجتهاد :

وليس لك أن تعتقد أن صوابه صواب لك ، أو خطأه خطأ عليه ، بل عليك أن توطن نفسك على الجد والاجتهاد ، والبحث بما يدخل تحت طوقك ، وتحيط به قدرتك ، حتى تبلغ إلى ما بلغ إليه من أخذ الأحكام الشرعية من ذلك المعدن الذى لا معدن سواه ، والموطن الذى هو أول الفكر ، وآخر العمل . فإن ظفرت به فقد تدرجت من هذه البداية إلى تلك النهاية ، وإن قصرت عنه لم تكن ملوماً بعد أن قررت عند نفسك ، وأثبت فى تصوّرك : أنه لا حجة إلّا لله ، ولا حكم إلّا منه ، ولا شرع إلّا ما شرعه ، وإن اجتهادات

---

(١٣) رواه البخارى : فى كتاب الاعتصام ، باب ٢٠ ، ٢١ . ومسلم . فى كتاب الأقضية ، حديث رقم ١٥ . وأبو داود : فى كتاب الأقضية ، باب ٢ . والنسائى : فى كتاب الأحكام ، باب ٢ . وكتاب القضاة ، باب ٣ . وابن ماجه : فى كتاب الأحكام ، باب ٣ . وابن حنبل : جزء ٤ ، ص١٩٨ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

المجتهدين ليست بحجة على أحد ، ولا هي من الشريعة فى شيء ، بل هى مختصة بمن صدرت عنه لا تتعداه إلى غيره ، ولا يجوز له أن يحمل عليه أحداً من عباد الله ، ولا يحل لغيره أن يقبلها عنه ، ويجعلها حجة عليه يدين الله بها . فإن هذا شيء لم يأذن الله به ، وأمر لم يسوغه لأحد من عباده .

ولا يغرّك ما استدل به القائلون بجواز التقليد ؛ فإنه لا دلالة فى شيء مما جاءوا به على محلّ النزاع ، وقد أوضحنا ذلك فى مؤلف مستقل ، وهو : « **القول المفيد فى حكم التقليد** » فارجع إليه إن بقى فى صدرك حرج ، فإنك تقف فيه على ما يريحك ، ويثلج به صدرك ، ويفرح عنده روعك .

فإن قلت : وكيف يقتدر على تصوّر ما أرشدت إلى تصوره ، ويتمكن من توطين نفسه على ما دللت عليه ، مَنْ أراد الشروع فى العلم بادىء بدء وهو إذ ذاك لا يدرى ما الشرع ، ولا يتعقل الحجة ، ولا يعرف الانصاف ، ولا يهتدى إلى ما هديته إليه ، إلّا بعد أن يتمرّن ، ويمارس ويكون له من العلم ما يفهم به ما تريد منه ؟

قلت : ما أرشدتُ إليه يعرف بمجرد العقل ، وسلامة الفطرة ، وعدم ورود ما يرد عليها مما يغيرها . وعلى فرض ورود شيء من المغيّرات عليها ، كاعتقاد حقية التقليد ونحوه ، فارتفاع ذلك يحصل بأدنى تنبيه ؛ فإن هذا أمر يقبله الطبع بأول وهلة لمطابقته للواقع وحقيته ، وكل ما كان كذلك فهو مقبول ، والطبائع تنفعل له انفعالًا بأيسر عمل وأقل إرشاد . وهذا أمرٌ يعلمه كل أحد ، ويشترك فى معرفته أفراد الناس على اختلاف طبقاتهم . ولهذا نبّه عليه الشارع ، فقال : « **كل مولود يُولَدُ على الفطرة ، ولكن أبواه يهوِّدانه وينصِّرانه ويمجسانه**[١٤] » ، وهو ثابت فى الصحيح .

---

(١٤) رواه البخارى : فى كتاب الجنائز ، باب ٨٠ ، ٩٢ . ومسلم : فى كتاب القدر ، حديث ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ . وأحمد : جزء ٢ ، ص ٣١٥ ، ٣٤٦ .

★ تجربة الشوكانى مع الاجتهاد :

وإنى أخبرك أيها الطالب عن نفسى تحدثاً بنعمة الله سبحانه ، ثم تقريباً لما ذكرت لك من أن هذا الأمر كامن فى طبائع الناس ، ثابت فى غرائزهم ، وأنه من الفطرة التى فطر الله الناس عليها .

إنى لما أردت الشروع فى طلب العلم ، ولم أكن إذا ذاك قد عرفت شيئاً منه ، حتى ما يتعلق بالطهارة والصلاة إلّا مجرّد ما يتلقاه الصغير من تعليم الكبير لكيفية الصلاة والطهارة ونحوهما ؛ فكان أول بحث طالعته بحث كون الفرجين من أعضاء الوضوء فى الأزهار وشرحه ؛ لأن الشيخ الذى أردت القراءة عليه ، والأخذ عنه ، كان قد بلغ فى تدريس تلامذته إلى هذا البحث ، فلما طالعت هذا البحث قبل الحضور عند الشيخ رأيت اختلاف الأقوال فيه سألت والدى رحمه الله عن تلك الأقوال : أيها يكون العمل عليه ؟

فقال : يكون العمل على ما فى الأزهار .

فقلت : صاحب الأزهار أكثر علماً من هؤلاء ؟

قال : لا .

قلت : فكيف كان اتبّاع قوله دون أقوالهم لازماً ؟

فقال : اصنع كما يصنع الناس ، فإذا فتح الله عليك فستعرف ما يؤخذ به وما يترك .

فسألت الله عند ذلك أن يفتح علىَّ من معارفه ما يتميز لى به الراجح من المرجوح . وكان هذا فى أول بحث نظرته ، وأول موضوع درسته ، وقعدت فيه بين يدى العلم . فاعتبر بهذا ، ولا تستبعد ما أرشدتك إليه ، فتحرم بركة العلم ، وتمحق فائدته .

ثم مازلت بعد كما وصفت لك : أنظر فى مسائل الخلاف ، وأدرسها على الشيوخ ، ولا أعتقد ما يعتقده أهل التقليد من حقية بعضها بمجرد الإلف والعادة ، ولا أعتقد الفساد ، والاقتداء بمن لا يقتدى به ، بل أسأل من عنده

علم بالأدلة عن الراجح ، وأبحث فى كتب الأدلة عن ماله تعلق بذلك ، أستروح إليه ، وأتعلل به ، مع الجد فى الطلب ، واستغراق الأوقات فى العلم خصوصاً علوم الاجتهاد وما يلتحق بها ؛ فإنى نشطت إليها نشاطا زائداً ؛ لما كنت أتصوره من الانتفاع بها حتى فتح الله بما فتح ، ومنح ما منح ، فله الحمد كثيراً حمداً لا يحاط به ، ولا يمكن الوقوف على كنهه .

فإذا وطنّتَ نفسك أيها الطالب على الإنصاف ، وعدم التعصب لمذهب من المذاهب ، ولا لعالم من العلماء ، بل جعلتَ الناس جميعاً بمنزلة واحدة فى كونهم منتمين إلى الشريعة ، محكوماً عليهم بما لا يجدوا لأنفسهم عنها مخرجاً ، ولا يستطيعون تحوُّلا ، فضلًا عن أن يرتقوا إلى واحد منهم أو يلزمه تقليده وقبول قوله ــ فقد فزت بأعظم فوائد العلم ، وربحت بأنفس فرائده .

ولأمر ما جعل صلى الله عليه وآله وسلم المنصف أعلم الناس وإن كان مقصراً ؛ فإنه أخرج الحاكم فى المستدرك وصححه مرفوعاً « **أعرف الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس ، وإن كان مقصراً فى العمل ، وإن كان يزحف على أسته** »* . هكذا فى حفظى فليراجع المستدرك . فانظر كيف جعل صلى الله عليه وآله وسلم المنصف أعلم الناس ، وجعل ذلك هو الخصلة الموجبة للأعلمية ، ولم يعتبر غيرها ، وإنما كان أبصر الناس بالحق إذا اختلف الناس ؛ لأنه لم يكن لديه هوى ، ولا حمّية ، ولا عصبية لمذهب من المذاهب ، أو عالم من العلماء فصفت غريزته عن أن تتكدر بشىء من ذلك ، فلم يكن له مأرب ، ولا مقصد إلّا مجرد معرفة ما جاء عن الشارع ، فظفر بذلك بسهولة من غير مشقةّ ولا تعب ، لأنه موجود إما فى كتاب الله ، وهو بين أظهرنا فى المصاحف الشريفة مفسر بتفاسير العلماء الموثوق بهم ، وإما فى سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهى أيضاً موجودة ، قد ألف أهل العلم فى أدلة المسائل من السنّة كتباً متنوعة ، منها ماهو على أبواب الفقه ، ومنها ماهو على

* لم نقف عليه بهذا اللفظ ولا بلفظ قريب منه فى المستدرك .

حروف المعجم ، فكان تناوله يسيراً . ثم قد تكلم الأئمة على صحتها ، وحسنها ، وضعفها ، فجاؤوا بما لا يحتاج الناظر معه إلى غيره ، ووضعوا فى ذلك مؤلفات مشتملة على ذلك اشتمالًا على أحسن وجه ، وأبدع أسلوب ، ثم أوضحوا ما فى السنّة من الغريب ، بل جمعوا بين المتعارضات ، ورجحوا ما هو راجح ، ولم يدعو شيئا تدعو إليه الحاجة . فإذا وقف على ذلك من قد تأهّل للاجتهاد ، وظفر بعلومه ، أخذه أخذ غير أخذ مَن لم يكن كذلك ، وعمل عليه مطمئنة به نفسه ، ساكنة إليه ، نافرة عن غيره ، هاربة منه .

الأسباب التى تؤدى إلى البعد عن الحق والعصبية

★النشوء فى بلد متمذهب بمذهب معين
★حب الشرف والمال
★الجدال والمراء وحب الظهور
★حب القرابة والتعصب للأجداد
★صعوبة الرجوع إلى الحق لقوله بخلافه
★كون المنافس المتكلم بالحق صغير السن أو الشأن
★ آفات الشيوخ والتلاميذ
★علاج التعصب
★العواقب الوخيمة للتعصب والبعد عن الحق
★عود إلى أسباب التعصب :
★ الاستناد إلى قواعد ظنية
★عدم الموضوعية فى عرض حججِ الخصوم
★المنافسة بين الأقران
★التباس ماهو من الرأى البحت بشىء من العلوم التى هى مواد الاجتهاد .

الأسباب التى تؤدى إلى البعد عن الحق والتعصب

واعلم أن سبب الخروج عن دائرة الإنصاف ، والوقوع فى موبقات التعصب ، كثيرة جداً ، فمنها :

★النشوء فى بلد متمذهب بمذهب معين :

وهو أكثرها وقوعاً وأشدها بلاءً : أن ينشأ طالب العلم فى بلد من البلدان التى قد تمذهب أهلها بمذهب معيّن ، واقتدوا بعالم مخصوص ، وهذا الداء قد طبق فى بلاد الإسلام ، وعم أهلها ، ولم يخرج عنه إلّا أفراد قد يوجد الواحد منهم فى المدينة الكبيرة وقد لا يوجد ، لأن هؤلاء الذين ألفوا هذه المذاهب قد صارو يعتقدون أنها هى الشريعة ، وأن ماخرج عنها خارج عن الدين مباين لسبيل المؤمنين : ﴿**كل حزبٍ بما لديهم فرحون**[١٥] ﴾ ، فأهل هذا المذهب يعتقدون أن الحق بأيديهم ، وأن غيرهم على الخطأ والضلال والبدعة ، وأهل المذهب الآخر يقابلونهم بمثل ذلك . والسبب أنهم نشأوا ، فوجدوا آباءهم وسائر قراباتهم على ذلك ، ورثه الخلف عن السلف ، والآخر عن الأول ، وانضم إلى ذلك قصورهم عن إدراك الحقائق بسبب التغيير الذى ورد عليهم ممن وجدوه قبلهم .

وإذا وُجد فيهم مَن يعرف الحق فهو لا يستطيع أن ينطق بذلك مع أخص خواصه ، وأقرب قرابته ، فضلًا عن غيره ؛ لما يخافه على نفسه ، أو على ماله ، أو على جاهه ، بحسْب اختلاف المقاصد ، وتباين العزائم الدينية ؛ فيحصل من قصورهم ، مع تغيّر فطرهم بمن أرشدهم إلى البقاء على ماهم عليه وأنه الحق ، وخلافه الباطل ، وسكوت من له فطنة ، ولديه عرفان ، وعنده انصاف ، عن

---

(١٥) الروم : ٣٢ ، والمؤمنون : ٥٣ . وفى الأصل : (وكل حزب ...) وهو خطأ ، فليس بالآية (واو) كما أثبتناه أعلاه .

تعليمهم معالم الإنصاف ، وهدايتهم إلى طرق الحق مايوجب جمودهم على ماهم عليه ، واعتقادهم ان الحق مقصور عليه منحصر فيه ، وأن غيره ليس من الدين ، ولا هو من الحق . فإذا سمع عالماً من العلماء يفتى بخلافه أو يعمل على مالا يوافقه اعتقد أنه من أهل الضلال ، ومن الدعّاة إلى البدعة . وهذا إذا عجز عن إنزال الضرر به بيده أو لسانه ، فإن تمكن من ذلك فعله ، معتقداً أنه من أعظم ما يتقرّب به إلى الله ، ويدخره فى صحائف حسناته ، ويتأجر الله

وهذا معلوم لكل أحد ، وقد شاهدنا منه مالا يأتى عليه حصر ، ولا تحيط به عبارة ، بل قد بلغ هذا المتعصب فى معاداة مَنْ يخالفه إلى حد تجاوز به عدواته لليهود والنصارى . ولو علم المخدوع المغرور بأن سعيه ضلال ، وعمله وبال ، وأنه من : ﴿**الأخسرين أعمالًا الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعاً**﴾ [١٦] لأقصر عن غوايته ، وارعوى [١٧] عن بعض جهله ، لكنه جهل قدر نفسه وخسران سعيه ، وتحامى غيره من أهل المعرفة والفهم إرشاده إلى الحق وتنبيهه على فساد ما هو فيه مخافة على نفسه منه ، وممن يشابهه فى ذلك ؛ فتعاظم الأمر ، وعم البلاء ، وتفاقم الأمر ، وعمّ الضرر .

ولو نظر ذلك المتعصب بعين الإنصاف ، ورجع إلى عقله ، وما تقتضيه فطرته الأصيلة ، لكف عن فعله ، وأقصر عن غيه وجهله ، ولكنه قد حيل بينه وبين ذاك ، وفرغ الشيطان منه إلّا من عصم الله ، وقليل ماهم .

وهكذا صاحب المعرفة ، وحامل الحجة ، وثاقب الفهم ، لو وطّن نفسه على الإرشاد ، وتكلم بكلمة الحق ونصر الله سبحانه ، ونصر دينه ، وقام فى تبيين ما أمره الله بتبيينه ـــ لحمد مسراه ، وشكر عاقبته ، وأراه الله سبحانه من بدائع صنعه ، وعجائب وقايته ، وصدق ماوعد به من قوله : ﴿**ولينصرنّ الله من ينصره**﴾ [١٨] ﴿**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾ [١٩] ما يزيده

---

(١٦) الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٤ .

(١٧) (ارْعَوَى) : كفّ وارتدع .

(١٨) الحج : ٤٠ .

(١٩) محمد : ٧ .

ثباتاً ، ويشد من عضده ، ويقوى قلبه فى نصرة الحق ومعاضدة أهله .

ومن تأمل الأمر كما ينبغى عرف أن كل قائم بحجة الله إذا بيّنها للناس كما أمره الله ، وصدع بالحق ، وضرب بالبدعة فى وجه صاحبها ، وألقم المتعصب حجراً وأوضح له ما شرعه الله لعباده ، وأنه فى تمسّكه بمحض الرأى مع وجود البرهان الثابت عن صاحب الشرع كخابط عشواء[20] وراكب العمياء . فإن قبل منه ظفر بما وعده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأجر فى حديث : «**لأن يهدى الله بك رجلاً**» الحديث[21] ، وإن لم يقبل منه كان قد فعل ماوجب الله عليه وخلص نفسه من كتم العلم الذى أمره الله بإفشائه ، وخرج من ورطة أن يكون من الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى ، ودفع الله عنه ما سوّلته له نفسه الأمّارة من الظنون الكاذبة والأوهام الباطلة ، وانتهى حاله إلى أن يكونَ كعبه الأعلى ، وقوله الأرفع ، ولم يزده ذلك إلاّ رفعةً فى الدنيا والآخرة ، وحظا عند عباد الله ، وظفراً بما وعد الله به عباده المتقين . وهم وإن أرادوا أن يضعوه بكثرة الأقاويل ، وتزوير المطاعن ، وتلفيق العيوب ، وتواعدوه بإيقاع المكروه به ، وإنزال الضرر عليه ، فذلك كله ينتهى إلى خلاف ما قدّروه ، وعكس ما ظنوه ، وكانت العاقبة للمتقين ، كما وعد به عباده المؤمنين : ﴿ **ولا يحيق المكر السىء إلاّ بأهله** ﴾[22] .

ولقد تتبّعت أحوال كثير من القائمين بالحق المبلغين له ، كما أمر الله المرشدين إلى الحق ، فوجدتهم ينالون من حسن الأحدوثة ، وبُعد الصّيت ، وقوّة الشهرة ، وانتشار العلم ، ونفاق المؤلفات ، وطيرانها ، وقبولها فى الناس ، مالا يبلغه غيرهم ، ولا يناله من سواهم .

وسأذكر لك هنا جماعةً ممن اشتهرت مذاهبهم ، وانتشرت أقوالهم ، وطارت

---

(٢٠) (العشواء) : مؤنث الأعشى . ويقال : هو يخبط خبط عشواء : أى يخطىء ويصيب . وهم فى عشواء من أمرهم : أى فى حيرة وقلة هداية . وركب العشواء : خبط أمره على غير بصيرة .

(٢١) رواه البخارى : فى كتاب الجهاد ، باب ١٠٢ ، ١٤٣ ؛ وفى كتاب فضائل أصحاب النبى باب ٩ وفى كتاب المغازى ، باب ٣٨ ومسلم : فى كتاب فضائل الصحابة ، حديث ٣٥ . وأحمد : جزء ٥ ، ص ٢٣٨ ، ٣٣٣ .

(٢٢) فاطر : ٤٣ .

مصنفاتهم بعدهم ، وما أصابهم من المحنة ما نالهم ؛ كإمام دار الهجرة مالك بن أنس[٢٣] ؛ فإنه بلى بخصوم وعاداه ملوك ، فنشر الله مذهبه فى الأقطار واشتهر من أقواله ماملأ الأنجاد والأغوار .

كذلك الإمام أحمد بن حنبل[٢٤] فإنه وقع له من المحن التى هى منح ، مما لا يخفى على من له اطّلاع ، وضُرب بين يدى المعتصم العباسى[٢٥] ضرباً مبرحاً ، وهمّوا بقتله مرة بعد مرة ، وسجنوه فى الأمكنة المظلمة ، وكبلوه بالحديد ، ونوعوا له أنواع العذاب ، فنشر الله من علومه مالا يحتاج إلى بيان ، ولا يفتقر إلى إيضاح ، وكانت العاقبة له ، فصار بعد ذلك إمام الدنيا غير مدافع ، ومرجع أهل العلم غير منازع ، ودوَّن الناس كلماته ، وانتفعوا بها ، وكان يتكلم بالكلمة فتطير فى الآفاق ، فإذا تكلم بالكلمة فى رجل بجرح تبعه الناس ، وبطل علم المجروح ، وإن تكلّم فى رجل بتعديل كان هو العدل الذى لا يحتاج بعد تعديله إلى غيره .

ثم الإمام محمد بن إسماعيل البخارى [٢٦] أصابه من محمد بن يحيى الذهلى[٢٧]

---

(٢٣) مالك بن أنس : (٩٣ ـ ١٧٩ هـ = ٧١٢ ـ ٧٩٥ م) ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، وإليه تنسب المالكية . مولده ووفاته بالمدينة . كان صلباً فى دينه ، بعيداً عن الأمراء والملوك . وسأله المنصور أن يضع كتاباً للناس يحملهم على العمل به ، فصنف «الموطأ» . الأعلام ٥ : ٢٥٨ ، وتهذيب التهذيب ١٠ : ٥،واللباب ٣ : ٨٦ ، وصفة الصفوة ٢ : ٩٩ .

(٢٤) أحمد بن حنبل : (١٦٤ ـ ٢٤١ هـ = ٧٨٠ ـ ٨٥٥ م) ، إمام المذهب الحنبلى ، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة . أصله من مرو ، وولد ببغداد . وصنف «المسند» يحتوى على ثلاثين ألف حديث بدون المكرر وأربعين ألف بالمكرر . الأعلام ١ : ٢٠٣ ، وتاريخ بغداد ٤ : ٤١٢ ، والبداية والنهاية ١٠ : ٣٢٥ ـ ٣٤٣ .

(٢٥) محمد بن هارون الرشيد ، المعتصم بالله العباسى : (١٧٩ ـ ٢٢٧ هـ = ٧٩٥ ـ ٨٤١ م) ، خليفة من أعاظم خلفاء بنى العباس . وكان لين العريكة ، رضىّ الخلق ، اتسع ملكه جداً . تاريخ بغداد ٣ : ٣٤٢ ، والطبرى ١١ : ٦ ، والأعلام ٧ : ١٢٧ ، وابن الأثير ٦ : ١٤٨ ـ ١٧٩ .

(٢٦) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارى : (١٩٤ ـ ٢٥٦ هـ = ٨١٠ ـ ٨٧٠ م) ، ولد فى بخارى ، ونشأ يتيماً . له أسفار طويلة فى طلب الحديث ، وسمع من نحو ألف شيخ وجمع نحو ستمائة ألف حديث ، اختار منها فى صحيحه ماوثق منه . وكتابه الصحيح من أوثق كتب الحديث . تاريخ بغداد ٢ : ٤ ـ ٣٦ ،وتذكرة الحفاظ ٢ : ١٢٢ ، والأعلام ٦ : ٣٤ ، والسبكى ٢ : ٢ ، وتهذيب التهذيب ٩ : ٤٧ .و إذا أردت درَاسة تحليلية لقيمة كتابه بالنسبة لكتب السنة ومقارنة بينه وبين صحيح مسلم ، فارجع لكتابنا : «مفاتيح علوم الحديث وطرق تخريجه» ، من إصدار مكتبة القرآن .

(٢٧) محمد بن يحيى الذهلى : (١٧٢ ـ ٢٥٨ هـ = ٧٨٨ ـ ٨٧٢ م) ثقة حافظ للحديث ، من أهل =

وأتباعه من المحنة ما مات به كمداً ، ثم جعل الله تعالى كتابه الجامع الصحيح كما ترى أصح كتاب فى الدنيا ، وأشهر مؤلف فى الحديث ، وأجل دفتر من دفاتر الإسلام .

ثم انظر أحوال من جاء بعد هؤلاء بدهر طويل كابن حزم المغربى(٢٨) ؛ فإنه أصيب بمحن عظيمة بسبب ما أظهره من إرشاد الناس إلى الدليل ، والصدع بالحق ، وتضعيف علم الرأى ، حتى أفضى ذلك إلى امتحان الملوك له ، وإيقاعهم به ، وتشريده من مواطنه ، وتحريق مصنّفاته . ومع ذلك نشر الله من علومه ما صار عند كل فرقة ، وفى كل بلاد المسلمين ، وبين ظهرانى كل طائفة .

ثم كذلك شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية أحمد بن عبد الحليم(٢٩) ؛ فإنه لما أبان للناس فساد الرأى ، وأرشدهم إلى التمسك بالدليل ، وصدع بما أمره الله به ، ولم يخف فى الله لومة لائم ؛ قام عليه طوائف من المنتمين إلى العلم ، المنتحلين له من أهل المناصب وغيرهم ، فمازالوا يحاولون ، ويصاولون ، ويسعون به إلى الملوك ، ويعقدون له مجالس المناظرة ، ويفتون تارة بسفك دمه ، وتارة بتشريده وتارةً باعتقاله ؛ فنشر الله من فوائده ما لم ينشر بعضه لأحد من معاصريه ، وترجمه أعداؤه فضلًا عن أصدقائه بتراجم لم يتيسر لهم مثلها ، ولا مايقارنها لأحد من الذين يتعصبون لهم ، ويدأبون فى نشر فضائلهم ،

=نيسابور ، له أسفار طويلة فى طلب الحديث ، كان شيخ العلم بخراسان ، وروى عنه البخارى ٣٤ حديثاً . له كتاب «الزهريات» فى مجلدين اعتنى فيه بحديث الزهرى. تهذيب التهذيب ٩ : ٥١١ ، وتاريخ بغداد ٣ : ٤١٥ ، والأعلام ٧ : ١٣٥ .

(٢٨) على بن أحمد بن سعيد بن حزم : (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ = ٩٩٤ - ١٠٦٤ م) ، أحد الأئمة الراسخين فى علم الإسلام ، من صدور الباحثين ، فقيهاً ، حافظاً ، يستنبط الأحكام ببراعة من الكتاب والسنة ، بعيداً عن المصانعة . أشهر مصنفاته «المحلى» فى الفقه ، و«الفصل فى الملل والأهواء والنحل» . إرشاد الأريب ٥ : ٨٦ - ٩٧ ، ولسان الميزان ٤ : ١٩٨ ، والأعلام ٤ : ٢٥٤ ، واللباب ١ : ٢٩٧ .

(٢٩) أحمد بن عبد الحليم ، تقى الدين ابن تيمية : (٦٦١ - ٧٢٨ هـ = ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م) ، من علماء الإسلام ، كان كثير البحث فى فنون الحكمة ، داعية إصلاح فى الدين . من مصنفاته «الحسنة والسيئة» بتحقيقى وإصدار دار الكتاب العربى ، و«السياسة الشرعية» و«التوسل والوسيلة» . البداية والنهاية ١٤ : ١٣٥ ، والدرر الكامنة ١ : ١٤٤ ، والنجوم الزاهرة ٩ : ٢٧١ ، والأعلام ١ : ١٤٤ .

ويطرؤون فى إطرائهم ، وجعل الله له من ارتفاع الصيت ، وبُعد الشهرة ، مالم يكن لأحد من أهل عصره ، حتى اختلف من جاء بعد عصره فى شأنه ، واشتغلوا بأمره ، فعاداه قوم ، وخالفهم آخرون ، والكل معترفون بقدره ، معظمون له ، خاضعون لعلومه ، واشتهر هذا بينهم غاية الاشتهار ، حتى ذكره المترجمون لهم فى تراجمهم ، فيقولون : وكان من المائلين إلى ابن تيمية ، أو المائلين عنه .

وهذه الإشارة ، إنما هى لقصد الايضاح لك ؛ لتعلم بما يصنعه الله لعباده ، وعلماء دينه ، وحملة حجته . وفى كل عصر من هذا الجنس مَنْ تقوم به الحجة على العباد .

وانظر فى أهل قطرنا ، فإنه لا يخفى عليك حالهم إن كنت ممن له اطلاع على أخبار الناس ، وبحث عن أحوالهم ، كالسيد الإمام محمد بن إبراهيم الوزير[٣٠] ؛ فإنه قام داعياً إلى الدليل فى ديارنا هذه ، فى وقت غربة ، وزمان ميل من الناس إلى التقليد ، وإعراض عن العمل بالبرهان ؛ فناله من أهل عصره من المحن ماشتملت عليه مصنفاته ، حتى ترسل عليه من ترسل من مشائخه برسالة حاصلها الإنكار عليه لما هو فيه من العمل بالدليل ، وطرح التقليد . وقام عليه كثير من الناس ، وثلبوه بالنظم والنثر ، ولم يضيره ذلك شيئاً ، بل نشر الله من علومه ، وأظهر من معارفه ماطار كل مطار .

ثم جاء بعده ، مع طول فصل ، وبُعد عهد : السيد العلامة الحسن بن أحمد الجلال[٣١] ، والعلامة صالح بن مهدى المقبلى[٣٢] ؛ فنالا من المحن والعداوة من

---

(٣٠) محمد بن إبراهيم الوزير : (٧٧٥ ـ ٨٤٠ هـ ـ ١٣٧٣ ـ ١٤٣٦ م) ، مجتهد باحث ، من أعيان اليمن . له كتب نفائس ، منها « إيثار الحق على الخلق » و« البرهان القاطع فى إثبات الصانع » . الضوء اللامع ٦ : ٢٧٢ ، وأبجد العلوم ٨٦٧ ، والأعلام ٥ : ٣٠٠ .

(٣١) فى الأصول « الحسين بن أحمد الجلال » ، والصواب الحسن بن أحمد الجلال ، كما أثبتناه أعلاه ، وهو فقيه عارف بالتفسير والعربية والمنطق ، مولده ووفاته (١٠١٤ ـ ١٠٨٤ هـ = ١٦٠٥ ـ ١٦٧٣ م) . من مصنفاته « تكملة الكشف على الكشاف » ، و« شرح الكافية » فى النحو . خلاصة الأثر ٢ : ١٧ ، والبدر الطالع ٢ : ١٩١ ، والأعلام ٢ : ١٨٢ .

(٣٢) صالح بن مهدى المقبلى : (١٠٤٧ ـ ١١٠٨ م = ١٦٣٧ ـ ١٦٩٦ م) ، مجتهد ، من أعيان=

أهل عصرهما ماحمل الأول على استقراره فى هجرة الجراف[٣٣] ، منعزلًا عن الناس . وحمل الثانى على الارتحال إلى الحرم الشريف ، والاستقرار فيه ، حتى توفاه الله فيه . ومع هذا فنشر الله من علومهما ، وأظهر مؤلفاتهما مالم يكن لأحدٍ من أهل عصرهما مايقاربه ، فضلًا عن أن يساويه .

ثم كان فى العصر الذى قبل عصرنا هذا : السيد العلامة محمد بن إسماعيل الأمير[٣٤] . وله فى القيام بحجة الله ، والإرشاد إليها ، وتنفير الناس عن العمل بالرأى ، وترغيبهم إلى علم الرواية ماهو مشهور معروف ؛ فعاداه أهل عصره ، وسعوا به إلى الملوك ، ولم يتركوا فى السعى عليه بما يضره جَهداً ، وطالت بينه وبينهم المصاولة والمقاولة ، ولم يظفروا منه بطائل ، ولا نقصوه من جاهٍ ولا مال ، ورفعه الله عليهم ، وجعل كلمته العليا ، ونشر له من المصنفات المطوّلة والمختصرة ماهو معلوم عند أهل هذه الديار ، ولم ينتشر لمعاصريه المؤذين له المبالغين فى ضره بحث من المباحث العلمية ، فضلًا عن رسالة ، فضلًا عن مؤلف بسيط . فهذه عادة الله فى عباده فاعلمها وتيقنها .[٣٥]

وكان شيخنا السيد العلامة عبد القادر بن أحمد[٣٦] رحمه الله من أكثر الناس نشراً للحق ، وإرشاداً له ، وتلقيناً له ، وهدماً لمايخالفه ؛ فجعله الله علماً

=الفقهاء . وكان على مذهب الإمام زيد ، فنبذ التقليد . من مصنفاته « العلم الشامخ فى إيثار الحق على الآباء والمشايخ » ، « المنار على البحر الزخار » . وكان لا يبالى بمن يخالفه ، حين يجد الدليل ، كائناً من كان . نبلاء اليمن ١ : ٧٨١ ، والبدر الطالع ١ : ٢٨٨ ، والدر الفريد ٣٧ ، والأعلام ٣ : ١٩٧ .

(٣٣) ضاحية شمال صنعاء .

(٣٤) محمد بن إسماعيل الأمير : (١٠٩٩ — ١١٨٢ هـ = ١٦٨٨ — ١٧٦٨م) ، مجتهد ، من بيت الإمامة باليمن . له نحو مائة مؤلف ، منها « سبل السلام » ، و« إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد » . ابجد العلوم ٨٦٨ ، والبدر الطالع ٢ : ١٣٣ — ١٣٩ ، وتوضيح الأفكار ١ : ٧٣ ، والأعلام ٦ : ٣٨ .

(٣٥) فى الأصول : « ويتقنها » ، وهو تحريف ، والصواب ماأثبتناه أعلاه .

(٣٦) عبد القادر بن أحمد : (١١٣٥ — ١٢٠٧ هـ = ١٧٢٣ — ١٧٩٢ م) ، محدث مجتهد ، من علماء الزيدية باليمن . له كتب كثيرة ، منها « مسند » فى أسماء شيوخه ، و« شرح نزهة الطرف » للأخفش الصنعانى . وهو مشهور بالكوكبانى نسبة إلى كوكبان التى بها نشأته . البدر الطالع ١ : ٣٦٠ — ٣٦٨ ، ونيل الوطر ٢ : ٤٤ ، والأعلام ٤ : ٣٧ .

يُقتدى به ، ومرجعاً يأوى إليه أهل عصره ، وأخضع له كل مخالف له ، واعترف له كل واحدٍ بإنه إمام عصره ، وعالمه ، ومجتهده . ولم يضره ما كان يناله به المخالفون له من الغيبة ، التى هى غاية ما يقدرون عليه ، ونهاية ما يبلغون إليه .

وإنى أخبرك أيها الطالب عن نفسى ، وعن الحوادث الجارية بينى وبين أهل عصرى ؛ ليزداد يقينك ، وتكون على بصيرة فيما أرشدتك إليه . اعلم أنى كنت عند شروعى فى الطلب على الصفة التى ذكرتها لك سابقاً ، ثم كنت بعد التمكن من البحث عن الدليل ، والنظر فى مجاميعه ، أذكر فى مجالس شيوخى ومواقف تدريسهم وعند الاجتماع بأهل العلم ماقد عرفته من ذلك ، لا سيما عند الكلام فى شىء من الرأى مخالف الدليل أو عند ورود قول عالم من أهل العلم قد تمسك بدليل ضعيف ، وترك الدليل القوى ، أو أخذ بدليل عام وبعمل خاص ، أو بمطلق وطرح المقيّد ، أو بمجمل ولم يعرف المبيّن ، أو بمنسوخ ولم ينتبه للناسخ ، أو بأول ولم يعرف بآخر ، أو بمحض رأى ولم يبلغه أن فى تلك المسألة دليلًا يتعيّن عليه العمل به . فكنت إذا سمعت بشىء من هذا ، لا سيما فى مواقف المتعصبين ، ومجامع الجامدين ، تكلمت بما بلغت إليه مقدرتى ، وأقل الأحوال أن أقول : استدلّ هذا بكذا ، وفلان المخالف له بكذا ، ودليل فلان أرجح لكذا . فمازال أسراء التقليد يستنكرون ذلك ، ويستعظمونه لعدم الفهم به ، وقبول طبائعهم له ؛ حتى ولّد ذلك فى قلوبهم من العداوة والبغضاء ما الله به عليم .

ثم كنت إذا فرغت من أخذ فن من الفنون ، أو مصنّف من المصنفات على شيوخى ، أقبل جماعة من الطلبة إلىّ ، وعوّلوا علىّ فى تدريسهم فى ذلك . فكان يأخذ أترابى شيئاً من الحسد الذى لا يخلو عنه إلّا القليل .

ثم تكاثر الطلبة علىّ فى علوم الاجتهاد وغيرها ، وأخذوا عنى أخذاً خالياً عن التعصب سالماً من الاعتساف . فكنتُ أقرر لهم دليل كل مسألة ، وأوضح

لهم الراجح فيها ، وأصرّح لهم بوجوب المصير إلى ذلك ، وكانوا قد تمرّنوا ، وعرفوا علوم الاجتهاد ، وذهب عنهم ماتكدرت به فطرهم من المغيّرات .

فزاد ذلك المخالفين عداوة وشناعة وحسداً وبغضاً ، وأطلقوا ألسنتهم بذلك . وكان مع ذلك ترد إلىّ أبحاث من جماعة من أهل العلم الساكنين بصنعاء وغيرهم من أهل البلاد البعيدة والمدائن النائية ، فأحرر الجوابات عليهم فى رسائل مستقلة ، ويرغب تلامذتى لتحصيل ذلك ، وتنتشر فى الناس . فإذا وقف عليه المتعصبون ، ورأوه يخالف مايعتقدون استشاطوا غضباً ، وعرضوا ذلك على مَن يرجون منه الموافقة والمساعدة ؛ فمن ثالبٍ بلسانه ، ومعترض بقلمه ، وأنا مصمّم على ماأنا فيه لاأنثنى عنه ولاأميل عن الطريقة التى أنا فيها ، وكثيراً مايرفعون ذلك إلى من لاعلم عنده من رؤساء الدولة الذين لهم فى الناس شهرة وصولة ، فكان فى كل حين يبلغنى من ذلك العجب ، ويناصحنى من يظهر لى المودّة ، ومن لاتخفى عليه حقيقة ماأقوله وحقيته ، مع اعترافهم بأن ماأسلكه هو ماأخذه الله على الذين حملوا الحجة ، لكنهم يتعللون بأن الواجب يسقط بدون ذلك ، ويذكرون أحوال أهل الزمان وماهم عليه ، وما يخشونه من العواقب ، فلا أرفع لذلك رأساً ، ولا أعوّل عليه .

وكنت أتصوّر فى نفسى أن هؤلاء الذين يتعصبون علىّ ، ويشغلون أنفسهم بذكرى ، والحطّ علىّ هم أحد رجلين :

إمّا جاهل لايدرى أنه جاهل ، ولايهتدى بالهداية ، ولايعرف الصواب . وهذا لايعبأ الله به .

أو رجل متميز ، له حظ من علم ، وحصّة من فهم ، لكنه قد أعمى بصيرته الحسد ، وذهب بإنصافه حب الجاه . وهذا لاينجع فيه الدواء ، ولاتنفع عنده المحاسنة ، ولايؤثر فيه شىء .

فمازلت على ذلك ، وأنا أجد المنفعة بما يصنعونه أكثر من المضرَّة ، والمصلحة العائدة على ماأنا فيه بماهم فيه أكثر من المفسدة .

ولقد اشتد بلاهم ، وتفاقمت محنتهم فى بعض الواقعات ، فقاموا قومة شيطانية ، وصالوا صولة جاهلية . وذلك أنه ورد إلىّ سؤال فى شأن ما يقع من كثير من المقصّرين من الذم لجماعة من الصحابة ، صانهم الله ، وغضب على من ينتهك أعراضهم المصونة ؛ فأجبت برسالة[٣٧] ذكرت فيها ما كان عليه أئمة الزيدية من أهل البيت وغيرهم ، ونقلت إجماعهم من طرق ، وذكرت كلمات قالها جماعة من أكابر الأئمة . وظننت أن نقل إجماع أهل العلم يرفع عنهم العماية ، ويردّهم عن طرق الغواية ؛ فقاموا بأجمعهم ، وحرروا جوابات زيادة على عشرين رسالة مشتملة على الشتم والمعارضة بما لا ينفق إلا على بهيمة ، واشتغلوا بتحرير ذلك ، وأشاعوه بين العامة ، ولم يجدوا عند الخاصة إلّا الموافقة تقيه لشرهم ، وفراراً من معرتهم ، وزاد الشر ، وتفاقم ، حتى أبلغوا ذلك إلى أرباب الدولة ، والمخالطين للملوك من الوزراء وغيرهم ، وأبلغوه إلى مقام خليفة العصر[٣٨] حفظه الله ، وعظم القضية عليه جماعة ممن يتصل به ، فمنهم من يشير عليه بحبسى ، ومنهم من ينتصح له بأخراجى من مواطنى ، وهو ساكت لا يلتفت إلى شيء من ذلك ؛ وقاية من الله ، وحماية لأهل العلم ، ومدافعة عن القائمين بالحجة فى عباده .

ولم تكن لى إذ ذاك مداخلة لأحد من أرباب الدولة ، ولا اتصال بهم . واشتد لهج[٣٩] الناس بهذه القضية ، وجعلوها حديثهم فى مجامعهم . وكان من بينى وبينهم مودّة يشيرون علىّ بالفرار ، أو الاستتار . وأجمع رأيهم على أنى إذا لم أساعدهم على أحد الأمرين ، فلا أعود إلى مجالس التدريس التى كنت أدرّس بها فى جامع صنعاء . فنظرت ما عند تلامذتى ، فوجدت أنفسهم قوية ، ورغبتهم فى التدريس شديدة ، إلّا القليل منهم ، فقد كادوا يستترون من

---

(٣٧) تسمى « إرشاد الغبى إلى مذهب أهل البيت فى صحب النبى » .

(٣٨) يقصد : على (المنصور بالله) بن العباس ، من بنى القاسم ، من سلالة الهادى إلى الحق : إمام زيدى يمنى . مولده ووفاته بصنعاء (١١٥١ ـ ١٢٢٤ ـ ١٧٣٨ ـ ١٨٠٩ م) . وكان سليم الطوية ، محباً للعمران . نيل الوطر ٢ : ١٤٠ ، وبلوغ المرام ٧٠ ، والبدر الطالع ١ : ٤٥٩ ـ ٤٦٧ .

(٣٩) (لهج) بالأمر : أولع به فثابر عليه واعتاده .

الخوف ، ويفرون من الفزع .

فلم أجد لى رخصةً فى البعد عن مجالس التدريس ..

وعدت ، وكان أول درس عاودته عند وصولى إلى الجامع فى أصول الفقه بين العشائين . فانقلب من بالجامع ، وتركوا ما هم فيه من الدرس والتدريس ، ووقفوا ينظرون إلىّ متعجبين من الإقدام على ذلك ؛ لما قد تقدر عندهم من عظم الأمر ، وكثرة التهويل والوعيد والترهيب ، حتى ظنوا أنه لا يمكن البقاء فى صنعاء ، فضلًا عن المعاودة للتدريس . ثم وصل وأنا فى حال ذلك الدرس جماعة لم تجرِ لهم عادة بالوصول إلى الجامع ، وهم متلفعون بثيابهم لا يعرفون ، وكانوا ينظرون إلىّ ، ويقفون قليلًا ، ثم يذهبون ، ويأتى آخرون ، حتى لم يبقَ شك مع أحد أنها إن لم تحصل منهم فتنة فى الحال وقعت مع خروجى من الجامع . فخرجت من الجامع ، وهم واقفون على مواضع من طريقى ، فما سمعت من أحدهم كلمة فضلًا عن غير ذلك .

وعاودت الدروس كلها ، وتكاثر الطلبة المتميزون زيادة على ما كانوا عليه فى كل فن . وقد كانوا ظنوا أنه لا يستطيع أحد أن يقف بين يدى مخافةً على أنفسهم من الدولة والعامة ، فكان الأمر على خلاف ما ظنه . وكنت أتعجب من ذلك ، وأقول فى نفسى : هذا من صنع الله الحسن ، ولطفه الخفى ؛ لأن من كان الحامل له على ما وقع الحسد والمنافسة لم ينجح كيده ، بل كان الأمر على خلاف ما يريد .

ومن عجيب ما أشرحه لك : أنه كان فى درس بالجامع ، بعد صلاة العشاء الآخرة فى صحيح البخارى ، يحضره من أهل العلم الذين مقصدهم الرواية وإثبات السماع جماعة ، ويحضره من عامة الناس جمعٌ جمّ لقصد الاستفادة بالحضور .

فسمع ذلك وزير رافضى(٤٠) من وزراء الدولة ، وكانت له صولة وقبول كلمة بحيث لا يخالفه أحد ، وله تعلق بأمر الأجناد ، فحمله ذلك على أن

(٤٠) نسبة إلى الرافضة أو الروافض ، وهم فرقة من فرق الشيعة .

استدعى رجلاً من المساعدين له فى مذهبه ، فنصب له كرسياً فى مسجد من مساجد صنعاء ، ثم كان يسرج له الشمع الكثير فى ذلك المسجد حتى يصير عجباً من العجب ؛ فتسامع به الناس ، وقصدوا إليه من كل جانب لقصد الفرجة والنظر إلى مالا عهد به ، والرجل الذى على الكرسى يملى عليهم فى كل وقت مايتضمن الثلب(٤١) لجماعة من الصحابة صانهم الله .

ثم لم يكتفِ ذلك الوزير بذلك حتى أغرى جماعة من الأجناد من العبيد وغيرهم بالوصول إلىّ لقصد الفتنة ، فوصلوا وصلاة العشاء الآخرة قائمة ، ودخلوا الجامع على هيئة منكرة ، وشاهدتهم عند وصولهم .

فلما فرغت الصلاة ، قال لى جماعة من معارفى : إنه يحسن ترك الإملاء تلك الليلة فى البخارى . فلم تطب نفسى بذلك ، واستعنت بالله ، وتوكلت عليه ، وقعدت فى المكان المعتاد ، وقد حضر بعض التلاميذ ، وبعضهم لم يحضر تلك الليلة لما شاهد وصول أولئك الأجناد .

ولما عقدت الدرس وأخذت فى الإملاء ، رأيت أولئك يدورون حول الحلقة من جانب إلى جانب ، ويقعقعون بالسلاح ، ويضربون سلاح بعضهم فى بعض . ثم ذهبوا ، ولم يقع شىء بمعونة الله تعالى وفضله ووقايته .

ثم أن ذلك الوزير أكثر السعاية إلى المقام الإمامى هو ومَنْ يوافقه على هواه ويطابقه فى اعتقاده من أعوان الدولة ، واستعانوا برسائل بعضها من علماء السوء ، وبعضها من جماعة من المقصرين الذين يظنهم من لا خبرة له فى عداد أهل العلم .

وحاصل مافى تلك الرسائل : إنى قد أردت تبديل مذهب أهل البيت عليهم السلام ، وانه إذا لم يتدارك ذلك الخليفة بطل مذهب آبائه ، ونحو هذا من العبارات المفتراة ، والكلمات الخشنة ، والأكاذيب الملفقة .

ولقد وقفت على رسالة منها لبعض أهل العلم ممن جمعنى وإياه طلب العلم ،

---

(٤١) الثلب : المعيب .

ونظمنا جميعاً عقد المودة وسابق الإلفة ، فرأيته يقول فيها مخاطباً لإمام العصر : إن الذى ينبغى له ، ويجب عليه ، أن يأمر جماعة يكبسون منزلى ، ويهجمون مسكنى ، ويأخذون مافيه من الكتب المتضمنة لما يوجب العقوبة من الاجتهادات المخالفة للمذهب .

فلما وقفت على ذلك قضيت منه العجب ، ولولا أن تلك الرسالة بخطه المعروف لدىّ لما صدقت ، وفيها من هذا الزور والبهت والكلمات الفظيعة شىء كثير ، وهى فى نحو ثلاثة كراريس .

وعند تحرير هذه الأحرف ، قد انتقم الله منه ، فشرده إمام العصر إلى جزيرة من جزائر البحر ، مقروناً فى السلاسل ، بجماعة من السوقة ؛ وأهل الحرف الدنيئة ، وأهلكه الله فى تلك الجزيرة : ﴿**ولا يظلم ربك أحداً**﴾ (٤٢) ، وكان حدوث هذه الحادثة عليه ، ونزول هذه الفاقرة به ، بمرأى ومسمع من ذلك الوزير الرافضى الذى ألّف له تلك الرسالة استجلاباً لما عنده ، وطلباً للقرب إليه ، وتودّداً له .

ومن جملة ماوقفت عليه من الرسائل المؤلفة بعناية هذا الوزير رسالة لبعض مشائخى الذين أخذت عنهم بعض العلوم الإلهية ، وفيها من الزور ، ومحض الكذب ، مالا يظن بمن هو دونه . وماحمله على ذلك إلّا الطمع فى الوزير ، فعاقبه الله بقطع ما كان يجرى عليه من الخليفة ، وأصيب بفقر مدقع ، وفاقة شديدة ، حتى صار عبرة من العبر . وكان يفدُ إلىّ يشكو حاله ، وما هو فيه من الجهد والبلاء ؛ فأبلغ جهدى فى منفعته ، ومايسد فاقته .

وهكذا جماعة من المترسلين علىّ ، المبالغين فى إنزال الضرر بى ، أرجعهم الله إلىّ راغمين ، وأحوجهم لمعونتى مضطرين . ولم أعاقب أحداً منهم بما أسلفه ، ولا كافيته بما قدمّه .

فانظر صنع الله مع من عودى وأوذى لأجل تمسكه بالإنصاف ووقوفه عند الحق .

---

(٤٢) الكهف : ٤٩ .

اللهم إنى أحمدك على جميل صنعك ، وجزيل فضلك ، وجميل طولك ، حمداً يتجدّد بتجدّد الأوقات ، ويتعدد بعدد المعدودات .وإنى لم أكن أهلًا لما أوليته ، فأنت له أهل ، وبه حقيق ، لاأحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

ومما أسوقه إليك أيها الطالب . وأعجبك منه : أنه كان لى صديق بمدينة من مدائن اليمن ، جمعنى وإياه الطلب والإلفة والوداد وكان عالى القدر ، رفيع المنزلة فى العلم ، كبير السن ، بعيد الصيت ، مشهور الذكر ، ولعله كان يفيد الطلبة فى الفقه قبل مولدى ، وقرأ عليه بعض شيوخى ، ورحل إلى صنعاء ، وطلب علوم الاجتهاد فى أيام طلبى لها . وكان بينى وبينه من المودة أمر عظيم ، وله معى مذاكرات ، ومباحثات ، وترسلات فى فوائد كثيرة هى فى مجموع رسائلى .

فلما حدث ما حدث من قيام ما قام علىّ من الخاصة والعامة ، وكان إذ ذاك قد فارق صنعاء ، وعاد إلى مدينته ، وعكف عليه الطلبة ، واستفادوا به فى الفنون . فقاموا عليه ، وقالوا : إنه بلغ إلينا ما حدث من أليفك الذى تكثر الثناء عليه ، والمذاكرة له ، من مخالفة المذهب ، والتظهر بالاجتهاد . فإن كنت موافقاً له ، قمنا عليك ، كما قام عليه أهل صنعاء . وإن كنت تخالفه فيما ظهر منه ، فترسّل عليه .

فوصلت منه رسالة فى عدة كراريس . وما حمله على ذلك إلّا المداراة لهم ، والتقية منهم ؛ وظاهرها المخالفة ، وباطنها الموافقة ، مع حسن عبارة ، وجودة مسلك . ولم أستنكر ذلك منه ، ولا أنّبته عليه ؛ فإن الصدع بالحق ، والتظهر بمالا يوافق الناس من الحق ، لا يستطيعه إلّا الأفراد ، وقليل ماهم .

ووصلت رسائل من جماعة آخرين فى مدائن بعيدة من صنعاء ، فيها ماهو موافق لى مقوٍ لما ذهبت إليه وفيها ماهو مخالف لذلك ﴿ولا يزالون مختلفين﴾(٤٣) .

---

(٤٣) هود : ١١٨ .

وليس بعجيب خذلان من خذلنى ، ولم يقم بنصرى ، ولم يصدع بالحق فى أمرى ، من علماء صنعاء العارفين بالعلوم ، المتمسكين منها بجانب يفرقون به بين الحق والباطل ؛ فثورة العامة يتقيها غالب الناس ، ولا سيما إذا حطبوا فى جبل من ينتمى إلى دولة ويتصل بملك ويتأيد بصولة ويأبى الله إلّا أن يتم نوره وينصر دينه ويؤيد شرعه .

وبالجملة ، فالشرح لما حدث لى من الحوادث فى هذا الشأن يطول ، ولو ذهبت أسردها ، وأذكر ما تعقبها من ألطاف الله التى هى من أعظم العبر ، ومنحه التى لا تبلغها الأفهام ، ولا تحيط بها الأوهام — لم يفِ بذلك إلّا مصنف مستقل .

وليس المقصود ههنا إلّا ما نحن بصدده من تنشيط طالب العلم ، وترغيبه فى التمسك بالإنصاف ، والتحلى بحلية الحق ، والتلبس بلباس الصدق ، وتعريفه بأن قيامه فى هذا المقام كما أنه سبب الفوز بخير الآخرة هو أيضاً سبب الوصول إلى ما تطلبه أهل الدنيا من الدنيا ، وأن له الثأر على من خالفه ، والظهور على من ناوأه فى حياته وبعد موته ، وأنه بهذه الخصلة الشريفة التى هى الإنصاف ينشر الله علومه ، ويظهر فى الناس أمره ، ويرفعه إلى مقام لا يصل إلى أدنى مراتبه من يتعصب فى الدين ، ويطلب رضاء الناس بإسخاط رب العالمين .

* حب الشرف والمال :

ومن جملة الأسباب التى يتسبب عنها ترك الإنصاف ، ويصدر عنها البعد عن الحق ، وكتم الحجة ، وعدم ما أوجبه الله من البيان : حب الشرف والمال ، اللذين هما أعدى على الانسان من ذئبين ضاريين ، كما وصف ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فإن هذا هو السبب الذى حرف به أهل الكتاب كتب الله المنزلة على رسله ، وكتموا ما جاءهم فيها من البينات والهدى ، كما

وقع من أحبار اليهود . وقد أخبرنا الله بذلك فى كتابه العزيز[٤٤] ، وأخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الثابت عنه فى الصحيح .

وبهذا السبب بقى من بقى على الكفر من العرب وغيرهم ، بعد قيام الحجة عليهم ، وظهور الحق لهم ؛ وبه نافق من نافق .

ووقع فى الإسلام من أهل العلم بذلك السبب عجائب مودعة بطون كتب التاريخ . وكم من عالم قد مال إلى هوى ملك من الملوك ، فوافقه على ما يربد ، وحسَّن له ما يخالف الشرع ، وتظهر له بما ينفق لديه من المذاهب .

بل قد وضع بعض المحدثين للملوك أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما وقع من وهب بن وهب أبو البختری مع الرشيد[٤٥] ، ووقع من آخر فى حديث « **لاسبق إلّا فى خفّ أو حافر أو نصل** » ، فزاد فى الحديث : « **أو جناح** » موافقة للملك الذى رآه يلعب بالحمام ويسابق بينها[٤٦] .

ووضع جماعة مناقب لقوم ، وآخرون مثالب لآخرين ، لا حامل لهم على

---

(٤٤) مثل قوله تعالى : ﴿ **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مم يكسبون** ﴾ [البقرة : ٧٩] .

(٤٥) فى الأصل : «وهب بن وهب البخترى» ، وبه خطأ ، والصواب : «وهب بن وهب أبو البَخْترىّ » ، وهو مولود بالمدينة ، ثم انتقل إلى بغداد فى خلافة الرشيد ، فولاه بعض المناصب القضائية . وروى الحديث وكان متهماً فيه بالوضع ، قال فيه ابن سعد : « كان شيخاً مسناً من قريش ، ولم يكن فى الحديث بذلك ، يروى منكرات ، فتُرك حديثه » ، وكان جواداً ، كثير العطايا للشعراء . وتوفى سنة ٢٠٠ هـ = ٨١٥ م . مرآه الجنان ١ : ٤٦٣ ، وميزان الاعتدال ٣ : ٢٧٨ ، ونسب قريش ٢٢٢ ، وتاريخ بغداد ١٣ : ٤٥١ .

(٤٦) حدثت هذه الواقعة عندما دخل غياث بن إبراهيم على المهدى ، وكان المهدى يحب الحمام ويلعب به ، فإذا قدامه حمام ، فقيل لغياث : حدث أمير المؤمنين ، فقال : حدثنا فلان عن فلان أن النبى (ص) قال : « **لاسبق إلا فى نصل أو خف أو حافر أو جناح** » ، فأدخل فيه قوله : « **أو جناح** » ، فأمر له المهدى ببدرة ، فلما قام قال : أشهد أن قفاك قفا كذاب على رسول الله (ص) . ثم قال المهدى : أنا حملته على ذلك ثم أمر بذبح الحمام . أسنده الحاكم . عن كتابنا : « مفاتيح علوم الحديث وطرق تخريجه » .

ذلك إلّا حب الدنيا ، والطمع فى الحطام ، والتقرب إلى أهل الرئاسة بما ينفق لديهم ، ويروج عليهم .. نسأل الله الهداية ، والحماية من الغواية .

وكم قد سمعنا ورأينا فى عصرنا من أهله ، فكثيراً مانرى الرجل يعتقد فى نفسه اعتقاداً يوافق الحق ، ويطابق الصواب ، فإذا تكلم عند من يخالفه فى ذلك ، ويميل إلى شيء من البدعة ، فضلًا عن أن يكون من أهل الرئاسة ، وممن بيده شيء من الدنيا ، فضلًا عن أن يكون من الملوك — وافقه ، وساعده ، وسانده ، وعاضده . وأقل الأحوال أن يكتم مايعتقده من الحق ، ويغمط ماقد تبين له من الصواب ، عند من لا يجوز منه ضرراً ، ولا يقدّر منه نفعاً ؛ فكيف بمن عداه ؟!

وهذا فى الحقيقة من تأثير الدنيا على الدين ، والعاجلة على الآجلة . وهو لو أمعن نظره ، وتدبر ماوقع فيه ، لعلم أن ميله إلى هوى رجل أو رجلين أو ثلاثة أو أكثر ممن يجاملهم فى ذلك المجلس ، ويكتم الحق مطابقة لهم ، واستجلاباً لمودتهم ، واستبقاء لما لديهم ، وفراراً من نفورهم — وهو من التقصير بجانب الحق ، والتعظيم لجانب الباطل . فلولا أن هؤلاء النفر لديه أعظم من الرب سبحانه ، لما مال إلى هواهم ، وترك مايعلم أنه مراد الله سبحانه ومطلبه من عباده .

وكفاك بهذه الفاقرة العظيمة ، والداهية الجسيمة ؛ فإن رجلًا يكون عنده فرد من أفراد عباد الله أعظم قدراً من الله سبحانه ليس بعد تجرئه على الله شيء .. أرشدنا الله إلى الحق بحوله وطوله .

ومن غريب ماأحكيه لك من تأثر هوى الملوك ، والميل إلى مايوافق ماينفق عندهم ، واقعةً معى مشاهدة لى ، وإن كانت الوقائع فى هذا الباب لا يأتى عليها الحصر ، وهى مودعة بطون الدفاتر ، معروفة عند من له خبرة بأحوال من تقدم .

وذلك أنه عقد خليفة العصر — حفظه الله — مجلساً جمع فيه وزراءه ،

وأكابر أولاده ، وكثيراً من خواصه . وحضر هذا المجلس من أهل العلم ثلاثة أنا أحدهم ، وكان عقد هذا المجلس لطلب المشورة فى فتنةٍ حدثت بسبب بعض الملوك ، ووصول جيوشه إلى بعض الأقطار الإمامية ، وتخاذل كثير من الرعايا واضطرابهم ، وارتجاف اليمن بأسره بذلك السبب .

فأشرت إلى الخليفة بأن أعظم ما يتوصل به إلى دفع هذه النازلة هو العدل فى الرعية ، والاقتصار فى المأخوذ منهم على ماورد به الشرع ، وعدم مجاوزته فى شيء ، وإخلاص النية فى ذلك ، وإشعار الرعية فى جميع الأقطار ، والعزم عليه على الاستمرار ؛ فإن ذلك من الأسباب التى تدفع كل الدفع ، وتنجع أبلغ النجع ؛ فإن اضطراب الرعايا ، ورفع رؤوسهم إلى الواصلين ، ليس إلّا لما يبلغهم من اقتصارهم على الحقوق الواجبة ، وليس ذلك لرغبة فى شيء آخر .

فلما فرغت من أداء النصيحة انبرى(٤٧) أحد الرجلين الآخرين ، وهو ممن حظى من العلم بنصيب وافر ، ومن الشرف بمرتبة عليّة ، ومن السن بنحو ثمانين سنة ، وقال : إن الدولة لا تقوم بذلك ، ولا تتم إلّا بما جرت به العادة من الجبايات ونحوها . ثم أطال فى هذا بما يتحير عنده السامع ، ويشترك فى العلم بمخالفته للشريعة العالم والجاهل ، والمقصّر والكامل . وذكر أنه قد أخذ الجباية ونحوها من الرعية فلان وفلان ، وعدد جماعة من أئمة العلم ممن لهم شهرة وللناس فيهم اعتقاد . وهذا مع كونه عناداً للشريعة ، وخلافاً لما جاءت به ، وجرأة على الله ، نصباً للخلاف بينه وبين من عصاه وخالف ما شرعه هو أيضاً مجازفة بحتة فى الرواية عن الذين سماهم ، بل هو محض الكذب . وإنما يروى على بعض المتأخرين ممن لم يسمّه ذلك القائل . وهذا البعض الذى يروى عنه ذلك ، إنما فعله أياماً يسيرة ، ثم طوى بساطه ، وعلم أنه خلاف ما شرعه الله ، فتركه . وإنما حمله على ذلك رأى رآه ، وتدبير دبّره ، ثم تبين له فساده .

فانظر أرشدك الله ما مقدار ما قاله هذا القائل فى ذلك الجمع الحافل الذى شمل الإمام ، وجميع المباشرين للأعمال الدولية ، والناظرين فى أمر الرعية . ولم

---

(٤٧) (انبرى) : مطاوع بَرَى . و ــ له : عَرَض .

ينتفع هذا القائل بمقالته لا من زيادة جاه ولا مال ، بل غاية ما استفاده ، ونهاية ماوصل إليه ، اجتماع الألسن على ذمّة ، واستعظام الناس لما صدر منه .

وهكذا جرت عادة الله فى عباده ، فإنه لا ينال من أراد الدنيا بالدين إلّا وبالًا وخسراناً عاجلًا أم آجلًا ، خصوصاً من كان من الحاملين لحجة الله ، المأمورين بإبلاغها إلى العباد . فإن خيره فى الدنيا والآخرة مربوط بوقوفه على حدود الشريعة ، فإن زاغ عنها زاغ عنه . وقد صرح الله سبحانه بما يفيد هذا فى غير موضع من كتابه العزيز .

فأنت أيها الحامل للعلم ، لا تزال بخير مادمت قائماً بالحجة ، مرشداً إليها ، ناشراً لها ، غير مستبدل بها عرضاً من أعراض الدنيا أو مرضاةً من أهلها .

★الجدال والمراء وحب الانتصار والظهور :

ومن جملة الأسباب التى يتسبب عنها ترك الإنصاف ، وكتم الحق ، وغمط الصواب : مايقع بين أهل العلم من الجدال والمراء ، فإن الرجل قد يكون له بصيرة ، وحسن إدراك ، ومعرفة بالحق ، ورغوب إليه ، فيخطىء فى المناظرة . ويحمله الهوى ، ومحبة الغلب ، وطلب الظهور على التصميم على مقاله ، وتصحيح خطأه ، وتقويم معوجّه بالجدال والمراء .

وهذه الذريعة الإبليسية ، والدّسيسة الشيطانية ، قد وقع بها من وقع فى مهاوى من التعصبات ، ومزالق من التعسفات ، عظيمة الخطر ، مخوفة العاقبة .

وقد شاهدنا من هذا الجنس مايقضى منه العجب ، فإن بعض من يسلك هذا المسلك قد يجاوز ذلك إلى الحلف بالإيمان على حقيقة ماقاله ، وصواب ماذهب إليه . وكثيراً منهم يعترف بعد أن تذهب عنه سورة الغضب ، وتزول عنه نزوة الشيطان ، بأنه فعل ذلك تعمداً مع علمه بأن الذى قاله غير صواب .

وقد وقع مع جماعة مِن السلف من هذا الجنس مالا يأتى عليه الحصر ، وصار ذلك مذاهب تُروى ، وأقوال تُحكى ، كما يعرف ذلك من يعرف .

*حب القرابة والتعصب للأجداد :

ومن الأسباب المقتضية للتعصب : أن يكون بعض سلف المشتغل بالعلم قد قال بقول ، ومال إلى رأى ؛ فيأتى هذا الذى جاء بعده فيحمله حب القرابة على الذهاب إلى ذلك المذهب ، والقول بذلك القول ، وإن كان يعلم أنه خطأ . وأقل الأحوال إذا لم يذهب إليه أن يقول فيه : إنه صحيح ، ويتطلب له الحجج ، ويبحث عن مايقوّيه ، وإن كان بمكان من الضعف ، ومحل من السقوط . وليس له فى هذا حظ ، ولا معه فائدة ، إلّا مجرد المباهاة لمن يعرفه ، والتزيّن لأصحابه بأنه فى العلم معرق ، وأن بيته قديم فيه .

ولهذا ترى كثيراً منهم يستكثر من قال جدنا ، قال والدنا ، واختار كذا ، صنع كذا ، فعل كذا . وهذا لا شك أن الطباع البشرية تميل إليه ، ولا سيما طباع العرب ، فإن الفخر بالأنساب ، والتحدث بما كان للسلف من الأحساب ، يجدون فيه من اللذة مالا يجدونه فى تعدد مناقب أنفسهم ، ويزداد هذا بزيادة شرف النفس ، وكرم العنصر ، ونبالة الآباء . ولكن ليس من المحمود أن يبلغ بصاحبه إلى التعصب فى الدين ، وتأثير الباطل على الحق ، فإن اللذة التى يطلبها ، والشرف الذى يريده ، قد حصل له بكون من سلفه ذلك العالم ، ولا يضيره أن يترك التعصب له ، ولا يمحق عليه شرفه ، بل التعصب مع كونه مفسداً للحظ الأخروى يفسد عليه أيضا الحظ الدنيوى ؛ فإنه إذا تعصّب لسلفه بالباطل ، فلابد أن يعرف كل من له فهم أنه متعصب ، وفى ذلك عليه من هدم الرفعة التى يريدها ، والمزية التى يطلبها ماهو أعظم عليه ، وأشد من الفائدة التى يطلبها بكون له قريب عالم ؛ فإنه لا ينفعه صلاح غيره مع فساد نفسه . وإذا لم يعتقد فيه السامع التعصب اعتقد بلادة الفهم ،

ونقصان الإدراك ، وضعف التحصيل ؛ لأن الميل إلى الأقوال الباطلة ليس من شأن أهل التحقيق الذين لهم كمال إدراك ، وقوة فهم ، وفضل دراية ، وصحة رواية ، بل ذلك دأب من ليست له بصيرة نافذة ، ولا معرفة نافعة . فقد حصل عليه بما تلذذ به ، وارتاح إليه من ذكر شرف السلف ، ما حقق عند سامعه بأنه من خلف الخلف .

ولقد رأيت من أهل عصرى فى هذا عجباً ، فإن بعض من جمعنى وإياه الطلب لعلوم الاجتهاد ، يتعصب لبعض المصنفين من قرابته تعصباً مفرطاً ، حتى انّه إذا سمع من يعترض عليه ، أو يستبعد شيئاً قاله ، اضطرب ، وتربّد وجهه ، وتغيّرت أخلاقه ، سواء عليه من اعترض بحق أو بباطل ، فإنه لا يقبل سمعه فى هذا كلاماً ، ولا يسمع من نصيح ملاماً .

ومع هذا فهو بمحل من الإنصاف ، ومكان من العرفان ، قد تحصلت له علوم الاجتهاد تحصّلًا قوياً ، ونظر فى الأدلة نظراً مشبعاً .

وكان صدور مثل هذا منه يحملنى فى سن الحداثة ، وشرخ الشباب ، على تحرير مباحث انقض بها رسائل ومسائل من كلام قريبه ، قاصداً بذلك إيقاظه ، ورده إلى صواب الصواب .

وكنت إذا أردت إغضابه ، أو الانتصاف منه ، ذكرت بحثاً من تلك الأبحاث ، أو مسألة من تلك المسائل التى اعترضتها .

وبهذا السبب تجد من كان له سلف على مذهب من المذاهب كان على مذهبه ، سواء كان ذلك المذهب من مذاهب الحق أو الباطل .

ثم تجد غالب العلوية[٤٨] شيعة ، وغالب الأموية عثمانية[٤٩] . وكان تعظيم عثمان فى الدولة الأموية عظيماً وأهل تلك الدولة مشغولون بحفظ مناقبه ،

(٤٨) نسبة إلى علىّ بن أبى طالب .

(٤٩) الأموية نسبة إلى الأمويين ، والعثمانية نسبة إلى عثمان بن عفان .

ونشرها ، وتعريف الناس إياها . وكانوا إذ ذاك يثلبون من كانت بينه وبينه عداوة أو منافسة .

ثم لما جاءت الدولة العباسية عقبها كان العباس[٥٠] عند أهلها أعظم الصحابة قدراً ، وأجلهم ، وكذلك ابنه عبد الله ، وتوصلت خلفاء بنى العباس بكثير من شعراء تلك الدولة إلى تفضيل العباس على علىّ ، ثم تفضيل أولاد العباس على أولاد علىّ ، وكان الناس فى أيامهم يعدونهم أهل البيت ، ويطبقون ماورد من فضائل الال عليهم ، وأولاد علىّ إذ ذاك إنما هم عندهم خوارج لقيامهم عليهم ومنازعتهم لهم فى الملك .

ولقد كان بنو أمية قبلهم هكذا يعتقد أهل دولتهم فيهم أنهم هم الآل ، والقرابة ، وعصبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن العلوية والعباسية ليسوا من ذلك فى ورود ولا صدر ، بل أطبقوا هم وأهل دولتهم على لعن علىّ ولا يعرف لديهم إلّا بأبى تراب ، والمنتسب إليه والمعظم له ترابى لا يقام له وزن ولا يعظم له جانب ولا تُرعى له حرمة .

ثم قامت الدولة العبيدية ، فانتسبوا إلى علىّ ، وسموا دولتهم الدولة العلوية الفاطمية ، ثم أفرطوا فى التشيع ، وغالوا فى حب علىّ وبغض كثير من الصحابة . واشتغل الناس بفضائل علىّ ونشرها ، وبالغوا فى ذلك حتى وضع لهم علماء السوء أكاذيب مفتراة ، وقد جعل الله ذلك الإمام فى غنى عنها بما ورد فى فضائله .

فالناشىء فى دولة ينشأ على مايتظهّر به أهلها ، ويجد عليه سلفه ، فيظنه الدين الحق ، والمذهب العدل ، ثم لا يجد من يرشده إلى خلافه إن كان قد تظهّر أهله بشىء من البدع ، وعلموا على خلاف الحق ؛ لأن الناس إما :

عامة ، وهم يعتقدون فى تلك البدع التى نشأوا عليها ، ووجدها بين ظهرانيهم إنما هى الدين الحق ، والسنّة القويمة ، والنحلة الصحيحة . وإما

---

(٥٠) العباس : عم النبى (ص) .

خاصة ، ومنهم من يترك التكلم بالحق والإرشاد إليه مخافة الضرر من تلك الدولة وأهلها ، بل وعامتها ؛ فإنه لو تكلم بشيء خلاف ما قد علموا عليه ، ونشروه فى الناس لخشى على نفسه وأهله وماله وعرضه . ومنهم من يترك التكلم بالحق محافظة على حظ قد ظفر به من تلك الدولة من مال وجاه . وقد يترك التكلم بالحق الذى هو خلاف ما عليه الناس استجلاباً لخواطر العوام ، ومخافة من نفورهم عنه . وقد يترك التكلم بالحق لطمع يظنه ، ويرجو حصوله من تلك الدولة أو من سائر الناس فى مستقبل الزمان ، كمن يطمع فى نيل رئاسة من الرئاسات ومنصب من المناصب كائناً ما كان ، ويرجو حصول رزق من السلطان أو أى فائدة ؛ فإنه يخاف أن تفوت عليه هذه الفائدة المظنونة ، والرئاسة المطموع فيها ؛ فيتظهّر بما يوافق الناس ويتفق عندهم ويميلون إليه ؛ ليكون له ذلك ذخيرة ، وبذا عندهم ينال بها عرض الدنيا الذى يرجوه .

فكيف تجد ذلك الناشيء بين من كان كذلك من يرشده إلى الحق ، ويبيّن له الصواب ، ويحول بينه وبين الباطل ، ويجنبه الغواية ، وهيهات ذاك ؛ فالدنيا مؤثرة ، والدين تبع لها .

ومن شك فى هذا ، فليخبرنا مَنْ ذاك الذى يستطيع أن يصرخ بين ظهرانى دولة من تلك الدول بما يخالف اعتقاد أهلها ، وتألفه عامتها وخاصتها . ووقوع مثل ذلك نادراً ، إنما يقوم به أفراد من مخلصى العلماء ومنصفيهم ، وقليل ماهم ؛ فإنهم لا يوجدون إلّا على قلة وإعواز . وهم حملة الحجة على الحقيقة ، والقائمون ببيان ما أنزل الله ، والمترجمون للشريعة ، وهم العلماء حقاً . وأما غيرهم ممن يعلم كما يعلمون ، ولا يتكلم كما يتكلمون بل يكتم ما أخذ الله عليه بيانه ، ويعمل بالجهل مع كونه عالماً بأنه جهل ، ويقول بالبدعة مع اعتقاده أنها بدعة .. فهذا ليس بأهل لدخوله فى مسمى العلم ، ولا يستأهل أن يوصف بوصف من أوصافه ، أو يدخل فى عداد أهله ، بل هو متظهر ، وأقواله وأفعاله وحركاته وسكناته بالجهل والبدعة مطابقة لأهل الجهل والابتداع ، وتنفيقاً لنفسه عليهم ، واستجلاباً لقلوبهم ، ومداراة لهم حتى يبقى عليه جاهه ،

ويستمر له رزقه الجارى عليه من بيت مال المسلمين أو وقفهم أو نحو ذلك . فهذا هو من البائعين عرض الدين بالدنيا ، المؤثرين العاجلة على الآجلة ، فضلًا عن أن يستحق الدخول فى أهل العلم ، والوصول إلى هذا العلم .

ومن شك فيما ذكرته ، أو تردد فى بعض ماسقته ، فليمعن النظر فى أهل عصره : هل يستطيع أحد من أهل العلم أن يخالف مايهواه السلطان من المذاهب ، فضلًا عن أن يصرح للناس بخلافه ؟ هذا على فرض أن ذلك الذى يهواه الملك بدعة من البدع الشنيعة التى لا خلاف فى شناعتها ومخالفتها للشريعة كما تعتقده ، الخوارج[٥١] والروافض[٥٢] ؛ فإن السنّة الصريحة المتواترة[٥٣] التى لا خلاف فيها قد جاءت بقبح ذلك وذم فاعله وضلاله . فانظر هداك الله وإياى مَنْ يتكلم من أهل العلم الساكنين فى أرض الخوارج ، كبلاد عمان ونحوها ، بما يخالف مذهب الخوارج ، أو ينكر ذلك عليهم ، أو يرشد الناس إلى الحق . وكذلك من كان ساكناً من أهل العلم ببلاد الروافض ، كبلاد الأعاجم ونحوها ، هل تجد رجلًا منهم يخالف ماهم عليه من الرفض ، فضلًا عن أن ينكره عليهم .

بل قد تجد غالب من فى بلاد أهل البدع من العلماء الذين لا تخفى عليهم مناهج الحق ، وطرائق الرشد ، يتظهرون للملوك والعامة بما يناسب ماهم عليه ، ويوهمونهم بأنهم يوافقونهم ، وأن تلك البدعة التى هم عليها ليست ببدعة ، بل هى سنة وحق وشريعة ، ويعملون كعملهم ، ويدخلون فى ضلالهم ، فيكونون ممن أضله الله على علم .

---

(٥١) كل من خرج على الإمام الذى أجمعت عليه الأمة يسمى خارجياً ، وأول من خرج على أمير المؤمنين قوم خرجوا على علىّ بن أبى طالب ممن كانوا فى صفين ضد معاوية عندما نازعه فى الخلافة وحدث ماحدث من أمر التحكيم ... وكبار فرق الخوارج ستة وهم : الأزارقة ، والنجدات ، والصفرية ، والعجاردة ، والإباضية ، والثعالبة . والباقون فرعهم . ويجمعهم القول بالتبرىء من عثمان وعلىّ ، ويكفرون أصحاب الكبائر ، ويرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة حقاً واجباً .

(٥٢) سبق الإشارة إليهم .

(٥٣) السنة المتواترة : هى ما رواه عدد كثير من الرواة تحيل العادة تواطؤهم على الكذب ، وبعبارة أوضح=

فمن كان من أهل العلم هكذا ، فهو لم ينتفع بعلمه ، فضلًا عن أن ينتفع به غيره ، فعلمه محنة له ، وبلاء عليه والجاهل خير منه بكثير ؛ فإنه فعل البدعة ، ووقع فى غير الحق ، معتقداً أن ما فعله هو الذى تعبّده الله به وأراده منه .

فيا من أخذ الله عليه البيان ، وعلمه السنّة والقرآن ، إذا تجرئت على ربك بترك طاعاته وطرح ما أمرك به . فقف عند هذه المعصية ، وكفى بها ، وقس ما علمته كالعدم لا عليك ولا لك ، ودع المجاورة لهذه المعصية إلى ما هو أشد منها وأقبح من ترويج بدع المبتدعين والتحسين لها ، وإيهامهم أنهم على الحق . فإنك إذا فعلت ذلك كان علمك ــ لا علمت ــ بلاء على أهل تلك البدع بعد كونه بلاء عليك ؛ لأنهم يفعلون تلك البدع على بصيرة ، ويتشددون فيها ، ولا تنجع فيهم بعد ذلك من موعظة واعظ ، ولا نصيحة ناصح ، ولا إرشاد مرشد ؛ لاعتقادهم فيك . لا كثّر الله فى أهل العلم من أمثالك ؛ فإنك عالم محقق متقن قد عرفت علوم الكتاب والسنّة ، فلم يكن فى علماء السوء شرّ منك ، ولا أشد ضرراً على عباد الله .

وقد جرت قاعدة أهل البدع فى سابق الدهر ولاحقه ، بأنهم يفرحون بصدور الكلمة الواحدة عن عالم من العلماء ، ويبالغون فى إشهارها وإذاعتها فيما بينهم ، ويجعلونها حجة لبدعتهم ، ويضربون بها وجه من أنكر عليهم ، كما تجده فى كتب الروافض من الروايات لكلمات وقعت من علماء الإسلام فيما يتعلق بما شجر بين الصحابة وفى المناقب والمثالب ، فإنهم يطيرون عند ذلك فرحاً ، ويجعلونه من أعظم الذخائر والغنائم .

فإن قلت : لا شك فيما أرشدت إليه من وجوب الصدع بالحق ، والهداية إلى الإنصاف ، وتأثير ما قام عليه الدليل الصحيح على محض الرأى ، وبيان

= هى ما ينقله عن النبى (ص) جمع يكون مستند إخبارهم الأمر المرئى أو المسموع ، ولا يتصور اجتماعهم وتواطؤهم على الكذب لكثرة عددهم وعدالتهم وتباين أماكنهم ، ثم يسمع من هؤلاء الجمع جمع ثان بنفس الشروط ، ثم يسمع جمع ثالث من الجمع الثانى كذلك ، وهلم جرا إلى آخر الإسناد . عن كتاب « مفاتيح علوم الحديث وطرق تخريجه » للمحقق .

ما أنزله الله للناس وعدم كتمه ؛ لكن إذا فعل العالم ذلك ، وصرح بالحق فى بلاد البدع ، وأرشد إلى العمل بالدليل فى مدائن التقليد ، قد لا يتأثر عن ذلك إلّا مجرد التنكيل به ، والهتك لحرمته ، وإنزال الضرر به !

قلت : إنما سألت هذا السؤال ، وجئت بهذا المقال ، ذهولًا عما قدمته لك وأوضحته وكررت من حفظ الله للمتكلمين بالحق ، ولطفه بالمرشدين لعباده إلى الإنصاف ، وحمايته لهم عن ما يظنه من ضعف إيمانه ، وخارت قوته ، ووهت عزيمته . فارجع النظر فيما أسلفته ، وتدبّر ما قدمته ، تعلم به صدق ما وعد الله به عباده المؤمنين من أن العاقبة للمتقين .

ثم هب صدق ما حدسته(٥٤) ، ووقوع ما قدرته ، وحصول المحنة عليك ، ونزول الضرر بك ، فهل أنت كل العالم وجميع الناس ، أم تظن أنك مخلد فى هذه الدار ؟ أم ماذا عسى يكون إذا عملت بالعلم ، ومشيت على الطريقة التى أمرك الله بها ؟ فنهاية ما ينزل عليك ويحل بك أن تكون قتيلًا للحق وشهيداً للعلم ، فتظفر بالسعادة الأبدية ، وتكون قدوة لأهل العلم إلى آخر الدهر ، وخزياً لأهل البدع ، وقاصمة لظهورهم ، وبلاءً مصوباً عليهم ، وعاراً لهم ما داموا متمسكين بضلالهم ، سادرين(٥٥) فى عمايتهم ، واقعين فى مزالقهم ، وكم قد سبقك من عباد الله إلى هذه الطريقة ، وظفر بهذه المنزلة العلية ، وفيهم لك القدوة ، وبهم الأسوة .

فانظر يا مسكين من قطعّته السيوف ، ومزقته الرماح من عباد الله فى الجهاد ، فإنهم طلبوا الموت ، ورغبوا فى الشهادة ، والبيض تغمد فى الطلاء(٥٦) ، والرماح تغرز فى الكلأ(٥٧) ، والموت بمرأى منهم ومسمع ، يأتيهم من أمامهم وخلفهم ، ومن عن يمينهم وشمالهم .

---

(٥٤) (حَدَسَ) فى الأمر ونحوه : ظَنَّ وخَمَّنَ . وله معانٍ أخرى كثيرة ، ولكنا أثبتنا منها فقط المعنى الذى يريده الشوكانى أعلاه .

(٥٥) (سادرٌ) فى العماية أو الغىِّ ونحوه : تائهٌ

(٥٦) (البيض) مفردها : الأبيض ، والمراد هنا : السيف .

و(غَمَدَ) السيف : أدخله فى غِمده ، والغمد هو غِلاف السيف .

و (الطلاء) : الدم المطلول ، أى الذى هدر وبطل ولم يثأر به ولم تؤخذ ديته .

(٥٧) (الكلأ) : العشب رطبه ويابسه .

فأين أنت من هؤلاء ولست إلّا قائماً بين ظهرانى المسلمين ، تدعوهم إلى ماشرعه الله ، وترشدهم إلى تأثير كتاب الله وسنّة رسوله على محض الرأى والبدع . فإن الذى يظن بمثلك ممن يقوم بمقامك إن لم تنجذب له القلوب بادىء ذى بدء ويتبعه الناس بأول نداء : أن يستنكر الناس ذلك عليه ، ويستعظموه منه ، وينالوه بألسنتهم ، ويسيئوا القالة فيه ، فيكثروا الغيبة له ، فضلًا عن أن يبلغ مايصدر منهم إلى الإضرار ببدنه أو ماله ، فضلًا عن أن ينزل به منهم ما نزل بأولئك . وهب أنه ناله أعظم ما جوّزه ، وأقبح ما قدره ، فليس هو بأعظم مما أصيب به مَنْ قُتل فى سبيل الله .

وها أنا أرشدك على ماتستعين به على القيام بحجة الله ، والبيان لما أنزله ، وإرشاد الناس إليه ، على وجه لا تتعاظمه ، وتقدر فيه ما كنت تقدره من تلك الأمور التى جبنت عند تصوّرها ، وفرقت بمجرد تخيلها ، وهو :

أنك لا تأتى الناس بغتة[٥٨] ، وتصك[٥٩] وجوههم مفاجئة ومجاهرة ، وتنعى[٦٠] عليهم ماهم فيه نعياً صراحاً ، وتطلب منهم مفارقة ماألفوه طلباً مضيقاً ، وتقتضيه اقتضاءً حثيثا[٦١] .

بل أسلك معهم مسالك المتبصرين فى جذب القلوب إلى مايطلبه الله من عباده ، ورغبهم فى ثواب المنقادين إلى الشرع ، المؤثرين للدليل على الرأى وللحق على الباطل .

فإن كانوا عامة فهم أسرع الناس انقياداً لك ، وأقربهم امتثالًا لما تطلبه منهم . ولست تحتاج معهم إلى كثير مؤنة ، بل اكتف معهم بترغيبهم فى التعلم لأحكام الله ، ثم علمهم ما علمك الله منها على الوجه الذى جاءت به الرواية ،

---

(٥٨) (بغتة) : فجأة .

(٥٩) (صك) : دفع وضرب بقوة . وفى القرآن ﴿فصكت وجهها﴾ : أى لطمته تعجباً .

(٦٠) (ينعى) على فلان كذا : يعيبه عليه ويشهّرُ به .

(٦١) (الحثيث) : السريع الجادّ فى أمره . وفى القرآن : (**يُغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً**) .
ويقال : وَلّى حثيثاً : مُسرعاً حريصاً .

وصح فيه الدليل . فهم يقبلون ذلك منك قبولًا فطرياً ، ويأخذونه أخذاً خلقياً ؛ لأن فطرتهم لم تتغير بالتقليد ، ولا تكدرت بالممارسة لعلم الرأى ، مالم يتسلط عليهم شيطان من شياطين الإنس قد مارس علم الرأى ، واعتقد أنه الحق ، وأن غيره الباطل ، وأنه لا سبيل للعامة إلى الشريعة إلّا بتقليد مَنْ هو مقلد له ، واتباع مَنْ يتبعه . فإنه إذا تسلط على العامة مثل هذا وسوس لهم كما يوسوس الشيطان ، وبالغ فى ذلك ؛ لأنه يعتقد ذلك من الدين ، ويقطع بأنه فى فعله داعٍ من دعاة الحق ، وهادٍ من هداة الشرع ، وأن غيره على ضلالة . وهذا وأمثاله هم أشد الناس على من يريد إرشادهم إلى الحق ودفعهم عن البدع ؛ لأن طبائعهم قد تكدرت ، وفطرهم قد تغيرت ، وبلغت فى الكثافة والغلظة والعجرفة إلى حد عظيم لا تؤثر فيه الرقى ، ولا تبلغ إليه المواعظ ، فلم تبقَ عندهم سلامة طبائع العامة ، حتى ينقادوا إلى الحق بسرعة ، ولا قد بلغوا إلى ما بلغ إليه الخاصة من رياضة أفهامهم ، وتلطيف طبائعهم بممارسة العلوم التى تتعقل بها الحجج الشرعية ، ويعرف بها الصواب ، ويتميز بها الحق ، حتى صاروا إذا أرادوا النظر فى مسئلة من المسائل أمكنهم الوقوف على الحق والعثور على الصواب .

وبالجملة ، فالخاصة إذا بقى فيهم شيء من العصبية ، كان إرجاعهم إلى الإنصاف متيسر غير متعسر ، بإيراد الدليل الذى تقوم به الحجة لديهم ؛ فإنهم إذا سمعوا الدليل عرفوا الحق ، وإذا حاولوا وكابروا فليس ذلك عن صميم اعتقاد ، ولا عن خلوص نية .

فرياضة الخاصة بإيراد الأدلة عليهم ، وإقامة حجج الله ، وإيضاح براهينه . وذلك يكفى فإنهم لما قد عرفوه من علوم الاجتهاد ، ومارسوه من الدقائق ، لا يخفى عليهم الصواب ، ولا يلتبس عليهم الراجح بالمرجوح ، والصحيح بالسقيم ، والقوى بالضعيف ، والخالص بالمغشوش .

ورياضة العامة بإرشادهم إلى التعلم ، ثم بذل النفس لتعليمهم ما هو الحق فى اعتقاد ذلك المعلم ، بعد أن صار داعياً من دعاة الحق ، ومرشداً من مرشدى

المسلمين ، ثم ترغيبهم بما وعد الله به ، وإخبارهم بما يستحقه من فعل كفعلهم من الجزاء والأجر ، ثم يجعل لهم من القدوة بأفعاله مثل ما يجعله لهم من القدوة بأقواله أو زيادة ؛ فإن النفوس إلى الاقتداء بالفعّال أسرع منها إلى الاقتداء بالقوّال .

والعقبة الكؤود ، والطريق المستوعرة ، والخطب الجليل ، والعبء الثقيل : إرشاد طبقة متوسطة بين طبقةِ العامة والخاصة ، وهم قوم قلّدوا الرجال ، وتلقوا علم الرأى ومارسوه ، حتى ظنوا أنهم بذلك قد فارقوا طبقة العامة ، وتميّزوا عنهم ، وهم لم يتميزوا فى الحقيقة عنهم ، ولا فارقوهم إلّا بكون جهل العامة بسيطاً ، وجهل هؤلاء جهلًا مركباً . وأشد هؤلاء تغييراً لفطرته وتكديراً لخلقته أكثرهم ممارسة لعلم الرأى ، وأثبتهم تمسكاً بالتقليد ، وأعظمهم حرصا عليه ؛ فإن الدواء قد ينجع فى أحد هؤلاء فى أوائل أمره ، وأما بعد طول العكوف على ذلك الشغف به والتحفظ له فما أبعد التأثير وما أصعب القبول ؛ لأن طبائعهم مازالت تزداد كثافة بازدياد تحصيل ذلك ، وتستفيد غلظة وفظاظة باستفادة ذلك ، وبمقدار ولوعهم بما هم فيه وشغفهم به تكون عدواتهم للحق ولعلم الأدلة وللقائمين بالحجة .

ولقد شاهدنا من هذه الطبقة مالو سردنا بعضه لاستعظمه سامعه واستفظعه ؛ فإن غالبهم لا يتصوّر بعد تمرّنه فيما هو فيه إلّا منصباً يثب عليه ، أو يتيماً يشاركه فى ماله ، أو أرملة يخادعها عن ملكها ، أو فرصةً ينتهزها عند ملك ، أو قاض ، فيبلغ بها إلى شىء من حطام الدنيا .

ولا يبقى فى طبائع هؤلاء شىء من نور العلم ، وهدى أهله ، وأخلاقهم ؛ بل هم أشبه شىء بالجبابرة ، وأهل المباشرة للمظالم . ومع هذا فهم أشد خلق الله تعصباً ، وتعنتاً ، وبُعداً من الحق ، ورجوعهم إلى الحق من أبعد الأمور وأصعبها ؛ لأنه لم يبق فى أفهامهم فضلة لتعقّل ذلك وتدبّره ، بل قد صار بعضها مستغرقاً بالرأى ، وبعضها مستغرقاً بالدنيا .

فإن قلت : فهل بقى مطمع فى أهل هذه الطبقة ؟ وكيف الوصول إلى

إرشادهم إلى الإنصاف وإخراجهم عن التعصب ؟

قلت : لا مطمع إلّا بتوفيق الله وهدايته ، فإنه إذا أراد أمراً يسّر أسبابه ، وسهّلَ طرائقه .

وأحسن ما يستعمله العالم مع هؤلاء : ترغيبهم فى العلم ، وتعظيم أمره ، والإكثار من مدح علوم الاجتهاد ، وأن بها يعرف أهل العلم الحق من الباطل ، ويميّزون الصواب من الخطأ ، وأن مجرّد التقليد ليس من العلم الذى ينبغى عد صاحبه من جملة أهل العلم ؛ لأن كل مقلد يقر على نفسه بأنه لا يعقل حجج الله ، ولا يفهم ما شرعه لعباده فى كتابه ، وعلى لسان رسوله ، وأن من ظفر من طلبه ، وفاز من كده ونصبه ، لمجرّد اتباع فرد من أفراد علماء هذه الأمة وتقليده ، وقبول قوله دون حجته ، فلم يظفر بطائل ولا نال حظاً .

فإن بقى فى من كان من هذه الطبقة نصيب من علو الهمة ، وحظ من شرف النفس ، وقسط من الرغبة فى نيل ما هو أعلى مناقب الدنيا والآخرة ، فقد تميل نفسه إلى العلم بعض الميل ، فيأخذ من علوم الاجتهاد بنصيب ، ويفهم بعض الفهم ، فيعرف أنه كان معلّلاً لنفسه بما لايسمن ولا يغنى من جوع ، ومشتغلاً بما لا يرتقى به إلى شىء من درجات العلم .

فهذا الدواء لأهل هذه الطبقة من أنفع الأدوية ، وهو لا يؤثر بعض التأثير إلاّ مع كون ذلك المخاطب له بعض استعداد للفهم ، وعنده إدراك ، وهو القليل .

أما من كان لا يفهم شيئاً فيه من علوم الاجتهاد ، وإن أجهد نفسه ، وأطال عناها ، وأعظم كدّها كما هو الغالب على أهل هذه الطبقة . فإنهم إذا استفرغوا وسعهم فى علم الرأى ، وأنفقوا فى الاشتغال به شطراً من أعمارهم ، وسكنت أنفسهم إلى التقليد سكوناً تاماً ، وقبلته قبولاً كليّاً لم تبق فيهم بقية لفهم شىء من العلوم .

وقد شاهدنا من هذا الجنس من لا يأتى عليه الحصر ، قد تقتضيه فى بعض الأحوال رغبة تجذبه إلى النظر فى علم النحو ، فلا يفهمه قط ، فضلاً عن سائر

علوم الاجتهاد التى يفتتحها الطلبة بهذا العلم .

فمن كان على هذه الصفة ، وبهذه المنزلة ، لا يأتى إرشاده إلى تعلّم علوم الاجتهاد بفائدة . وأحسن ما يستعمله معه من يريد تقليل تعصبه ، ودفع بعض ما قد تغيّرت به فطرته ، هو أن ينظر العالم مَنْ عمل بذلك الدليل الذى هو الحق من قدماء المقلدين ، فيذكرهم أنه قد خالف إمامهم فى تلك المسألة فلان وفلان ممن هو فى طبقته أو أعلا طبقة منه ، وليس هو بالحق أولى من المخالفين له . فإن قبل ذهنهم هذا ، فقد انفتح باب العلاج للطبيب ؛ لأنه ينتقل معهم من ذلك إلى مااستدلّ به أمامهم ، ومااستدلّ به من خالفه ، وينتقل منه إلى وجوه الترجيح مبتدئاً بما هو أقرب إلى قبول فهم ذلك العليل ، ثم ينقله من مرتبة إلى مرتبة حتى يستعمل من الدواء مايقلّل تلك العلة ، فإنه إذا ادرك العليل ذهاب شيء منها حصل له بعض نشاط يحمله على قبول ما يذهب بالبقية .

ولكن ماأقل من يقبل شيئاً من هذه الأدوية ، فإنه قد ارتكز فى ذهن غالب هؤلاء إن الصحة والسلامة لهم هى فى نفس العلة التى قد تمكنت من أذهانهم ، فسرت إلى قلوبهم وعقولهم ، وأشربوا من حبها زيادة على مايجده الصحيح عن العلة من محبة ما هو فيه من الصحة والعافية . وسبب ذلك أنهم اعتقدوا أن إمامهم الذى قلدوه ليس فى علماء الأمة من يساويه أو يدانيه ، ثم قبلت عقولهم هذا الاعتقاد الباطل ، وزاد بزيادة الأيام والليالى ، حتى بلغ إلى حدّ يتسبب عنه أن جميع أقواله صحيحة جارية على وفق الشريعة ليس فيها خطأ ولا ضعف ، وأنه أعلم الناس بالأدلة الواردة فى الكتاب والسنّة على وجهٍ لا يفوت عليه منها شيء ، ولا تخفى منها خافية ، فإذا أسمعوا دليلاً فى كتاب الله أو سنّة رسوله قالوا : لو كان هذا راجحاً على ما ذهب إليه إمامُنا لذهب إليه ولم يتركه ، لكنه تركه لما هو أرجح منه عنده . فلا يرفعون لذلك رأساً ، ولا يرون بمخالفته بأساً . وهذا صنيع قد اشتهر عنهم ، وكاد أن يعمهم قرناً بعد قرن ، وعصراً بعد عصرٍ ، على اختلاف المذاهب وتباين النحل . فإذا قال لهم القائل : اعملوا بهذه الآية القرآنية أو بهذا الحديث الصحيح . قالوا : لست أعلم من أمامنا حتى نتبعك ، ولو كان هذا كما تقول لم يخالفه من قلدّناه ، فهو

لم يخالفه إلّا إلى ما هو أرجح منه .

وقد ينضم إلى هذا ، من بعض أهل الجهل والسفه والوقاحة ، وصف ذلك الدليل الذى جاء به المخاطب لهم بالبطلان والكذب إن كان من السنّة . ولو تمكنوا من تكذيب مافى الكتاب العزيز إذا خالف ما قد قلدّوا فيه لفعلوا .

وأما فى ديارنا هذه ، فقد لقنهم مَنْ هو مثلهم فى القصور والبعد عن معرفة الحق ــ ذريعة إبليسية ، ولطيفة مشئومة ، هى أن دواوين الإسلام الصحيحين والسنن الأربع ، وما يلتحق بها من المسندات والمجاميع المشتملة على السنّة ، إنما يشتغل بها ، ويكرر درسها ، ويأخذ منها ما تدعو حاجته إليه ، مَنْ لم يكن من اتباع أهل البيت ؛ لأن المؤلفين لها لم يكونوا من الشيعة .

فيدفعون بهذه الذريعة الملعونة جميع السنّة المطهرة ؛ لأن السنة الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هى ما فى تلك المصنفات ، ولا سنة غير ما فيها ، وهؤلاء وإن كانوا يعدون من أهل العلم ، لا يستحقون أن يذكروا مع أهله ، ولا تنبغى الشغلة بنشر جهلهم ، وتدوين غباوتهم ، لكنهم لما كانوا قد تلبّسوا بلباس أهل العلم ، وحملوا دفاتره ، وقعدوا فى المساجد والمدارس ، اعتقدتهم العامة من أهل العلم ، وقبلوا ما يلقنونهم من هذه الفواقر ، فضلوا ، وأضلوا ، وعظمت بهم الفتنة ، وحلّت بسببهم الرزية ، فشاركوا سائر المقلدة فى ذلك الاعتقاد فى أئمتهم الذين قد قلدوهم ، واختصوا من بينهم بهذه الخصلة الشنيعة والمقالة الفظيعة ؛ فإن أهل التقليد من سائر المذاهب يعظمون كتب السنّة ، ويعترفون بشرفها ، وأنها أقوال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأفعاله ، وأنها هى دواوين الإسلام ، وأمهات الحديث وجوامعه التى عوّل عليها أهل العلم فى سابق الدهر ولاحقه ، بخلاف أولئك فإنها عندهم بالمنزلة التى ذكرنا ، فضمّوا إلى شنعة التقليد شنعة أخرى هى أشنع منها ، وإلى بدعة التعصب بدعة أخرى هى أفظع منها .

ولو كان لهم أقل حظ من علم ، وأحقر نصيب من فهم ، لم يخف عليهم أن هذه الكتب لم يقصد مصنفوها إلّا جمع ما بلغ إليهم من السنّة بحسب

مابلغت إليه مقدرتهم ، وانتهى إليه علمهم ، ولم يتعصبوا فيها لمذهب ، ولا اقتصروا فيها على ما يطابق بعض المذاهب دون بعض ، بل جمعوا سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأمته ؛ ليأخذ كل عالم منها بقدر علمه وبحسب استعداده .

ومن لم يفهم هذا ، فهو بهيمة لا يستحق أن يخاطب بما يخاطب به النوع الإنسانى ، وغاية ماظفر به من الفائدة بمعاداة كتب السنّة التسجيل على نفسه بأنه مبتدع أشد ابتداع ؛ فإن أهل البدع لم ينكروا جميع السنّة ، ولا عادوا كتبها الموضوعة لجمعها ، بل حق عليهم اسم البدعة عند سائر المسلمين بمخالفة بعض مسائل الشرع .

فانظر أصلحك الله مايصنع الجهل بأهله ، ويبلغ منهم ، حتى يوقعهم فى هذه الهوّة ، فيعترفون على أنفسهم بما يقشعرّ له جلد الإسلام ، وتبكى منه عيون أهله .

وليتهم نزلّوا كتب السنّة منزلة فن من الفنون التى يعتقدون أن أهله أعرف به من غيرهم وأعلم ممن سواهم . فإن هؤلاء المقلدة على اختلاف مذاهبهم وتباين نحلهم ، إذا نظروا فى مسألة من مسائل النحو بحثوا كتب النحاة ، وأخذوا بأقوال أهله ، وأكابر أئمته ، كسيبويه[٦٢] والأخفش[٦٣] ونحوهما ، ولم يلتفتوا إلى ماقاله من قلدوهم فى تلك المسألة النحوية ؛ لأنهم يعلمون أن لهذا الفن أهلًا هم المرجوع إليهم فيه .

فلو فرضنا أنه اختلف أحد المؤلفين فى الفقه من أهل المذاهب المأخوذ بقولهم المرجوع إلى تقليدهم وسيبويه فى مسألة نحوية ، لم يشك أحد أن سيبويه هو أولى بالحق في تلك المسألة من ذلك الفقيه ؛ لأنه صاحب الفن وإمامه .

(٦٢) ستأتى له ترجمة .

(٦٣) عبد الحميد بن عبد المجيد ، الأخفش : من كبار علماء العربية . لقى الأعراب وأخذ عنهم وهو أول من فسر الشعر تحت كل بيت ، وماكان الناس يعرفون ذلك قبله وإنما كانوا إذا افرغوا من القصيدة فسروها . توفى سنة ١٧٧ هـ = ٧٩٣ م بغية الوعاة ٢٩٦ وإنباه الرواة ٢ : ١٥٧ .

وهكذا لو احتاج أحد من المقلدين أن ينظر فى مسألة لغوية لرجع إلى كتب اللغة ، وأخذ بقول أهلها ، ولم يلتفت فى تلك المسألة إلى ماقاله من هو مقلدّ له ولا عول عليه ، ولا سيما إذا عارض ما يقوله أقوال أئمة اللغة ، وخالف ما يوجد فى كتبها .

وهكذا لو أراد أحدهم أن يبحث عن مسئلة أصولية ، أو كلامية ، أو تفسير أو غير ذلك من علوم العقل والنقل ، لم يرجع فى كل فن إلّا إلى أهله ، ولا يعوّل على سواهم ؛ لأنه قد عرف أن أهل تلك الفنون أخبر بها ، وأتقن لها ، وأعرف بدقائقها وخفياتها ، وراجحها ومرجوحها ، وصحيحها وسقيمها ، بخلاف من يقلدّونه ؛ فإنه وإن كان فى علم الفقه بارعاً عارفاً به ، لكنه فى هذه الفنون لا يرتقى إلى أقل رتبة ، وأحقرهم معرفة — لا يرضى مقلدوه أن يعارضوا بقوله فى هذه الفنون قول من هو من أهلها .

وإذا عرفت هذا من صنيعهم وتبينته ، فقل لهم : ما بالكم تركتم خير الفنون نفعاً ، وأشرفه أهلًا ، وأفضله واضعاً ، وهو علم السنة ؟ فإنكم قد علمتم أن اشتغال أهل هذا العلم به أعظم من اشتغال أهل سائر الفنون بفنونهم وتنقيحهم له ، وتهذيبه ، والبحث عن صحيحه وسقيمه ، ومعرفة علله والإحاطة بأحوال رواته ، وإتعاب أنفسهم فى هذا الشأن مالا يتعبه أحد من أهل الفنون فى فنونهم ، حتى صار طالب الحديث فى تلك العصور لا يكون طالباً إلّا بعد أن يرحل إلى أقطار متباينة ، ويسمع من شيوخ عدة ، ويعرف العالى والنازل[٦٤] ، والصحيح وغيره ، على وجه لا يخفى عليه مخرج الحرف الواحد من الحديث الواحد ، فضلًا عن زيادة على ذلك . وفيهم من يحفظ مائة ألف حديث ، إلى خمسمائة ألف حديث ، إلى ألف ألف حديث ، هى على ظهر قلبه لا تخفى عليه منها خافية ، ولا يلتبس عليه فيها حرف واحد . ومع هذا الحفظ والاتقان فى المتون[٦٥] ، كذلك يحفظون ويتقنون أسانيدها على حد

---

(٦٤) المراد بالعالى : الإسناد الذى قل عدد رجاله بالنسبة إلى سند آخر يرد به ذلك الحديث بعدد أكثر . والمراد بالنازل : الإسناد الذى كثر عدد رجاله بالنسبة إلى سند آخر يرد به ذلك الحديث بعدد أقل .

(٦٥) المتون ، مفردها «متن» ، والمتن : هو ما انتهى إليه السند من الكلام .

لا يخفى عليهم من أحوال الرواة شيء ، ولا يلتبس عليهم ماكان فيه من خير وشرّ ، وجرح وتعديل ، ويتركون من وجدوا فى حفظه أدنا ضعف ، أو كان به أقل تبساهل ، أو أحقر مايوجب الجرح .

وبالجملة ، فمن عرف الفنون وأهلها معرفة صحيحة ، لم يبقَ عنده شك أن اشتغال أهل الحديث بفنهم لايساويه اشتغال سائر أهل الفنون بفنونهم ولا يقاربه ، بل لا يعدّ بالنسبة إليه كثير شيء ؛ فإن طالب الحديث لا يكاد يبلغ من هذا الفن بعض مايريده إلّا بعد أن يفنى صباه وشبابه وكهولته وشيخوخته فيه ، ويطوف الأقطار ، ويستغرق بالسماع والكتب الليل والنهار . ونحن نجد الرجل يشتغل بفن من تلك الفنون العام والعامين والثلاثة ، فيكون معدوداً من محققى أهله ومتقنيهم .

فما بالكم أيها المقلدة إذا أردتم الرجوع إلى فن السنّة ، لم تصنعوا فيه كما تصنعونه فى غيره ، من الرجوع إلى أهل الفن ، وعدم الاعتداد بغيرهم ؛ وهل هذا منكم إلّا التعصب البحت ، والتعسف الخالص ، والتحكم الصرف ؟ فهلّا صنعتم فى هذا الفن الذى هو رأس الفنون وأشرفها ، كما صنعتم فى غيره ، فرجعتم إلى أهله ، وتركتم ماتجدونه مما يخالف ذلك فى مؤلفات المشتغلين بالفقه ، الذين لا يفرقّون بين أصح الصحيح وأكذب الكذب ، كما يعرف ذلك مَنْ يعرف نصيباً من العلم وحظاً من العرفان .

ومن أراد الوقوف على حقيقة هذا ، فلينظر مؤلفات جماعة هم فى الفقه بأعلا رتبة ، مع التبحر فى فنون كثيرة ، كالجوينى[٦٦] ، والغزالى[٦٧] ،

(٦٦) عبد الملك بن عبد الله ، الجوينى ، الملقب بإمام الحرمين : (٤١٩ ـ ٤٧٨ هـ = ١٠٢٨ ـ ١٠٨٥ م) من أتباع الشافعى المتأخرين وأعلمهم . كان يحضر دروسه كبار العلماء بـ«المدرسة النظامية» التى كان يدرس بها والتى بناها له الوزير نظام الملك بنيسابور . له مصنفات كثيرة ، منها «الشامل» فى أصول الدين على مذهب الأشاعرة، و«البرهان» فى أصول الفقه . مفتاح السعادة ١ : ٤٤٠ ثم ٢ : ١٨٨ ، والسبكى ٣ : ٢٤٩ ، ووفيات الأعيان ١ : ٢٨٧ ، والأعلام ٤ : ١٦٠ .

(٦٧) محمد بن محمد بن محمد الغزالى ، أبو حامد : (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ = ١٠٥٨ ـ ١١١١ م) ، فيلسوف ، فقيه ، أصولى ، متصوف . مولده ووفاته بخراسان . له نحو مائتى مصنف ، منها «بداية=

وأمثالهما ؛ فإنهم إذا أرادوا أن يتكلموا فى الحديث ، جاءوا بما يضحك منه سامعه ويعجب ؛ لأنهم يوردون الموضوعات ، فضلًا عن الضعاف ، ولا يعرفون ذلك ، ولا يفطنون به ، ولا يفرقون بينه وبين غيره . وسبب ذلك عدم اشتغالهم بفن الحديث كما ينبغى ، فكانوا عند التكلم فيه عبرة من العبر . وهكذا حال مثل هذين الرجلين ، وأشباههم من أهل طبقتهم ، مع تبحرهم فى فنون عديدة ؛ فما بالك بمن يتصدى للكلام فى فن الحديث ، ويشتغل بإدخاله فى مؤلفاته ، وهو دون أولئك بمراحل لا تحصر ؟

وهكذا تجد كثيراً من أئمة التفسير الذين لم يكن لهم كثير اشتغال بعلم السنة ، كالزمخشرى[٦٨] ، والفخر الرازى[٦٩] ، وغالب من جاء بعدهم ، فإنهم يوردون فى تفاسيرهم الموضوعات التى لا يشك من له أدنى اشتغال بعلم الحديث فى كونه موضوعاً مكذوباً على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وذلك المفسر قد أدخله فى تفسيره ، واستدل به على مايقصده من تفسير كتاب الله سبحانه .

وهكذا أئمة أصول الفقه ، فإن أكثر من يشتغل من الناس فى هذا الزمان بمؤلفاتهم لا يعرفون فن الحديث ، ولا يميزون شيئاً منه ، بل يذكرون فى مؤلفاتهم الموضوعات ، ويبنون عليها القناطر .

وبهذه الأسباب تلاعب الناس بهذا الفن الشريف ، وكذبوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقبح كذب ، فصار من له تمييز يقضى من صنيعهم

=الهداية» ، و «المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى» ، وهما بتحقيقنا ، و «إحياء علوم الدين» ، و «المنقذ من الضلال» . طبقات الشافعية ٤ : ١٠١ ، وآداب اللغة ٣ : ٩٧ ، ومفتاح السعادة ٢ : ١٩١ ـ ٢١٠ .

(٦٨) ستأتى له ترجمة .

(٦٩) محمد بن عمر ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازى : (٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ = ١١٥٠ ـ ١٢١٠ م) ، أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل . أصله من طبرستان ، ومولده فى الرىّ . له مصنفات كثيرة ، منها «مفاتيح الغيب» وهو تفسير رائع فريد نسيج وحده . لسان الميزان ٤ : ٤٢٦ ، وتذكرة النوادر ٦٨ ، والوفيات ١ : ٤٧٤ ، ومفتاح السعادة ١ : ٤٤٥ ـ ٤٥١ .

العجب إذا وقف على مؤلفاتهم. ومع ذلك فهم لا يشعرون بما هم فيه من الخطأ والخطل والزلل . وهم الموقعون لأنفسهم فى هذه الورطة ؛ بعدم رجوعهم فى هذا الفن بخصوصه إلى أهله المشتغلين به ، كما يرجعون إلى أهل سائر الفنون عند احتياجهم إلى مسألة من مسائله .

ولست أظن سبب تخصيصهم لهذا الفن الشريف الجليل ، بعدم الرجوع إلى أهله دون غيره ، إلّا مايجده الشيطان فى تزيين مثل ذلك لهم من المحال فى الدين ، وإثبات الأحكام الشرعية بالأكاذيب المختلفة ، وإغفال كثير من مهمات الدين ؛ لعدم علم المتكلمين فى الفقه بأدلتها .

وأنت لا يخفى عليك بعد هذا : أن إنصاف الرجل لا يتم حتى يأخذ كل فن عن أهله كائناً ما كان ؛ فإنه لو ذهب العالم الذى قد تأهل للاجتهاد يأخذ مثلًا الحديث عن أهله ، ثم يريد أن يأخذ مايتعلق بتفسيره فى اللغة عنهم ، كان مخطئاً فى أخذ المدلول اللغوى عنهم ، وهكذا أخذ المعنى الإعرابى عنهم ؛ فإنه خطأ ، بل يأخذ الحديث عن أئمته بعد أن يكشف عن سنده وحال رواته ، ثم إذا احتاج إلى معرفة مايتعلق بذلك الحديث من الغريب رجع إلى الكتب المدوّنة فى غريب الحديث ، وكذا سائر كتب اللغة المدونة فى الغريب وغيره . وإذا احتاج إلى معرفة بنية كلماته رجع إلى علم الصرف . وإذا احتاج إلى معرفة إعراب أواخر كلمه رجع إلى علم النحو . وإذا أراد الاطلاع على ما فى ذلك الحديث من دقائق العربية وأسرارها رجع إلى علم المعانى والبيان . وإذا أراد أن يسلك طريقة الجمع والترجيح بينه وبين غيره رجع إلى علل أصول الفقه .

فالعالم إذا صنع ظفر بالحق من أبوابه ، ودخل إلى الإنصاف بأقوى أسبابه .

وأما أخذ العلم عن غير أهله ، ورجح مايجده من الكلام لأهل العلم فى فنون ليسوا من أهلها ، وأعرض عن كلام أهلها ؛ فإنه يخبط ، ويخلط ، ويأتى من الأقوال والترجيحات بما هو فى أبعد درجات الاتقان ، وهو حقيق بذاك ؛ فإن من ذهب يقلد أهل علم الفقه فيما ينقلونه من أحاديث الأحكام ، ولم يقتد

بأئمة الحديث ، ولا أخذ عنهم ، واعتمد مؤلفاتهم ، كان حقيقاً بأن يأخذ بأحاديث موضوعة مكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويفرّع عليها مسائل ليست من الشريعة ؛ فيكون من المتقولين على الله بما لم يقل ، المكلفين عباده بما لم يشرعه ؛ فيضل ويضل ، ولابد أن يكون عليه نصيب من وزر العاملين بتلك المسائل الباطلة إلى يوم القيامة ؛ فإنه قد سن لهم سنناً سيئة ، ويصدق عليه قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم : «**من أفتي بفتيا غير ثبت ، فإنما إثمه على الذي أفتاه**» أخرجه أحمد فى المسند ، وابن ماجه[٧٠] ، وفى لفظ : «**من أفتي بفتيا بغير علم كان إثم ذلك على الذي أفتاه**» ، أخرجه أحمد ، وأبو داود ، ورجال إسناده أئمة ثقات[٧١] ، وليس هذا بمجتهد حتى يقال : إنه إن أصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر — بل هذا مجازف متجرئ على شريعة الله متلاعب بها ؛ لأنه عمد إلى من لا يعرف علم الشريعة المطهرة ، فرواها عنه ، وترك أهلها بمعزل .

فإن كان يعلم أن أخذ ما يستدل به من الأحاديث عن غير أهل الفن ، فهو قد أتى ما أتاه من الاستدلال بالباطل ، وإثبات المسائل التى ليست بشرع ، عن عمد وقصد ؛ فما أحقه أن يعاقب على ذلك ؛ فقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أنه قال : «**من روى عنى حديثاً يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين**» ، وفى رواية : «**يظن أنه كذب**» ، والحديث ثابت فى صحيح مسلم وغيره[٧٢] . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث جماعة من الصحابة أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : «**من كذب عليَّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار**»[٧٣] .

---

(٧٠) أحمد ٢ : ٣٢١ — ٣٦٥ ، وابن ماجه : فى المقدمة باب ٨ ، والدارمى : فى المقدمة باب ٢٠ .

(٧١) المظان السابقة .

(٧٢) الترمذى : فى كتاب العلم ، باب ٩ . وابن ماجه فى المقدمة ، باب ٥ . وأحمد : الجزء الأول ، ص ١١٣ ، والرابع ص ٢٥٠ ، ٢٥٢ و ٢٥٥ ، والخامس ص ١٤ و ٢٠ .

(٧٣) البخارى : فى كتاب العلم ، باب ٣٨ ؛ والجنائز ، باب ٣٣ ؛ والأنبياء باب ٥٠ ؛ والأدب باب ١٠٩ . ومسلم : فى كتاب الزهد برقم ٧٢ . وأبو داود فى كتاب العلم ، باب ٤ . والترمذى : فى =

فهذا العامد إلى كتب من لا يعرفون صحيح الأحاديث من باطلها ، ولا يميزونها بوجه من وجوه التمييز ، كالمشتغلين بعلم الفقه ، والمشتغلين بعلم الأصول ، قد دخل تحت حديث «**فهو أحد الكاذبين**»[(٧٤)] ؛ لأن من كان كذلك ، فهو مظنة للكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإن لم يكن عن عمد منه وقصد ؛ لأنه أقدم على رواية مالا يدرى أصحيح هو أم باطل ، ومن أقدم على ماهذا شأنه وقع فى الكذب .

وأما إذا كان الناقل من غير أهل الفن لا يدرى أن من نقل عنه لا تمييز له ، فهذا جاهل ليس بأهل لأن يتكلم على أحكام الله ، فاستحق العقوبة من الله بإقدامه على الشريعة وهو بهذه المنزلة التى لا يستحق صاحبها أن يتكلم معها على كلام فرد من أفراد أهل العلم ؛ فكيف على كلام الله ورسوله ؛ فبعداً وسحقاً للمتجرئين على الله وعلى شريعته بالإقدام على التأليفات للناس مع قصورهم وعدم تأهلهم .

وقد كثر هذا الصنع من جماعة يبرزون فى معرفة مسائل الفقه التى هى مشوبة بالرأى ، إن لم يكن هو الغالب عليها ، ويتصدرون لتعليم الطلبة لهذا العلم ، ثم تكبر أنفسهم عندهم لما يجدونه من اجتماع الناس عليهم ، وأخذ العامة بأقوالهم فى دينهم ، فيظنون أنهم قد عرفوا ماعرفه الناس ، وظفروا بما ظفر به علماء الشريعة المتصدرون للتأليف والكلام على مسائل الشريعة ، فيجمعون مؤلفات هى مما قمشت وطم حبْلُ الحاطب صُنْعُ من لا يدرى لمن لا يفهم . ثم يأخذها عنهم من هو أجهل منهم ، وأقصر باعاً فى العلم ، فينتشر فى العالم ، وتظهر فى الملة الإسلامية فاقرة من الفواقر ، وقاصمة من القواصم ، وصاحبها لجهله يظن أنه قد تقرب إلى الله بأعظم القرب وتاجره بأحسن

= كتاب الفتن ، باب ٧٠ ؛ والعلم باب ٨ و١٣ ؛ والتفسير باب ١ ؛ والمناقب باب ١٩ . وابن ماجه : فى المقدمة باب ٤ . والدارمى : فى المقدمة ، باب ٢٥ و ٤٦ . وأحمد : الجزء الثانى ص ٤٧ ، ٨٣ ، ١٢٣ ؛ والخامس ص ٢٤٥ ، ٢٩٢ ، ٤١٢ .

(٧٤) سبق تخريجه .

متاجرة ، وهو فاسد الظن باطل الاعتقاد مستحق لسخط الله وعقوبته ؛ لأنه أقدم فى محل الإحجام ، وتحلّى بما ليس له ، ودخل فى غير مدخله ، ووضع جهله على أشرف الأمور وأعلاها وأولاها بالعلم والإتقان والتمييز وكمال الإدراك .

فهذا هو بمنزلة القاضى الذى لا يعلم بالحق ، فهو فى النار ، سواء حكم بالحق أو بالباطل . بل هذا الذى أقدم على تصنيف الكتب وتحرير المجلدات فى الشريعة الإسلامية مع قصوره وعدم بلوغه إلى ما لابد لمن يتكلم فى هذا الشأن منه ، أحق بالنار من ذلك القاضى الجاهل ؛ لأنه لم يصب بجهل القاضى الجاهل مثل من أصيب بمصنفات هذا المصنف المقصّر .

ومن فتح الله عليه من معارفه بما يعرف به الحق من الباطل ، والصواب من الخطأ ، لا يخفى عليه ما فى هذه المصنفات الكائنة بأيدى الناس فى كل مذهب ، فإنه يقف من ذلك على العجب . ففى بعض المذاهب يرى أكثر ما يقف عليه فى مصنف من مصنفات الفقه خلاف الحق ، وفى بعضها يجد بعضه صواباً وبعضه خطأ ، وفى بعضها يجد الصواب أكثر من الخطأ ، ثم يعثر على ما يحرره مصنفو تلك الكتب من الأدلة لتلك المسائل التى قد دونّوها ، فيجد فيها الصحيح والحسن والضعيف والموضوع ، وقد جعلها المصنف شيئاً واحداً ، وعمل بها جميعها ، من غير تمييز ، وعارض بين الصحيح والموضوع وهو لا يدرى ، ورجح الباطل على الصحيح وهو لا يعلم .

فما كان أحق هذا المصنف ــ لا كثر الله فى أهل العلم من أمثاله ــ بأن يوخذ على يده ويقال له : اترك مالا يعنيك ، ولا تشتغل بما ليس من شأنك ، ولا تدخل فيما لا مدخل لك فيه .

إذا فات أهل عصره أن يأخذوا على يده ، فلا ينبغى أن يفوت من بعدهم أن يأخذوا على أيدى الناس ، ويحولوا بينهم وبين هذا الكتاب الذى لا يفرق مؤلفه بين الحق والباطل ، ولا يميز بين ماهو من الشريعة وماليس منها ؛ فما أوجب هذا عليهم ، فإن هذا المشئوم قد جنى على الشريعة وأهلها جناية

شديدة ، وفعل منكراً عظيماً ، وهو يعتقد لجهله أنه قد نشر فى الناس مسائل الدين . ويظن من اتبعه فى الأخذ عنه أن هذا الذى جاء به هذا المصنف هو الشريعة ، فانتشر بين الجاهلين أمر عظيم ، وفتنة شديدة .

وهذا هو السبب الأعظم فى اختلاط المعروف بالمنكر فى كتب الفقه ، وغلبة علم الرأى على علم الرواية .

فإن المتصدر للتصنيف فى كتب الفقه ، وإن بلغ فى إتقانه ، وإتقان علم الأصول ، وسائر الفنون الآلية ، إلى حد يتقاصر عنه الوصف ، إذا لم يتقن علم السنّة ويعرف صحيحه من سقيمه ، ويعول على أهله فى إصداره وإيراده ، كانت مصنفاته مبنية على غير أساس ؛ لأن علم الفقه هو مأخوذ من علم السنة إلّا القليل منه ، وهو ماقد صرح بحكمه القرآن الكريم ؛ فما يصنع ذو الفنون بفنونه إذا لم يكن عالماً بعلم الحديث متقناً له معوّلًا على المصنفات المدونة فيه .

وبهذه العلة تجد المصنفين فى علم الفقه يعوّلون فى كثير من المسائل على محض الرأى ، ويدونونه فى مصنفاتهم ، وهم لا يشعرون أن فى ذلك سنّة صحيحة يعرفها أقل طالب لعلم الحديث . وقد كثر هذا جداً من المشتغلين بالفقه على تفاقم شره وتعاظم ضرره . وجنوا على أنفسهم وعلى الشريعة وعلى المسلمين .

وإذا شككت فى شىء من هذا فخذ أى كتاب شئت من الكتب المصنفة فى الفقه ، وطالعه ، تجد الكثير الواسع ، وكثيراً ما تجد فى ذلك من المسائل التى لم تدع إليها حاجة ، ولا قام عليها دليل ، بل مجرّد الفرض والتقدير ، وما يدور فى مناظرة الطلبة ويسبق إليه أذهانهم ؛ فإن هذا يكون فى الإبتداء سؤالًا ومناظرة ، ثم يجيب عنه من هو من أهل الفقه ، وغالب من يتصدّر منهم وينفق بينهم هو من لا التفات له إلى سائر العلوم ، ولا اشتغال منه بها ولا يعرف الحجة ، ولا يعقلها ، فيدون الطلبة جوابه ، ويصير حينئذ فقيهاً وعَلمَاً ، وهو كلام جاهل لا يستحق الخطاب ، ولا يعوّل على مثله فى جواب ، لو تكلم معه المتكلم فى فن من فنون الإجتهاد لكان ذلك عنده بمنزلة من يتكلم بالعجمية ويأتى بالمعميات ويتعمد الألغاز .

فيا هذا الجاهل ــ لا كثّر الله فى أهل العلم من أمثالك ــ ألّا تقتصر على ما قد عرفته من كلام من تقلده ، فإذا سألك سائل عن شىء منه نقلته له بنصه ، وإن سألك عما لم يكن منه قلت : لا أدرى . فما بالك والكلام برأيك ، وأنت جاهل لعلم الرأى ، فضلًا عن علم الرواية ، وعاطل عن كل معقول ومنقول ، لم تحظ من علم الفقه الذى ألفه أهل مذهبك إلّا بمختصر من المختصرات ، فضلًا عن مؤلفات غير أهل مذهبك فى الفقه ، فضلًا عن المؤلفات فى سائر العلوم ، فأنت من علامات القيامة ، ومن دلائل رفع العلم ، وقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عنك وعن أمثالك ، وأبان لنا أنه يتخذ الناس رؤوساً جهالًا ، فيفتون بغير علم ، فيضلون ويُضلون . فأنت ممن يُفتى بغير علم ، ويتعمد الضلالة لنفسه والإضلال للناس ؛ فاربع على ظلعك(٧٥) ، وأقصر من غوايتك ، واترك ماليس من شأنك ، ودع مثل هذا لمن علمه الله الكتاب والسنّة وأطلعه على أسرارهما بما فتح له من المعارف الموصلة إليهما . فأنت إن وكلت الأمر إلى أهله ، وألقيت عنان هذا المركب إلى فارسه ، دخل إلى الشرع من أبوابه ، ووصل إلى الحق من طريقه ، وحطّ عن عباد الله كثيراً من هذه التكاليف التى قد كلفهم بها أمثالك من الجهال ، وأراحهم من غالب هذه الأكاذيب التى يسمونها علماً ، فإن ذلك شىء الجهل خير منه .

ولقد عظمت المحنة على الشرع وأهله بهذا الجنس من المقلدة ، حتى بطل كثير من الشريعة الصحيحة التى لا خلاف بين المسلمين فى ثبوتها لاشتهارها بين أهل العلم ، ووجودها إما فى محكم الكتاب العزيز ، أو فى ما صح من دواوين السنّة المطهّرة التى هى مشتهرة بين الناس اشتهاراً على وجه لا يخفى على من ينسب إلى العلم وإن كان قليل الحظ فيه .

وسبب ذلك أن هؤلاء كما عرفت قد جعلوا غاية مطلبهم ونهاية مقصدهم

---

(٧٥) فى الأصل «طلعك» ، والصواب «ظَلْعك» ، ومعنى (اربَعْ على ظَلْعك) : تمكّثْ وانتظر .

العلم بمختصر من مختصرات الفقه التى هى مشتملة على ما هو من علم الرأى والرواية والرأى أغلب ، ولم يرفعوا إلى غير ذلك رأساً من جميع أنواع العلوم ، فصاروا جاهلين بالكتاب والسنّة وعلمهما جهلًا شديداً ؛ لأنه قد تقرر عندهم أن حكم الشريعة منحصر فى ذلك المختصر ، وأن ما عداه فضلة أو فضول ، فاشتد شغفهم به وتكالبهم عليه ، ورغبوا عما عداه وزهدوا فيه زهداً شديداً . فإذا سمعوا آية من كتاب الله ، أو حديثاً من سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مصرحاً بحكم من الأحكام الشرعية تصريحاً يفهمه العامة من أهل طبقتهم ، كان ذلك هيّناً عندهم كأنه لم يكن كلام الله أو كلام رسوله ، ويطرحونه لمجرد مخالفته لحرف من حروف ذلك الكتاب ، بل مفهوم من مفاهيمه .

وهذا لا ينكره من صنيعهم إلا من لا يعرفهم .

وقد عرفت منهم من لو جمع له الجامع مصنفاً مستقلًا من أدلة الكتاب والسنّة ، يشتمل على أدلة قرآنية وحديثية ، ما يجاوز المئين أو الألوف ، كلها مصرح بخلاف حرف من حروف ذلك المختصر الذى قد عرفه من الفقه ، لم يلتفت إلى شىء من ذلك ، ولو انضم إلى الكتاب والسنّة المنقولة فى ذلك المصنف إجماع الأمة سابقها ولاحقها وكبيرها وصغيرها من كل من ينتسب إلى العلم على خلاف ما فى ذلك المختصر ، لم يرفع رأسه إلى شىء من ذلك . ولا أستبعد أنه لو جاءه نبى مرسل أو ملك مقرّب يخبره أن الحق الذى شرعه الله لعباده خلاف حرف من حروف ذلك المختصر ، لم يسمع منهما ، ولا صدّقهما . بل لو انشقت السماء ، وصرخ منها ملك من الملائكة ، بصوت يسمعه جميع أهل الدنيا ، بأن الحق على خلاف ذلك الحرف الذى فى المختصر ، لم يصدقه ، ولا رجع إلى قوله .

وأعظم من هذا أنك ترى الواحد منهم يعترف بأنه مقلد ، ثم يحفظ عن شيخه مسألة يعترف أنها من أفكاره ، وأنه لم يسبق إليها ، مع اعترافه بأن ذلك الشيخ مقلدّ ، واعترافه بأن تقليد المقلد لا يصح . ثم يأخذ هذه المسألة عن

شيخه ، ويعمل بها ، قابلًا لها قبولًا تاماً ، ساكناً إليها ، منثلج الخاطر بها ، مؤثر لها على أدلة الكتاب والسنّة ، وأنظار المبرزين من العلماء ، ولو أجمعوا جميعاً ، فإن إجماعهم ودليلهم لا يثنى هذا الفدم[٧٦] الجافى الجلف[٧٧] عن كلام شيخه المقلدّ الذى سمعه منه .

وبالجملة فمن كان بهذه المنزلة ، فهو ممن طبع الله على قلبه ، وسلبه نور التوفيق ، فعمى عن طريق الرشاد ، وضل عن سبيل الحق . ومثل هذا لا يستحق توجيه الخطاب إليه ، ولا يستأهل الاشتغال به ؛ فإنه وإن كان فى مسلاخ إنسان ، وعلى شكل بنى آدم ، فهو بالدوابّ أشبه ، وإليها أقرب ، ويا ليته لو كان دابة ليسلم من معرّته عباد الله وشريعته . ولكن هذا المخذول ، مع كونه حمارى الفهم ، بهيمى الطبع ، قد شغل نفسه بالحط على علماء الدين المبرزين المشتغلين بالكتاب والسنّة وعلمهما وما يوصل إليهما ، وعاداهم أشد العداوة ، وكافحهم بالمكروه مكافحة ، ونسبهم إلى مخالفة الشرع ومباينة الحق ، بسبب عدم موافقتهم له على العمل بما تلقنه من شيخه الجاهل .

ولقد جاءت هذه الأزمة فى ديارنا هذه بما لم يكن فى حساب ، ولا خطر ببال إبليس أن تكون له مثل هذه البطانة ، ولا ظن أنه ينجح كيده فيهم إلى هذا الحد ، ويبلغون فى طاعته هذا المبلغ ؛ فإن غالبهم قد ضمّ إلى ما قدمنا من أوصافه وصفاً أشد منها وأشنع وأقبح ، وهو أنه إذا سمع قائلًا يقول : قال رسول الله ، أو يملى سنداً فيقول : حدثنا فلان عن فلان — قامت قيامته ، وثار شيطانه ، واعتقد أن هذا صنع أعداء أهل البيت المناصبين لهم بالعدواة المخالفين لهديهم .

فانظر ما صنع هذا الشيطان ، فإن فى نسبته للمشتغلين بالسنّة المطهرة إلى مخالفة أهل البيت طعناً عظيماً على أهل البيت ؛ لأنه جعلهم فى جانب والسنّة فى جانب آخر ، وجعل بينهما عناداً وتخالفاً ، فانظر هذا الشيعى المحب لأهل

---

(٧٦) (الفدْمُ) : ثقيل الفهم الغبى .

(٧٧) (الجلف) : الغليظ الجافى الأحمق .

البيت القائم فى نشر مناقبهم ، كان أول ما قرره من مناقبهم النداء فى الناس بأن من عمل بالسنّة المطهرة أو رواها أو أحبها ، فهو مخالف لأهل البيت . وحاشى لأهل البيت أن يكونوا كما قال ؛ فهم أحق الأمة باتباع سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والاهتداء بهديه ، والاقتداء بكلامه .

ولقد رأينا هؤلاء الذين يسخطون على السنّة المطهرة ، ويعادون من اشتغل بها ، وعكف عليها ، يسمع أحدهم فى المساجد والمدارس علوم الفلسفة وسائر علوم غير الشريعة يقرأها الطلبة على الشيوخ ، فلا ينكر ذلك ، ولا يرى به بأساً . فإذا سمع حدثنا فلان عن فلان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم — كان هذا أشد على سمعه من علم أرسطوطاليس(٧٨) وأفلاطون(٧٩) وجالينوس(٨٠) ، بل أثقل على سمعه من فرعون وهامان .

فقبح الله أهل البدع ، وقلّل عددهم ، وأراح منهم ؛ فإنهم أضرّ على الشريعة من كل شيء ، قد شغلوا أنفسهم بمسائل معروفة هى رأس مذهبهم وأساسه ، وتركوا ما عدا ذلك وعابوه وعادوا أهله .

انظر الرافضة ، فإنك تجد أكثر مالديهم ، وأعظم مايشتغلون به ، ويكتبونه ، ويحفظونه ، مثالب الصحابة رضى الله عنهم المكذوبة عليهم ؛ ليتوصلوا بذلك إلى ماهو غاية مالديهم من السّب والثلب لهم ، صانهم الله ، وكبت مبغضيهم . ثم يعتبرون الناس جميعاً بهذه المسألة ، فمن وافقهم فيها فهو

---

(٧٨) أرسطوطاليس : (٣٨٤—٣٢٢ ق.م) ، ثالث ثلاثة من المفكرين العظام الذين عاشوا فى أثينا وقدموا تعاليمهم فيها . له أثره الواضح فى تطور الفكر الإنسانى . من مؤلفاته «ما بعد الطبيعة» . و «الأخلاق لنيقوماخية» و «الطبيعة» . الموسوعة الفلسفية ص٣٢ وما بعدها ، وحكمة الغرب ١ : ١٥١ وما بعدها.

(٧٩) أفلاطون : (حوالى ٤٢٧ — ٣٤٧ ق .م) ، تعد أعماله من أعظم الأعمال الفلسفية فى العالم ، بل أنها كذلك من أعظم الأعمال الأدبية . وهو أستاذ أرسطو ومعلمه . وكل مؤلفاته — ماعدا واحداً — محاورات ، منها «الجمهورية» ، و «القوانين» و «عن العلم : تيتياتوس» . حكمة الغرب ١ : ١٠٤ وما بعدها ، والموسوعة الفلسفية ٤٥ وما بعدها .

(٨٠) جالينوس : هو أشهر الأطباء اليونانيين القدماء بعد أبقراط . له مؤلفات جليلة منها «العضل» ، و «القوى الطبيعية» ، و «حيلة البرء» ، «منافع الأعضاء» . دائرة معارف القرن العشرين ٣ : ٣ — ١٣ .

المسلم حقاً المحق وإن فعل مافعل ، ومن خالفهم فى هذه المسألة فهو المبطل المبتدع وإن كان على جانب من الورع وحظ من التقوى لا يقادر قدرهما . وقد يضمون إلى هذه المسألة التظهر بجمع الصلوات ، وترك الجُمَعْ ، كما قلته فى أبيات :

تشيّع الأقوام فى عصرنا منحصرٌ فى بدع تبتدع
عداوة السنّة والثلب للأسلاف والجمع وترك الجمع

وأما معيار التشيع فى ديارنا هذه عند جماعة من الزيدية ، لا عند جميعهم ، فيزيدون على هذه الأربع خامسة ، وهى التظهر بترك بعض من سنن الصلاة ، كالرفع والضم ـــ فإن أهل الطبقة التى ذكرنا لك أنها أصل الشر إذا رأوا من يفعل الرفع والضم ونحوهما ، كالتوجه فى الصلاة بعد التكبير ، والتورّك فى التشهد الأخير ، والدعاء فى الصلاة بغير ما قد عرفوه ، عادوه عداوة أشد من عداوتهم لليهود والنصارى ، وظنوا أنه على شريعة أخرى، وعلى دين غير دين الإسلام وأوقعوا فى أذهان العوام أنه ناصبى . فانتقلوا من فعله لهذه السنن أو أحدها إلى النصب الذى هو بغض علىّ ، وحكموا عليه به حكماً جازماً ، فانظر هذا الصنع الشنيع الذى هو شبيه بلعب الصبيان .

ومما أحكيه لك إنى أدركت فى أوائل أيام طلبى رجلًا يقال له : الفقيه صالح النهمى ، قد اشتهر فى الناس بالعلم والزهد ، وطلب علوم الاجتهاد طلباً قوياً فأدركها إدراكاً جيداً . فرفع يديه فى بعض الصلوات ، ورآه يفعل ذلك بعض المدرسين فى علم الفقه المشهورين بالتحقيق فيه والإتقان له ، فقال : اليوم ارتدّ الفقيه صالح !

فانظر هذه الكلمة من مثل هذا ، مع شهرته فى الناس ، واجتماع كثير من طلبة علم الفروع عليه فى جامع صنعاء ، وشيبه الناصع ، وثيابه الحسنة ، كيف موقعها فى قلوب العامة ، وما تراهم يعتقدون فى الفاعل لذلك بعد هذا . فأبعد الله هذا عالماً ، وذهب بهذا علماً . وإن كان لا عالم ولا علم ، فإن من لا يعقل الحجة ولا يفهم إلّا مجرّد الرأى لا الرواية ليس من العلم فى شىء .

ولا يستحق الدخول فى باب من أبوابه ، ولا ينبغى وصفه بشىء من صفاته .

فيا هذا — لا حيّاك الله — أيكون فعل سنّة الرفع التى اجتمع على روايتها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العشرة المبشرة بالجنة ومعهم زيادة على أربعين صحابياً ، ردة وكفراً وخروجاً من الملة الإسلامية ؟

أتدرى ما صنعت بنفسك يا جاهل ؟ عمدت إلى سنّة من السنن الثابتة ثبوتاً متواتراً فتركتها ، ولم تقنع لمجرد إنكار ثبوتها ، بل جاوزت ذلك إلى أن جعلتها ردة ، فجنيت على صاحب الشريعة أولًا ، ثم على كل مسلم يفعل هذه السنة ثانياً ، ثم على نفسك ثالثاً ؛ فخبت وخسرت ، وخبطت خبطاً ليس من شأن من هو مثلك من أسراء التقليد واتباع التعصب ، وكفّرت عالماً من علماء المسلمين ، يفعل سنة من سنن سيد المرسلين !

فما بالك بهذا وأنت تعترف على نفسك أنك لا تعرف الحق ، ولا تعقل الصواب ، فى مسائل الطهارة والتخلى[٨١] والوضوء والصلاة ، فكيف قمت ههنا مقام تكفير المسلمين ، والحكم عليهم بصريح الردة ، جازماً بذلك ، متحدثاً به ، مطمئناً إليه ؟

فما أوجب إنكار مثل هذا المنكر على أئمة المسلمين وأولي الأمر منهم ، فإن التنكيل بهذا المتكلم بمثل هذا الكلام بالحبس ، وسائر أنواع التعزير التى تردعه ، وتردع أمثاله من أهل التعصب ، عن انتهاك أعراض المسلمين ، والتلاعب بعلماء الدين ، من أعظم ما يتقربّ به المتقربون ، وأفضل ما يفعله من ولاه الله من أمر عباده شيئاً ؛ فإن غالب ما يصدر من هؤلاء المتعصبة من تمزيق أعراض علماء الدين المتمسكين بالسنن الصحيحة الثابتة فى هذه الشريعة ، هو راجع إلى الطعن على الشريعة ، والرد لما جاءت به ، وتقليب السنن بدعا ، والبدع سنناً . والأخذ على أيدى هؤلاء حتى يدعوا ماليس من شأنهم ، ويقلعوا عن غوايتهم ، ويقصروا عن ضلالتهم ، واجب على كل

(٨١) المقصود بـ(التخلى) : الدخول إلى الخلاء ، أى ما يسمى فى عصرنا بـ«دورة المياه» أو «الحمام» .

مسلم ، وإذا لم تتناول أدلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مثل هذا لم تتناول غيره .

ومن هذا الجنس الذى يفعله أهل التعصب : فرارهم عن علماء الإنصاف ، وطعنهم على من اتصل بهم ، أو أخذ عنهم ، وتحذيرهم للعامة ، وللطلبة عن مجالسة من كان كذلك ، وإخبارهم لهم بأن ذلك العالم سيضلهم ويخرجهم عما هم فيه من المذهب الذى هم عليه .

ثم يذكرون عند هذا التحذير والإنذار مطاعن يطعنون بها على ذلك العالم ، لمجرد سماعها يثور غضب كل مسلم ، ويلتهب طبع من يسمع ذلك كائناً من كان ، فيقولون مثلًا لذلك العامى أو الطالب : هذا العالم الذى تتصل به يبغض علىّ بن أبى طالب ، ويبغض أهل البيت ، أو نحو هذه العبارات الفظيعة ، فعند سماع ذلك تقوم قيامة هذا المسكين ، وليس بملوم ، فإنه جاهل جاء إليه من له ثياب أهل العلم وسمتهم وشكلهم ، فقال له : إن ذلك العالم يعتقد كذا ، أو يقول كذا ، فصدقه . فالذنب محمول على ذلك القائل ، ولا يكون إلّا من أهل تلك الطبقة التى هى منشأ الشر ومنبع الفتنة .

وقد اشتهر على ألسن النّاس فى صنعاء وما يتصل بها أن العلماء المجتهدين ، ومن يأخذ عنهم ، ويتصل بهم فى هذه العصور ، يقال لهم : سنيّة ، وهذا هو اللقب الذى يتنافس فيه المتنافسون ، فإن نسبة الرجل إلى السنة تنادى أبلغ نداء ، وتشهد أكمل شهادة ، بأنه متلبس بها ، ولكنه لما صار فى اصطلاح هؤلاء المتعصبة يطلق على من يعادى عليّاً ويوالى معاوية ، افتراء منهم على أهل العلم ، واجتراء على المسلمين ، استصعب ذلك من استصعبه عند إطلاقه عليه فى ألسن هؤلاء الذين هم بالدواب أشبه .

ولم أجد أهل ملة من الملل ، ولا فرقة من الفرق الإسلامية ، أشد بهتاً ، وأعظم كذباً ، وأكثر افتراء من الرافضة ؛ فإنهم لا يبالون بما يقولون من الزور كائناً ما كان ، ومن كان مشاركاً لهم فى نوع من أنواع الرفض ، وإن قلّ ، كان فيه مشابهة لهم بقدر ما يشاركهم فيه .

فهذا الذى نجده فى ديارنا هذه يختلف باختلاف المشاركة المذكورة . فمن تلاعب به الشيطان ، ولم يزل ينقله من درجة إلى درجة حتى وصل به إلى الرفض البحت ، كما تشاهده فى جماعة ، فلا مطمع فى كفّه عن الطعن والثلب لخير القرون فضلًا عن أهل عصره ، وليس يفلح من كان هكذا ، ولا يرجع إلى حق ، ولا ينزع عن باطل ، فإن تظاهر بالإنصاف والإقلاع عن البدعة والتلبس بالسنّة ، فالغالب أن ذلك يكون لجلب مصلحة له دنيوية ، أو دفع مفسدة يخشى ضررها ، ولا يصح إلّا فى أندر الأحوال ، فالهداية بيد الله يهدى من يشاء .

وقد شاهدنا من خضوع هؤلاء لأطماع الدنيا ، وإن كانت حقيرة ، مالا يمكن التعبير عنه ؛ فإنه لو طلب منه بعض أهل الدنيا أن يخرج من مذهبه ، لكان سريع الإجابة ، قريب الانفعال ، حتى ينال ذلك الغرض الدنيوى ، وهو لا محالة راجع إلى ما كان فيه .

ومن كان دون هذا ، فهو أقل ضرراً منه للإسلام وأهله ولنفسه ، وأقرب إلى الإنصاف . ثم من كان أقل تلبساً بهذه البدعة ، كان أقل شراً ، وأخفّ ضراً . وهو يرجع عنها إذا طلب العلم ، ومارس فنونه ، وعكف على علم الحديث . فإن لم يكن متأهلًا لطلب العلوم ، فليلزم أهله المتصفين بالإنصاف ، العارفين بالحق ، المهتدين بهدى الدليل .

وقد شاهدنا كثيراً ممن كان كذلك يقلع عنه ، وتنحّل من عُقَد ما قد أصابه عقدة بعد عقدة ، حتى تصفو وتذهب ما تكدرت به فطرته ، ويدخل إلى الحق من أبوابه ، بحسب استعداده ، وبقدر فهمه .

★ صعوبة الرجوع إلى الحق الذى قال بخلافه :

ومن آفات التعصب الماحقة لبركة العلم : أن يكون طالب العلم قد قال بقول فى مسألة ، كما يصدر ممن يفتى ، أو يصنف ، أو يناظر غيره ، ويشتهر ذلك القول عنه ، فإنه قد يصعب عليه الرجوع عنه إلى ما يخالفه ، وإن علم أنه

الحق ، وتبين له فساد ماقاله .

ولا سبب لهذا الاستصعاب إلّا تأثير الدنيا على الدين ؛ فإنه قد يسوّل له الشيطان أو النفس الأمّارة أن ذلك ينقصه ، ويحط من رتبته ، ويخدش فى تحقيقه ، ويغض من رئاسته .

وهذا تخيل مختل ، وتسويل باطل ؛ فإن الرجوع إلى الحق ، يوجب له من الجلالة والنبالة وحسن الثناء مالا يكون فى تصميمه على الباطل ، بل ليس فى التصميم على الباطل إلا محض النقص له والازراء عليه والاستصغار لشأنه ؛ فإن منهج الحق واضح المنار يفهمه أهل العلم ، ويعرفون براهينه ، ولا سيما عند المناظرة فإذا زاغ عنه زائغ تعصباً لقول قد قاله أو رأى رآه فإنه لا محالة يكون عند من يطلع على ذلك من أهل العلم أحد رجلين ، إما متعصب مجادل مكابر إن كان له من الفهم والعلم مايدرك به الحق ويتميز به الصواب ، أو جاهل فاسد الفهم باطل التصوّر إن لم يكن له من العلم مايتوصل به إلى معرفة بطلان ماصممّ عليه وجادل عنه . وكلا هذين المطعنين فيه غاية الشين .

وكثيراً ماتجد الرجلين المنصفين من أهل العلم ، قد تباريا فى مسألة ، وتعارضا فى بحث ، فبحث كل واحد منهما عن أدلة ماذهب إليه ، فجاءا بالمتردية والنطيحة على علم منه بأن الحق فى الجانب الاخر ، وأن ماجاء به لا يسمن ولا يغنى من جوع .

وهذا نوع من التعصب دقيق جداً ، يقع فيه كثير من أهل الإنصاف ، ولا سيما إذا كان بمحضر من الناس ، وأنه لا يرجع المبطل إلى الحق إلّا فى أندر الأحوال ، وغالب وقوع هذا فى مجالس الدرس ومجامع أهل العلم .

*أن يكون المنافس المتكلم بالحق صغير السن أو الشأن :

ومن الآفات المانعة عن الرجوع إلى الحق : أن يكون المتكلم بالحق حدث السنّ بالنسبة إلى من يناظره ، أو قليل العلم أو الشهرة فى الناس ، والآخر بعكس ذلك ؛ فإنه قد تحمله حمية الجاهلية ، والعصبية الشيطانية ، على التمسك بالباطل أنفةً منه عن الرجوع إلى قول من هو أصغر منه سناً ، أو أقل منه علماً ، أو أخفى شهرة ؛ ظنّاً منه أن فى ذلك عليه ما يحط منه ، وينقص ما هو فيه .

وهذا الظن فاسد ؛ فإن الحط والنقص إنما هو فى التصميم على الباطل ، والعلوّ والشرف فى الرجوع إلى الحق بيد من كان وعلى أى وجه حصل .

*من آفات الشيخ والتلميذ :

ومن الآفات ما يقع تارة من الشيوخ ، وأخرى من تلامذتهم ، فإن الشيخ قد يريد التظهر لمن يأخذ عنه ، بأنه بمحل من التحقيق ، وبمكان من الإتقان ؛ فيحمله ذلك على دفع الحق إذا سبق فهمه إلى الباطل ؛ لئلّا يظن من يأخذ عنه أنه يخطىء ويغلط .

وهو لو عرف ما عند ذلك الذى يأخذ عنه العلم أن رجوعه عن الخطأ إلى الصواب ، أعظم فى عينه ، وأجل عنده ، وزاده ذلك رغبة فيه ومحبة له ، وإذا استمر على الغلط وصمم على الخطأ كان عنده دون منزلة الرجوع إلى الحق بمنازل .

وهكذا التلميذ قد يخطر بباله التزين لشيخه ، والتجمل عنده ، بأنه قوى الفهم ، سريعُ الإدراك ، صادق التصور ؛ فيحمله ذلك على الوقوف على ما قد سبق إلى ذهنه من الخطأ ، والتشبث بما دفع له من الغلط .

وبالجملة ، فالأسباب المانعة من الإنصاف لا تخفى على الفطن ، وفى بعضها دقة تحتاج إلى تيقظ وتدبر ، وتتفق فى كثير من الحالات لأهل العلم والفهم والإنصاف .

*علاج التعصب :

فالمعيار الذى لا يزيغ : أن يكون طالب العلم مع الدليل فى جميع موارده ومصادره ، لا يثنيه عنه شيء ، ولا يحول بينه وبينه حائل .

فإذا وجد فى نفسه نزوعاً إلى ما غير هو المدلول عليه بالدليل الصحيح ، وأدرك منها رغبة للمخالفة ، وتأثيراً لغير ما هو الحق ؛ فليعلم عند ذلك أنه قد أصيب بأحد الأسباب السابقة من حيث لا يشعر ، ووقع فى محنة . فإن عرفها بعد التدبّر ، فليجتنبها كما يجتنب العليل ما ورد عليه من الأمور التى كانت سبباً لوقوعه فى المرض . وإن خفيت عليه العلة التى حالت بينه وبين اتباع الحق ، فليسأل مَنْ له ممارسة للعلم ، ومعرفة بأحوال أهله ، كما يسأل المريض الطبيب إذا لم يعرف علته ، ولا اهتدى إليها . فقد يكون دفع العلة بمجرّد تجنب الأسباب الموقعة فيها كالحمية التى يرشد إليها كثير من الأطباء إذا لم تكن العلة قد استحكمت . وقد يكون دفعها باستعمال الأدوية التى تقاوم المادة الكائنة فى البدن وتدافعها حتى تغلبها .

وهكذا علة التعصب ، فإنه إذا عرف سببه أمكن الخروج منه باجتنابه . وإن لم يعرف ، سأل أهل العلم المنصفين عن دواء ما أصابه من التعصب ، فإنه سيجد عندهم من الأدوية ما هو أسرع كشفاً ، وأقرب نفعاً ، وأنجع برّاً ، مما يجده العليل عند الأطباء .

٭العواقب الوخيمة للتعصب والبعد عن الحق :

واعلم أنه كما يتسبب عن التعصب محق بركة العلم ، وذهاب رونقه ، وزوال مايترتب عليه من الثواب ، كذلك يترتب عليه من الفتن المفضية إلى سفك الدماء ، وهتك الحرم ، وتمزيق الأعراض ، واستحلال ما هو فى عصمة الشرع ، مالا يخفى على عاقل ، وقد لا يخلو عصر من العصور ، ولا قطر من الأقطار ، من وقوع ذلك ، لا سيما إذا اجتمع فى المدينة والقرية مذهبان أو أكثر . وقد يقع من ذلك ما يفضى إلى إحراق الديار ، وقتل النساء ، والصبيان كمثل ما كان يقع بين السنيّة والشيعة ببغداد ؛ فإنهم كانوا يفعلون فى كل عام فتناً ، ويهرقون الدماء ، ويستحلون من بعضهم البعض مالا يستحلونه من أهل الذمة ، بل قد لا يستحلونه من الكفار الذين لا ذمة لهم ولا عهد .

وهذا يعرفه كل من له خبرة بأحوال الناس . ومن أراد الاطلاع على تفاصيل ما كان يقع بينهم فى بغداد بخصوصها ، فلينظر فى مثل تاريخ ابن جرير[٨٢]، وفى تواريخ الذهبى[٨٣]، وتاريخ ابن كثير[٨٤] ونحو ذلك؛ فإنه يسجل فى حوادث كل سنة شيئاً من ذلك فى الغالب .

---

(٨٢) محمد بن جرير بن يزيد الطبرى : (٢٢٤ ـ ٣١٠ هـ = ٨٣٩ ـ ٩٢٣ م) ، مؤرخ مفسر . ولد فى آمل طبرستان ، واستوطن بغداد وتوفى بها . وعرض عليه القضاء فامتنع، والمظالم فأبى . من مؤلفاته «أخبار الرسل والملوك» وهو المعروف بتاريخ الطبرى ، و «جامع البيان فى تفسير القرآن» . ميزان الاعتدال ٣ : ٣٥ ، وغاية النهاية ٢ : ١٠٦ ، وطبقات السبكى ٢ : ١٣٥ ـ ١٤٠ ، وتاريخ بغداد ٢ : ١٦٢ .

(٨٣) محمد بن أحمد بن عثمان ، الذهبى : (٦٧٣ ـ ٧٤٨ هـ = ١٢٧٤ ـ ١٣٤٨ م) ، حافظ ، مؤرخ ، علامة محقق ، تركمانى الأصل . مولده ووفاته بدمشق . وتصانيفه تقارب المائة ، منها «دول الإسلام» ، و «تاريخ الإسلام الكبير» ، و «تذكرة الحفاظ» ، و «تجريد أسماء الصحابة» . النجوم الزاهرة ١٠ : ١٨٢ ، وطبقات السبكى ٥ : ٢١٦ ، والإعلان بالتوبيخ ٨٤ .

(٨٤) إسماعيل بن عمر بن كثير ، أبو الفداء : (٧٠١ ـ ٧٧٤ = ١٣٠٢ ـ ١٣٧٣ م) ، حافظ ، مؤرخ ، مفسر . ولد ومات بالشام . من تصانيفه «البداية والنهاية» فى التاريخ سار فيه على نسق الكامل لابن الأثير . شذرات الذهب ٦ : ٢٣١ ، والبدر الطالع ١ : ١٥٣ ، والدرر الكامنة ١ : ٣٧٣ .

وقد تنتهى بهم التعصبات والمناقضات إلى ماهو من أنواع الجنون والحماقات القبيحة ، كما وقع فى كتب التواريخ : أن أهل السنّة ببغداد أركبوا امرأة على جمل ، وأركبوا رجلين آخرين ، وسمّوا المرأة عائشة والرجلين طلحة والزبير ، ومشوا معهم ، وتحزبوا ، وتجمعوا ؛ فسمع بذلك الشيعة من أهل الكرخ ، فأقبلوا مشرعين بالسلاح والكراع ، وقاتلوا أهل السنّة قتالًا شديداً ، وضربوا المرأة المسماة عائشة والمسمى طلحة والزبير ضرباً مبرحاً .

ومن غرائب مناقضاتهم : أن الشيعة لما اجتمعوا لزيارة الحسين بن علىّ رضى الله عنه فى عاشوراء ، اجتمعت السنيّة وخرجوا يزورون مصعب بن الزبير وجعلوا ذلك عادة لهم فى عاشوراء . فانظر ما فى هذه المناقضة من الجهل ، فإن مصعباً ليس بمستحق لذلك ؛ لأنه لم يكن معروفاً بعلم ولا فضل ، بل أمير كبير ولى العراق من أخيه عبد الله بن الزبير ، وسفك من الدماء مالا يأتى عليه الحصر . وبقى كذلك حتى وقع الحرب بينه وبين عبد الملك بن مروان[85] ، فخذله أهل العراق فقتل . فانظر أى فضيلة لمصعب يستحق بها أن يكون للسنيّة كالحسين للشيعة .

وبالجملة ، فقد حدثت بسبب الاختلاف بين الطائفتين فواقر عظيمة لو لم يكن منها إلّا دخول التتر بغداد وقتلهم الخليفة والمسلمين . فإن سبب ذلك الوزير الرافضى ابن العلقمى[86] ، كان بينه وبين الأمير مجاهد الدين الدويدار[87] من العداوة أمر عظيم ، وكان مجاهد الدين يتعصب على الشيعة

---

(٨٥) عبد الملك بن مروان : (٢٦ ـ ٨٦ هـ = ٦٤٦ ـ ٧٠٥ م) ، من كبار خلفاء الأمويين ، انتقلت إليه الخلافة بموت أبيه سنة ٦٥ هـ ، فضبط أمورها وظهر بمظهر القوة ، فكان جباراً على معانديه قوى الهيبة . واجتمعت عليه كلمة المسلمين بعد مقتل مصعب وعبد الله ابنى الزبير فى حربهما مع الحجاج الثقفى . تاريخ بغداد ١٠ : ٣٨٨ ، والطبرى ٨ : ٥٦ ، والمحبر ٣٧٧ .

(٨٦) محمد بن أحمد ، ابن العلقمى : (٥٩٣ ـ ٦٥٦ هـ = ١١٩٧ ـ ١٢٥٨ م) ، وفى رواية أكثر المؤرخين أنه صاحب الجريمة النكراء فى ممالأه «هولاكو» على غزو بغداد . ونفى عنه بعض ثقات المؤرخين أنه فعل ذلك . وقد كان حازماً خبيراً بسياسة الملك ، كاتباً فصيح الإنشاء . الوافى بالوفيات ١ : ١٨٥ ، ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ٢٤١ ، ومرآة الجنان ٤ : ١٤٧ .

(٨٧) قايماز بن عبد الله الزينى، الملقب مجاهد الدين . (... ـ ٥٩٥ هـ = ... ١١٩٩ م)، أمير من=

تعصباً شديداً حتى أفضى ذلك إلى نهب أهل الكرخ ، وإحراق بعض مساكنهم ؛ فغضب الوزير غضباً شديداً ، ولم يستطع المكافأة إذ ذاك ، فحمله ذلك على مكاتبة التتر وترغيبهم فى بغداد وتسهيل الأمر عليهم ، فأقبل هولاكو ملك التتر ، ومعه جيش من التتر عظيم ، فوصلوا بغداد ، وأحاطوا بها من جميع جوانبها ، ومازال الوزير يخدع الخليفة ، ويفرّق جيوشه ، ويحول بينه وبين الحزم ، حتى أعيته الحيلة ، وتمكن العدو ، فخرج عن ذلك الوزير إلى التتر ، وقد تقدم بينهم من المكاتبة مافيه حرمة وذمة ، وتكفل لهم بإقاع الخليفة وأعيان المحل فى أيديهم يقتلونهم كيف شاؤوا ، ثم دخولهم بغداد بعد ذلك . ثم رجع إلى الخليفة ، وأخبره أن سلطان التتر لا يريد استئصاله ولا نزع يده من الخلافة ، وليس له رغبة إلى ذلك ، بل مراده أن يكون متصرفاً عن أمر الخليفة ، كما كان يتصرف عن أمرهم الملوك الحمدانية والبويهية والسلجوقية ، وأنه يريد أن يتزوج ابن الخليفة بابنته . ومازال يخدع الخليفة ، ويفتل منه فى الذروة والغارب حتى أسعده ، ومال إلى مقاله ، وقال له يخرج هو وأعيان البلد لعقد النكاح ؛ فخرج الخليفة وأخوته وأولاده وأعمامه وأمراؤه وأعيان بغداد من كل طبقة من الطبقات التى تتصل بالخليفة . وكان الذى عين الخارجين وسمّاهم هو الوزير المذكور ، فلم يدع أحداً من أركان الدولة يخشى منه ، ولا سيما من كان متعصباً على الشيعة كالأمير مجاهد الدين الدو يدار ، فإنه جعلهم فى أول الخارجين لشهود العقد . وقد كان أبرم هو وسلطان التتر أنه سيجعله وزيراً كما كان مع الخليفة العباسى . فلما خرج أولئك الأعيان والخليفة قتلهم التتر جميعاً ، ثم دخلوا بغداد فقتلوا من بها من الطائفتين لم يبقوا على شيعى ولا سنى . وكان جملة القتلى كما نقله كثير من ثقات المؤرخين ثمانية عشر لكّاً(٨٨) عن ألف ألف قتيل وثمانى مائة ألف قتيل .

= المماليك . أصله من سجستان ،. أخذ منها صغيراً واسترق . كان يحب الأدب وكثيراً ما يتمثل بأبيات من الشعر . فوضت إليه أمور أرسل سنة ٥٥٩ هـ فأحسن السيرة وبنى مدرسة وخانقاه . وانتقل إلى الموصل سنة ٥٧١ هـ وفوض إليه صاحبها الحكم فيها وفى سائر بلاده . ابن خلكان ١ : ٤٢٦ ، الأعلام ٥ : ١٨٨ .

(٨٨) (اللُّكّ) : عدد عند أهل إيران والهند واليمن يساوى مائة ألف . وعندَ (المولّدين) : عشرة ملايين .

فانظر هذه الفاقرة العظيمة التى تسببت عن تعصب الوزير الرافضى لأصحابه من الرافضة ـــ لا رحمه الله ـــ وقد كان يظهر التأسف والتندمّ ويقول إنه ماكان يظن أن الأمر يقع هكذا ، وأنه كان يظن سلامة الشيعة ، وعدم وصول الأمر إليهم ، حسبما قدمه لنفسه ولهم ـــ ولم يصل إلى ماشرطه لنفسه من الوزارة ولا غيرها ، وغاية ما ناله السلامة من القتل . ومات بعد أن اقترف هذه العظيمة بأيام يسيرة دون سنة . وكان موته كمداً على ما جناه على نفسه خصوصاً ، وعلى إخوانه من الرافضة وسائر المسلمين . وكان فى بعض الأوقات يظهر التجلدّ ويقول لا يبالى بمن قُتل ولا بمن أصيب بعد أن شفى نفسه من الدويدار .

فانظر هذه الجاهلية التى تظاهر بها هذا الرافضى ، وانظر ماصنع بالمسلمين ، وماجناه الخليفة على نفسه من استخلاصه للوزارة ، وأمانته على الأسرار ، والركون إليه فى تدبير الدولة .

وهكذا من ألقى مقاليد أمره إلى رافضى ، وإن كان حقيراً ؛ فإنه لا أمانة لرافضى قط على من يخالفه فى مذهبه ويدين بغير الرفض ، بل يستحل ماله ودمه عند أدنا فرصة تلوح له ؛ لأنه عنده مباح الدم والمال وكل مايظهره من المودة فهو تقية يذهب أثره بمجرد إمكان الفرصة .

وقد جرّبنا هذا تجريباً كثيراً ، فلم نجد رافضياً يخلص المودة لغير رافضى ، وإن آثره بجميع مايملكه ، وكان له بمنزلة الخول(٨٩) ، وتودّد إليه بكل ممكن . ولم نجد فى مذهب من المذاهب المبتدعة ولا غيرها مانجده عند هؤلاء من العداوة لمن خالفهم . ثم لم نجد عند أحدٍ مانجد عندهم من التجرىّء على شتم الأعراض المحترمة ، فإنه يلعن أقبح اللعن ، ويسبّ أفظع السب ، كل من تجرى بينه وبينه أدنى خصومة ، وأحقر جدال ، وأقل اختلاف . ولعل سبب هذا والله أعلم أنهم لما تجرّؤا على سب السلف الصالح هان عليهم سب من

(٨٩) (الخَوَل) : عطية الله من النعم والعبيد والإماء وغيرهم من الأتباع والحشم (للواحد والجمع والذكر والأنثى) .

عداهم . ولا جرم فكل شديد ذنب يهون ما دونه ، وقد يقع بعض شياطينهم فى علىّ كرم الله وجهه حردًا[٩٠] عليه وغضباً له ؛ حيث ترك حقه ، بل قد يبلغ بعض ملاعينهم إلى ثلب العرض الشريف النبوى صانه الله قائلا : إنه كان عليه الإيضاح للناس ، وكشف أمر الخلافة ، ومن الأقدم فيها والأحق بها .

وأما تسرع هذه الطائفة إلى الكذب ، وإقدامهم عليه ، والتهاون بأمره ، فقد بلغ من سلفهم وخلفهم إلى حد الكذب على الله وعلى رسوله وعلى كتابه وعلى صالحىْ أمته . ووقع منهم فى ذلك ما يقشعرّ له الجلد . وناهيك بقوم بلغ الخذلان بغلّاتهم إلى إنكار بعض كتاب الله ، وتحريف البعض الآخر ، وإنكار سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وجاوز ذلك جماعة من زنادقتهم إلى اعتقاد الألوهية فى ملوكهم ، بل فى شيوخ بلدانهم .

ولا غرو فأصل هذا المظهر الرافضى مظهر إلحاد وزندقة ، جعله من أراد كيداً للإسلام ستراً له ، فأظهر التشيع والمحبة لآل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استجذاباً لقلوب الناس ؛ لأن هذا أمر يرغب فيه كل مسلم ، وقصداً للتغرير عليهم ، ثم أظهر للناس أنه لا يتم القيام بحق القرابة إلّا بترك حق الصحابة ، ثم جاوز ذلك إلى إخراجهم ـــ صانهم الله ـــ عن سبيل المؤمنين . ومعظم ما يقصده بهذا هو الطعن على الشريعة وإبطالها ؛ لأن الصحابة رضى الله تعالى عنهم هم الذين رووا للمسلمين علم الشريعة من الكتاب والسنّة . فإذا تمّ لهذا الزنديق باطناً الرافضى ظاهراً ، القدح فى الصحابة ، وتكفيرهم ، والحكم عليهم بالردّة ، بطلت الشريعة بأسرها ، لأن هؤلاء هم حملتها الراوون لها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فهذا هو العلة الغائية[٩١] لهم ، وجميع ما يتظهرون به من التشيّع كذب وزور ، ومن لم يفهم هذا فهو حقيق بأن يتهم نفسه ويلوم تقصيره . ولهذا

---

(٩٠) (حَرِدَ) عليه ـ حَرَدًا : غضب . و ـ اغتاظ فتحرَّش بالذى غاظه وهمَّ به .

(٩١) (العلة الغائية) : ما يوجد الشىء لأجله .

تجدهم إذا تمكنوا ، وصارت لهم دولة ، يتظاهرون بهذا ، ويدعون الناس إليه . كما وقع من القرامطة والباطنية والإسماعيلية[٩٢] ومن نحا نحوهم ؛ فانهم لما تمكنوا أظهروا صريح الكفر والزندقة ، وفعلوا تلك الأفاعيل من الاستهتار بمحارم الله وماعظمه ، كنقلهم للحجر الأسود من الحرم إلى هجر ، وكقول رئيس القرامطة اللعين لما سفك دماء الحجاج بالبيت الحرام ، وفعل به من المنكرات ما هو معروف :

ولو كان هذا البيت لله ربنا لصبّ علينا النار من فوقنا صبّا
لأنّا حججنا حجّةً جاهليّةً محلّلةً لم يبق شرقاً ولا غرباً

ثم قال لمن بقى فى الحرم سالماً من القتل : يا حمير أنتم تقولون : ﴿**ومن دخله كان آمنا**﴾ .

وقد كان أول هذه النحلة القرمطية التظهر بمحبة أهل البيت ، والتوجع لهم ، والعداوة لأعدائهم ، ثم انتهى أمرهم إلى مثل هذا .

وهكذا الباطنية ، فإن مذهبهم الذى يتظهرون به ، ويبدونه للناس ، هو التشيع . ولا يزال شياطينهم ينقلون من دخل معهم فيه من مرتبة إلى مرتبة حتى يقفوه على باب الكفر وصراح الزندقة . وإذا تمكن بعض طواغيتهم فعل كما فعل على بن الفضل[٩٣] الخارج باليمن من دعاء الناس إلى صريح الكفر ودعوى النبوة ، ثم الترقى إلى دعوى الألوهية . وكما فعله الحاكم العبيدى[٩٤] بمصر من

(٩٢) القرامطة : فرقة من فرق الباطنية ، والباطنية فرقة من فرق الإسلام ترى أن لكل باطن ظاهراً أو لكل تنزيل تأويلًا إلخ . وفرقة الإسماعيلية التى سبق الإشارة إليها تلقب بالباطنية . ولمعرفة المزيد من التفاصيل عن هذه الفرق يُراجع كتاب «أسرار الباطنية قديماً وحديثاً» للمحقق .

(٩٣) على بن الفضل بن أحمد القرمطى : أحد المتغلبين على اليمن ، أظهر الدعوة للمهدى المنتظر ٢٩٠ هـ ، فتبعه كثير من القبائل ، وملك ملكاً ضخماً ، وادعى النبوة وأباح المحرمات . ومات مسموماً عام ٣٠٣ هـ = ٩١٥ م . وكانت مدة حكمه نحو ١٣ سنة . الجداول المرضية ١٧١ ، وبلوغ المرام ٢٣ ، والحور العين ١٩٩ .

(٩٤) منصور (الحاكم بأمر الله) ابن نزار : (٣٧٥ ـ ٤١١ هـ = ٩٨٥ ـ ١٠٢٥ م) ، من خلفاء الدولة الفاطمية بمصر ، متأله ، غريب الأطوار . وأعلنت الدعوة إلى تأليهه سنة ٤٠٧ هـ فتحول لقبه إلى =

أمر الناس بالسجود له ، والقيام عند ذكره على صفة معروفة ، فكان إذا ذكره الخطيب يوم الجمعة على المنبر قام جميع من بالمسجد ، ثم يخرّون ساجدين ، ثم يقوم بقيامهم من يتصل بالجامع من أهل الأسواق ، ثم يسرى ذلك إلى قيام أهل مصر . وما كان يبديه من الأفعال المتناقضة ، والحماقات الباردة ، مقصوده من ذلك تجريب أحوال الناس ، واختبار طاعتهم له فى الأمور الباطلة ، وفى مخالفة الشريعة ؛ حتى ينقلهم إلى ما يريده . وكم نعدد لك من هذا .

والجملة : فإذا رأيت رجلًا قد انتهى به الرفض إلى ذم السلف الصالح ، والوقيعة فيهم ، وإن كان ينتمى إلى غير مذهب الإمامية ، فلا تشك فى أنه مثلهم فيما قدمنا لك .

وجرب هذا إن كنت ممن يفهم ، فقد جرّبناه ، وجربه من قبلنا ، فلم يجدوا رجلًا رافضياً يتنزه عن شيء من محرّمات الدين كائناً ما كان . ولا تغترّ بالظواهر ، فإن الرجل قد يترك المعصية فى الملأ ، ويكون أعفّ الناس عنها فى الظاهر ، وهو إذا أمكنته فرصة انتهزها انتهاز من لا يخاف ناراً ولا يرجو جنّة .

وقد رأيت من كان منهم مؤذناً ، ملازماً للجماعات ، فانكشف سارقاً . وآخر كان يؤم الناس فى بعض مساجد صنعاء ، وله سمت[٩٥] حسن ، وهدى عجيب ، وملازمة للطاعة . وكنت أكثر التعجب منه: كيف يكون مثله رافضياً ؟ ثم سمعت بعد ذلك عنه بأمور تقشعرّ لها الجلود ، وترجف منها القلوب .

وكان لى صديق يكثر المجالسة لى ، والوصول إلىّ ، وفيه رفض يسير ، وهو متنزّه عن كل محظور . ثم مازال ذلك يزيد به الأسباب حتى صار يصنّف فى مثالب جماعة من الصحابة . ثم صار يمزّق أعراض جماعة من أحياء أهل العلم

= (الحاكم بأمره) ، وفتح سجل تكتب فيه أسماء المؤمنين به ، فاكتتب من أهل القاهرة سبعة عشر ألفاً كلهم يخشون بطشه . النجوم الزاهرة ٤ : ١٧٦ ـ ٢٤٦ ، وخطط المقريزى ٢ : ٢٨٥ ـ ٢٨٩ ؛ وبلغة الظرفاء ٧١ .

(٩٥) (السَّمْتُ) : الهيئة .

والأموات ، وينسبهم إلى النصب بمجرّد كونهم لا يوافقونه على رفضه . ثم صار يتصل به جماعة ، ويأخذون عنه من الرفض مالا يتظاهر بمثله أهل هذه الديار . وكنت أعرف منه فى مبادىء أمره صلابة وعفّة ، فقلت : إذا كان ولابدّ من رافضى عفيف ، فهذا . ثم سمعت عنه بفواقر ، نسأل الله الستر والسلامة .

وأما وثوب هذه الطائفة على أموال اليتامى ، والمستضعفين ، ومن يقدرون على ظلمه كائناً من كان ، فلا يحتاج إلى برهان ، بل يكفى مدّعيه إحالة منكره على الاستقرار والتتبع ، فإنه سيظفر عند ذلك بصحة ماذكرناه .

ولقد جربت أهل عصرى فى هذه المادة تجريباً عظيماً لتعلقى بما تتعلق به الأطماع ، واختبارى بالناس على اختلاف طبقاتهم . ولا شك أن الدنيا مؤثرة ، وأن الوثوب على مصالحها وتقديمها وانتهاز الفرص فيما يتعلق بها غير مختص بهؤلاء ، بل هو عام لكل الفرق ، والزاهد فيها المؤثر للدين عليها هو الشاذ النادر ، لكن هؤلاء لهم مزيد تكالب ، وعظيم تهافت ، وشدة تهالك ، مع عدم وقوف عند حدود الشرع ، واقتصار على ما فيها من تحليل وتحريم .

ومن أقرب حوادث الرفض فى ديارنا هذه : أنه كان جماعة من المتظهرين بالعلم ، يملون على الناس فى جامع صنعاء فى شهر رمضان سنة ست عشرة ومائة بعد الألف فى كتب فضائل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكانوا نحو ثلاثة أو أربعة ، كل واحد منهم قد اجتمع عليه جماعة كثيرة من العامة . وكان أحدهم يملى على كرسىّ مرتفع ، وتسرج حوله الشمع الكثير ، فيجتمع من الناس عدد كثير جدّاً لقصد الفرجة كما يتفق فى مثل هذا . وكانوا يشوبون المناقب بذكر مثالب بعض الصحابة ، ويحطون من بعضهم ، ويصرحون بسب البعض ، ويتوجعون من البعض .

وكان مايصدر من هؤلاء من هذه الأمور إنما هو مطابقة للوزير الرافضى الذى قدمت لك ذكره . ولا سيما صاحب الكرسى . وهذا الوزير لم يكن رفضه لوازع دينى ، كما يتفق لكثير من أهل الجهل المتعلقين بالرفض ، فهو أنذل من ذاك ، وأقل ، ولكنه يفعل ذلك مساعدة لجماعة من شياطين المتفقهة

المتعصبة يدخلون إليه ، فيقولون : إنه لم يبق من يحامى على هذا الأمر سواك ، وإنك ركن التشيع ، وملجأ أهله . ونحو هذه العبارات ، فيبالغ فى التظهر بهذه الخصلة ، ويحب نسبة ذلك إليه . فكان الرفض مكملًا لمثالبه ، متمماً لمعايبه ؛ لأنه فى كل باب من أبواب القبائح قريع دهره ، ونسيج وحده .

فلما تكاثر ما يصدر من أولئك المشتغلين بما لا يعنيهم من ثلب السلف ، مع ما ينضم إلى ذلك من إدخال الضغائن فى قلوب العامة ، وإيمانهم أن الناس قد تركوا مذهب أهل البيت ، وفعلوا ، وفعلوا . وكل ذلك كذب ؛ فإن الناس هم فى هذه الديار زيدية ، وكثير منهم يجاوز ذلك فيصير رافضياً جلداً . ولم يكن فى هذه الديار على خلاف ذلك إلّا الشاذ النادر ، وهم أكابر العلماء ، ومن يقتدى بهم ؛ فإنهم يعملون بمقتضى الدليل ، ولا ينتمون إلى مذهب ، ولا يتعصبون لأحد . فهؤلاء هم الذين يقصدهم أولئك الرافضة بكل فاقرة ، ويرمونهم بالحجر والمدر ، ويسمونهم بميسم النصب .

فلما تفاقم شر أولئك المدرسين ، وصار الجامع ملعباً لا متعبّدا ، واشتغل بأصواتهم المصلون عن صلاتهم ، والذاكرون عن ذكرهم ، رجح إمام العصر[٩٦] أعزّ الله به الدين ـــ منع صاحب الكرسى من الإملاء فى الجامع ، وأمره بالعود إلى المسجد الذى كان يملى فيه .

فحضر أولئك المستمعون على عادتهم ، وكان الإملاء قبل صلاة العشاء . فلما لم يحضر شيخهم ، ذهب بعضهم ليجىء به من بيته ، فأخبرهم أن الإمام قد منعه ، وأمره بالعود إلى حيث كان .

فلم يعذروه ، ولا سمعوا منه ، ورجعوا إلى الجامع ، ثم ثاروا ثورة شيطانية ، وقاموا قومة طاغوتية ، فمنعوا من الصلاة فى الجامع . ومازال ينضم إليهم كل رافضى ، ومن له رغبة فى إثارة الفتنة ، حتى صاروا جمعاً كثيراً ، ثم خرجوا فقصدوا بيت المؤذن الذى أظهر عليهم الرأى الإمامى فرجموه ، حتى كادوا

---

(٩٦) يقصد : على (المنصور بالله) بن العباس ، سبقت له ترجمة .

يهدمونه ، وفيه نساء وأطفال قد صاروا فى أمر مريع .

هذا ، وليس لذلك المؤذن المسكين سعى ، ولا له قدرة على شيء ، ولكنه أرسل بالرأى الإمامى والى الأوقاف إليه . ووالى الوقف أيضاً ليس له سعى فى ذلك ، ولكنه أرسله إليه بعض من يتصل بالمقام الإمامى .

ثم لما فرغوا من رجم بيت المؤذن ، ذهبوا ولهم صراخ عظيم وأصوات شديدة إلى بيت والى الأوقاف ، وهو رجل من أهل العلم من آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فرجموا بيته رجماً شديداً ، حتى غشى على بعض من فيه من الشرائف . فقال لهم قائل : إن هؤلاء الشرائف المرجومات هن بنات نبيكم وبنات على بن إلى طالب ، ولم يكنّ بنات معاوية ولا بنات عمرو بن العاص وغيرهما ممن تعادونهم ؛ فمالكم ولهن ؟ فلم يلتفتوا إلى ذلك ، واستمرّوا فى الرجم ، ثم دخلوا إلى بعض البيت ، ونهبوا بعض متاعه .

وبلغهم أن والى الأوقاف وولده بمسجد قريب من بيته، فحاصوا[٩٧] حيصة حُمُر الوحش ، وصرخوا صرخة الحُمُر الأهلية ، وذهبوا إلى ذلك المسجد عازمين على قتله ، فأغلق عليه بعض الناس مقصورة المسجد ، فسلم .

ثم ذهبوا بصراخهم وجلبتهم إلى بيت بعض أهل العلم من أهل البيت النبوى ، وكان يعظ الناس بالجامع ، ويتظهر ببعض من السنة ، فرجموا بيته رجماً شديداً ، وفيه شرائف وأطفال .

ثم ثاروا إلى بيت بعض وزراء الخليفة ، لا لذنب إلّا لكونه ينافسه ذلك الوزير الرافضى ، وكونه ينتسب إلى بعض بطون قريش ، فرجموه رجماً شديداً ، ثم كسروا بعض أبوابه ، ودخلوا وكادوا يتصلون بمن فيه ، لولا أنه حماهُ جماعة بالرمى بالبنادق وآخرون بالسلاح .

ويتصل ببيت هذا الوزير المرجوم بيت وزير آخر من أهل العلم ، فرجموه ، ورجمهم من فى بيت الوزير، حتى أصابوا جماعة منهم، فتركوه. وسبب رجمهم

---

(٩٧) (حاص) : عدل وحاد .

لبيت الوزير هذا أنه من جملة من يتظهّر بعلم السنّة . ثم لما كاد ينقضى الليل فارقوا ماهم فيه ، وقد أثاروا فتنة عظيمة ، ومحنة شديدة .

ولما كان النهار جمع الخليفة أعوانه ، وطلبنى ، واستشارنى ؛ فأشرت عليه بأن يحبس أولئك المدرسين الذين أثاروا الفتنة فى الجامع ، بسبب مايصدر منهم من نكاية القلوب ، وإثارة العوام . فحبسهم . ثم أشرت عليه بأنه يأمر بتتبع أولئك الذين رجموا البيوت ، وفعلوا تلك الأفاعيل ، ومن وجدوه حبسوه ، ويأمر بتتبع جماعة من شياطين الفقهاء المثيرين للفتنة . ففعل وحبسوا جميعاً . ولكن لم ينصح والى مدينة صنعاء لموافقته للوزير الرافضى فى الرفض ، ومهابته له ، ووقوفه عندما يختاره ويرتضيه .

وبعد أن اجتمع فى الحبس جماعة كثيرة من هؤلاء ، أرسل الإمام حفظه الله لجماعة من شياطينهم المباشرين للفتنة من الفقهاء ، فجىء بهم من الحبس إليه ، وضربهم بالعصى تحت داره ، وهو ينظر . ثم أرسل فى اليوم الآخر لجماعة من أهل السوق المباشرين للفتنة ، فصنع بهم ماصنع بأولئك . ثم جعل جماعة من شياطين الجميع فى سلاسل ، وأرسل بهم إلى جزائر البحر على هيئة منكرة ؛ فسكنت الفتنة سكوناً تاماً .

ولقد شهدت من التعصبات فى هذه الفتنة مابهرنى من الخاصة والعامة . أما الخاصة : فإنى رأيت من أهل بيت الخلافة من أولاد الإمام ، وغيرهم ، ومن الوزراء ، والأمراء ، والقضاه ، وأهل العلم ، من ذلك مايعجب منه . فإنى لما أشرت على الخليفة بما أشرت ، خرجت من المكان الذى هو مستقر فيه إلى حجرته ، وفيها أكابر أولاده ، وهم إذا ذاك أمراء الأجناد ، وعندهم جميع الوزراء ، وهم جميعاً فى أمر مريع ، فيهم من يعظم عليه حبس أولئك المدرسين ، ويراه حطّاً فى مرتبة الرفض ، ونقصاً من الرافضة . وقد فتل منهم ذلك الوزير الرافضى فى الذروة والغارب* ، وأوهمهم أنها ستثور فتنة من العامة والأجناد . ومازال بعض أولاد الخليفة يردّد علىّ ذلك ، ويرغبنى فى الرجوع

* مثل يقال للرجل لا يزال يخدع صاحبه حتى يظفر به . جمهرة الأمثال ٢ : ٩٨ .

عن الشور الذى أشرت به على الخليفة ، ويذكر ما قد ألقاه إليه الوزير الرافضى من خشية ثورة الأجناد والعامة . فمازلت أعرفه بالصواب ، وأذكر له أن هذه الفتنة لو لم تحسم يومنا هذا بحبس المثيرين لها ، لهلك غالب الناس فى الليلة الواصلة ، ونهبوا الأموال جهاراً ، وأنه سيصل الأمر إلى الخليفة وأولاده ، فضلًا عن غيرهم . وعرّفته أنه ماسيثور بسبب ذلك أجناد ولا غيرهم ، فإن هذا تسكين للفتنة لا إثارة لها .

ولقد حمدوا هذه المشورة بعد حين ، وعرفوا أنها صواب ، وأن بها كان سكون تلك الفتنة التى غلت مراجلها ، وكادت تعمّ جميع أهل صنعاء ، ثم تسرى بعد ذلك إلى سائر الديار اليمنية .

وأما العامة : فلا يتسع المقام لسرد ما شوهد منهم من الصولة ، والجولة ، والاشتغال بهذا الأمر . ولقد كنت أرى كثيراً من المنسوبين إلى العلم يبكون رحمةً لإخوانهم المثيرين للفتنة لما حلّ بهم من العقوبة .

ولقد تغيرت بهجة هذه المدينة العظيمة ، وتكدرت مشاربها العلمية ، وذهب رونق معارفها ، بما يصنعه جماعة المقصرين المغيّرين لفطرتهم السليمة بما حدث من علم الروافض ودسائسهم التى هى أضرّ على المقصرين من السم القتّال ، وأدوى على من لم تستحكم معرفته وترسخ فى العلوم قدمه من الداء العضال ، على كثرة من فيها من العلماء المنصفين ، والطلبة المتميزين ، الأذكياء الماهرين ؛ فإنه قلّ أن يوجد بمدينة من المدائن ما يوجد الآن فى صنعاء من رجوع أهل العلم بها إلى ما صح عن الشارع ، وعدم تعويلهم على الرأى ، وطرحهم للمذاهب ، عند قيام الدليل الناهض .

فإن هذه مزيّة وفضيلة ، لا تكاد تعرف فى سائر الأقطار إلّا فى الفرد الشاذ البالغ من العلم إلى منزلة عليّة ، مع مراجعته لفطرته ، وتفكره فى طروء ما طرأ من المغيرات ، وتدبره لما قدمنا ذكره من الأسباب الموجبة للتعصب الحائلة بين المتمذهبين وبين الإنصاف .

وهذا النادر الشاذ يبالغ فى الكتم ، ويستكثر من المجانبة لما يظنه الحق ، مخافة من وثوب المقلدة عليه، وهتكهم له؛ لأنهم لا يقنعون من العالم وإن كان فى أعلى درجات الاجتهاد إلّا بأن يكون مثلهم مقلداً بحتاً مقتدياً بالعالم الذى يقلدونه هم وأسلافهم . وإن كان هذا العالم الذى يريدون منه ذلك أعلا رتبة ، وأجلّ قدراً ، وأكثر علماً ، من عالمهم الذى يقلدونه ، كما يجده من له اطلاع على كثير من أحوال الناس ؛ فإن فى علماء المذاهب الأربعة مَنْ هو أوسع علماً ، وأعلا قدراً ، من أمامه الذى ينتمى إليه ، ويقف عند رأيه ، ويقتدى بما قاله فى عبادته ومعاملته وفى فتاويه وقضائه . ويسرى ذلك إلى مصنفاته ، فيرجح فيها ما يرجحه إمامه ، وإن كان دليله ضعيفاً أو موضوعاً ، أو لا دليل بيده أصلًا ، بل مجرّد محض الرأى ، ويدفع من الأدلة المخالفة له ما هو أوضح من شمس النهار ، تارة بالتأويل المتعسف ، وحيناً بالزور الملفق ، مع كونه بمكان من العلم لا يخفى عنده الصواب ، ولا يلتبس معه الحق ، ولكنه يفعل ذلك مخافة على نفسه من تلك الطبقة المشومة ، أو تأثيراً لما قد ظفر به من الدنيا والجاه الذى لا يستمر له إلّا بالموافقة لهم والسلوك فيما يرضيهم . وقد يحمله على ذلك الحرص على نفاق(٩٨) مصنفه بينهم ، واشتهاره عندهم ، وتداولهم له .

وما كان أغناه عن هذه البليّة التى وقع فيها ، والجناية التى جناها على نفسه فى العاجلة والآجلة :

أما فى الآجلة فظاهر ؛ فإن اشتغاله بذلك التصنيف المشتمل على تأثير رأى فرد من أفراد أهل العلم على ما شرعه الله فى محكم كتابه وعلى لسان رسوله ، من أعظم الذنوب التى تلقاه بين يدى الله ، فإنه ضالّ مضل ، مفتون فاتن ، محارب للشريعة المطهرة معاند لها ؛ فعليه إثم بما سنّه من هذه السنّة السيئة ، وإثم من عمل بها إلى يوم القيامة .

وأما فى العاجلة ، فإن مثل هؤلاء الصمّ البكم من المقلدة ، لا يفرح العاقل

---

(٩٨) (نفاق) المقصود هنا : رواج .

بانتشار مصنّفاته عندهم وشيوعها بينهم ، لأنهم لا يفهمون العلم ، ولا يعرفون أهله ، ولا فرق بينهم وبين العامة البحت إلّا مجرد الدعوى ، والتلبس بلباس أهل العلم ، والقعود فى مقاعد أهله . فكما أن العاقل لا يفرح بإقرار جماعة له من البدو والحرّاث أو السوقة من أهل الحياكة والحجامة وسقّاط أهل المهن الدنيئة والمعاشر الوضيعة ، كذلك لا ينبغى له أن يفرح بمثل ذلك من المقلدّة ، فإنهم كما قال القائل :

فإن لم يكنها أو تكنه فإنّه أخوها غذتّه أمّهُ بلبانها

ومع هذا ، فإنه يعرضّ نفسه بهذا التصنيف لاستقصار أهل العلم الذين هم أهله ، وعليهم المعوّل فيه لغايته ، واستحقار ما جاء به ، والإزراء عليه من كل واحد منهم فى عصره ذلك وما بعده من العصور ، ما دام ذلك المصنف المشؤوم موجوداً على وجه الأرض كما هو معلوم . فإن المحقق من أهل العلم إذا عثر على شيء من هذه المصنفات المتعسفة الخارجة عن الحق ، انقبضت أنفسهم عنه ، واستبردوه ، وسقط مصنفه عندهم ، ولم يعدوه من أهل العلم فى ورد ولا صدر ، وألحقوه بالطبقة التى حملته على ذلك الصنع الذى صنعه لهم ، وأخملوا ذكره فى مصنافاتهم التى هى المصنفات المعتبرة .

وبالجملة : فما صنع هذا المصنف لنفسه بذلك التصنيف إلّا ما هو خزى له فى الدنيا والآخرة ، ووبال عليه فى الآجلة والعاجلة .

وقد يسلك بعض هؤلاء مسلكاً هو أخس من ذلك المسلك ، وذلك بأن يورد الأقوال ، ويحتج لكل واحد منها بما احتج به قائله ، ويستكثر من إيراد أدلة ما هو الحق منها ، ويخرجه من مخارجه المقبولة . ثم يذكر ما قيل من ضعف دليل ما قال به من يعتقده أهل عصره وقطره ، وينسب ذلك التضعيف إلى من يعتدّ به من أهل العلم ، ثم يعترض ذلك التضعيف باعتراض يعرف من هو من أهل العلم والإتقان سقوطه وبطلانه ، ركوناً منه على أن ذلك لا يخفى على من له قدم فى العلم ، وزعماً أنه قدر من هم إلى ما هو الحق بإيراد دليله الصحيح ، وإلى ما يخالفه بإيراد دليله الضعيف ، وأنه لم يأتِ بما أتى به من الاعتراض

الساقط والتقوية للقول الفاسد إلّا على وجه لا يخفى على أهل الإتقان ولا يلتبس عند العارفين . وهو فى زعمه قد أرضى الخاصة والعامة ، وسلك مسلكاً فى غاية التحذلق ، ونهاية التبصّر . وهو لا يشعر بأن الخاصة من أهل التحقيق فى غنى عن رمزه وهمزه وتحذلقه ؛ فإنهم يعرفون مسالك الحق بدون مازعمه ، ويأخذون الصواب من معادنه ، فنفاق ماجاء به لديهم غاية مافيه أنهم لا يطعنون عليه بالجهل والقصور والبلادة وبعد الإدراك ، ولكنه قد فتح للمقصّرين أبواب الطعن على الأدلة الصحيحة ، وزادهم إلى مالديهم من البلايا الباطلة بلايا أخرى ، وجعل بينهم وبين الرجوع إلى الحق ردماً فوق الردم الذى قد كان معموراً ، ورفع أبنية الباطل وشيّدها ، ولم يهدم منها بتصنيفه حجراً ولا مدراً ؛ لأنه لقنهم المطاعن على الشرع ، وفتح لهم أبواب المقال على الأدلة ، وهم لا يعرفون أن اعتراضهم فاسد ، وأنه لا ينفق ولا يصلح ؛ لقصور افهامهم عن إدراك ماهو صحيح أو باطل ، وضعف معارفهم عن البلوغ إلى درجة التمييز . فزادهم بما أفادهم شراً إلى شرهم ، وتعصّباً إلى تعصبهم ، وبعداً عن الحق إلى بُعدهم ، ولم ينتفع الخاصة بشيء مما جاء به من الألغاز ، بل أنزل بهم من الضرر مالم يكن قبله ؛ فإن أهل التعصب يصولون عليهم باعتراضه ، ويجولون ، ويدفعون به فى وجه من قال بضعف دليل القول الذى قاله من يقلدونه ، ويجعلون ذلك ذريعة لهم إلى الاغتباط بما هم فيه ، والتهالك على ما ألفوه ، ووجدوا عليه آباهم .

وإنما التصنيف الذى يستحق أن يقال له تصنيف ، والتأليف الذى ينبغى لأهل العلم الذين أخذ الله عليهم بيانه ، وأقام لهم على وجوبه عليهم برهانه ، هو أن ينصروا فيه الحق ، ويخذلوا به الباطل ، ويهدموا بحججه أركان البدع ، ويقطعوا به حبائل التعصب ، ويوضحوا فيه للناس مانزل إليهم من البيّنات والهدى ، ويبالغوا فى إرشاد العباد إلى الإنصاف ، ويحبّبوا إلى قلوبهم العمل بالكتاب والسنّة ، وينفرّوهم من اتباع محض الرأى وزائف المقال وكاسد الاجتهاد . ولا يمنعهم من ذلك مايخيله لهم الشيطان ويسولّه من أن هذا التصنيف لا ينفق عند المقلدة ، أو يكون سبباً لجلب فتنة ، أو نزول مضرة ، أو

ذهاب جاه أو مال أو رئاسة ؛ فإن الله ناصر دينه ، ومتمم نوره ، وحافظ شرعه ، ومؤيد من يويّده ، وجاعل لأهل الحق ودعاة الشرع والقائمين بالحجة سلطاناً وأنصاراً واتباعاً ، وإن كانوا فى أرض قد انغمس أهلها فى موجات البدع وتكسعّوا[٩٩] فى متراكم الضلال . وقد قدمّنا الإرشاد إلى شيء من هذا .

فإن قلت : هؤلاء المتعصبة ، قد طبقوا جميع أقطار الأرض الإسلامية ، وصارت المدارس والفتاوى والقضاء وجميع الأعمال الدينية بأيديهم ، فإن كل مملكة من الممالك الإسلامية يعتزى أهلها إلى مذهب من المذاهب ، ونحلة من النحل . وكل بلد من البلاد ، وقطر من الأقطار ، كثرت أو قلتّ ، لابد أن يكون أهلها مقلدّين لميت من الأموات ، يأخذون عنه مايجدون فى مؤلفاته ، ومؤلفات أتباعه المقلدّين له ، حتى صارت مسائل مذهبهم نصب أعينهم ، لايتحولّون عنها ، ولا يخالفونها . ويعتقد من تفاقم تعصبه من المقلدّة أن الخروج عن ذلك خروج من الدين بأسره ، وإن كانت بقية المذاهب على خلافه فى تلك المسألة ، كما نجده فى كل مذهب من المذاهب الأربعة وغيرها . فما عسى يغنى إرشاد فرد من أفراد العلم إلى الإنصاف ، واتباع نص الدليل ، فى قطر واسع من أقطار الأرض ، أو مدينة كبيرة من مدائنه ؛ فأنه بأول كلمة تخرج منه ، وأيسر مخالفة يفوه بها ، يقوم عليه من المقلدة من ينغّص عليه مشربه ، ويكدّر عليه حاله . وأقل الأحوال أن يسعى به هؤلاء المقلدة إلى أمثالهم ، ممن بأيديهم الأمر والنهى والدولة والصولة ، فيمنعونه من المعاودة ، ويتوعدونه بأبلغ توعّد ، هذا إذا لم يمنعوه من التدريس والإفتاء بمجرّد ذلك ، ويحولون بينه وبين ماأردت منه بكل حائل . ومايصنع المسكين بين مئين من المقلدة ، كل واحد منهم أجل قدراً منه ، وأنبل ذكراً ، وأحسن ثياباً ، وأفره مركوباً ، وأكثر اتباعاً عند ألوف مؤلفة من العامة الذين هم بين جند وسوقة وحراث وأهل حرف ، لايفهمون خطاباً ، ولايعقلون حقاً . فما ظنك بالعامة إذا بلغهم الخلاف بين فرد من أفراد العلم خامل الذكر وبين جميع من

(٩٩) (تَكَسَّعَ) فى الضلال : تمادى .

يعدونه عالماً من أهل بلدهم من المدرسين والقضاة والمفتين ، وهم عدد جم ، ومقدار ضخم ، أتراهم يظنون الحق بيد ذلك الفرد ، ويتبعونه ، ويقولون بقوله ، ويدعون من يخالفه من أهل مدينتهم قاطبة . هذا مالا يكون ؛ فإنّا نجد العامة فى قديم الزمن وحديثه مع الكثرة ، ولا سيما من كان له من أهل العلم نصيب من دولة كالقضاة ، فإن الواحد منهم يعدل عند العامة ألوفاً من أهل العلم الذين لا مناصب لهم ولا دولة ؛ فكيف إذا انضم إلى ذلك ما يلقيه إليهم المقلدة من الكلمات التى تثير غضبهم ، وتستطير حميتهم ، كقولهم : هذا الرجل يخالف إمامكم ، ويدعو الناس إلى الخرج من مذهبه ، ويزرى عليه ، ويقول : إنه جاء بغير الحق ، وخالف الشرع . فإنهم عند سماع هذا ، مع ما قد رسخ فى عقائدهم ، وثبت فى عقولهم ، لا يبالون أى دم سفكوا ، وأى عرض انتهكوا ، يعلم هذا كل من له خبرة بهم وممارسة لهم ؟!

قلت : هذا السؤال الذى أوردته أيها الطالب للحق ، الراغب فى الإنصاف ، قد أفادنا أنك لم تفهم ما قدمته لك فى هذا الكتاب حق الفهم ، ولم تتصوره كلية التصور . فقد كررت لك فى مواضع منه ماتستفيد منه جواب ماأوردته هنا ؛ فعاود النظر ، وكرّر التدبّر وأطل الفكر ، بعد أن تبالغ فى تصفية الفطرة ، وتستكثر من الإستعداد للقبول . وهب أنه لم يتقدم ما يصلح أن يكون جواباً لما خطر ببالك الآن من هذا السؤال ، فها أنا أجيب عليك بجوابين ؛ الأول جواب مجمل ، والآخر جواب مفصّل :

أما الجواب المجمل : فأقول لك بعد تسليم جميع ما أوردته فى سؤالك هذا من أن حامل العلم ، ومبلغ الحجة ، سيحال بينه وبين ما يريده بأول كلمة تخرج منه فيها مخالفة لما ألفه الناس ، ولا يقدر بعدها على شىء من الهداية إلى الحق والإرشاد إلى الإنصاف ؛ لما قدرته من انها ستقوم عليه القيامة ، وتأزف عليه الآزفة(١٠٠) ، وتضيق عنه دائرة الحق ، وتنبو(١٠١) عنه جميع المسامع ، وتؤخذ عليه كل وسيلة .

---

(١٠٠) (أزف) الوقت : دنا . وفى القرآن : (أَزِفَتِ الآزِفَةُ) دنا يوم القيامة .

(١٠١) (تنبو) عنه : أى تبعد .

فبعد هذا كله قد قام بما أوجب الله عليه ، وأراد ماطلبه الله منه من الهداية ، ووفى بما أخذ عليه من العهد ، وامتثل ماألزمه به من البيان ، وصار بذلك من العلماء العاملين القائمين بنشر حجج الله ، وإبلاغ شرائعه .

وهذا فرضه ليس عليه غيره ، ولا يجب على من سواه . فهو لم يكتم ماعلمّه الله ، ولا خان عهد الله ، ولا خالف أمره ، ولا اشترى به ثمناً قليلًا ، ولا باعه بعرض من أعراض الدنيا. فله أجر من مكنه الله من ذلك، وخلى بينَه وبينه ؛ لأنه قد قام فى المقام الذى افترضه الله عليه ، وسلك الطريقة التى أمره بسلوكها ، فحال بينه وبينه من لا يطيق دفعه ، ولا يقدر على مناهضته ، فكان ذلك قائم بعذره ، مسقطا لفرضه ، موجبا لاستحقاقه لثواب ماقد عزم عليه ، وأجر ماأراده .

فأى غنيمة أجلّ من غنيمته ، ونعمة أكبر من نعمته ؟ وأين منزلته عند الله مِنْ منزلة مَنْ فتح الله عليه من أبواب معارفه ، ولطائف شريعته بما يفرق به بين الحق والباطل ، ويعرف به صواب القول من خطأه ، فكتم الحجة ، وآثر على نشرها مايرجوه من استدرار خلف من أخلاف الدنيا ، ونيل جاه من الجاهات ، ورئاسة من الرئاسات ، ومعيشة من المعائش ، فمضى عمره ، وانقضت حياته ، كاتما للحجة ، مخالفا لأمر الله ، نابذا لعهده ، طارحا لما أخذه عليه ؟!

وأما الجواب المفصل : فاعلم أنى لم أرد بما أرشدت إليه فى هذا الكتاب ماخطر ببُالك ، ولا لوم علىّ ؛ فقد كررت لك ماقصدته تكريرا لا يخفى على الفطن ، فهل طلبت من حامل الحجة أن يقوم بين ظهرانى الناس قائلا : اجتنبوا كذا من الرأى ، اتبعوا كذا من الكتاب والسنة ، صارخا بذلك فى المحافل ، ناطقا به فى المشاهد ، مع علمه بتراكم سحائب الجهل ، وتلاطم أمواج بحار التعصب ، وإظلام أفق الإنصاف ، واكفهرار وجه الاسترشاد .

فإن هذا وإن كان مسقطا لما افترضه الله على من استخلصه من عباده لحمل حجته ، وإبلاغ شريعته ، لكن لكل عالم قدوة بأنبياء الله ، وأسوة بمن أرسله

من رسله ؛ فقد كانوا عليهم الصلاة والسلام يدبرون عباد الله بتدبيرات ، فيها من الرفق ، واللطف ، وحسن المسلك ، مالا يخفى على أهل العلم . فإن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم، قد تألّف رؤساء المشركين وهم إذ ذاك حديثو عهد بجاهلية ، وترك المهاجرين والانصار من الغنيمة وسيوفهم تقطر من دماء المؤلفين واتباعهم ومن يشاكلهم فيما كانوا عليه[١٠٢] . وصح عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه ترك من كان منافقا على نفاقه ، وعصمهم بظاهر كلمة الإسلام ، ولم يكشفهم ويتلف ما عندهم بعد أن ظهر منهم ما ظهر من النفاق ، كعبد الله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين ، وقال« **لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه** »[١٠٣] . وقد اشتمل الكتّاب والسنّة على ما كان يقع من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، من تدبير أمرهم ، والرفق بهم ، واغتنام الفرص فى إرشادهم ، وإلقاء ما يحدوبهم إلى الحق فى الوقت بعد الوقت ، والحالة بعد الحالة ، على حسب ما تقبله عقولهم ، وتحتمله طبائعهم ، وتفهمه أذهانهم .

فالعالم الذى أعطاه الله الأمانة ، وحمله الحجة ، وأخذ عليه البيان ، يورد الكلام مع كل أحد ، على حسب ما يقبله عقله ، وبقدر استعداده .

فإن كان كلامه مع أهل العلم الذين يفهمون الحجة ، ويعقلون البرهان ، ويعلمون أن الله سبحانه لم يتعبد عباده إلا بما أنزله فى كتابه ، وعلى لسان رسوله ، وحال بينهم وبين الإلتفات إلى ذلك ، والرجوع إليه ، والعمل عليه ، ما تكدرت به فطرهم ، وتشوشت عنده أفهامهم ، من اعتقاد حقية لتقليد ، أو استعظام الأموات من أهل العلم ، أو استقصار أنفسهم عن معرفة الحق بنص الدليل . فعليه أن يعتمد معهم تسهيل ما تعاظموه من الوقوف على الحق قائلًا :

إن الله تعبّد جميع هذه الأمة بما فى الكتاب والسنة ، ولم يخص بفهم ذلك

(١٠٢) يسمى الذين تألفهم الرسول (ص) « **المؤلفة قلوبهم** » ، وهم جماعة يراد تأليف قلوبهم وجمعها على الإسلام أو تثبيتها عليه ، لضعف إسلامهم ، أو كف شرهم عن المسلمين ، أو جلب نفعهم فى الدفاع عنهم .

(١٠٣) البخارى : فى كتاب المناقب ، باب ٨ ؛ وكتاب التفسير ، سورة ٦٣ (٥ ، ٧) . ومسلم : فى كتاب البر ، حديث رقم ٦٣ والترمذى فى كتاب التفسير ، سورة ٦٣ (٤) . وأحمد : الجزء الثالث ، ص ٣٩٣ .

من كان من السلف دون من تبعهم من الخلف ، ولا قصر فضله بما شرعه لجميع عباده على أهل عصر دون عصر ، أو أهل قطر دون قطر ، أو أهل بطن دون بطن ؛ فالفهم الذى خلقه للسلف خلق مثله للخلف ، والعقل الذى ركبه فى الأموات ركب مثله فى الاحياء ، والكتاب والسنّة موجودان فى الأزمنة المتأخرة كما كانا فى الأزمنة المتقدمة ، والتعبّد بهما لمن لحق كالتعبّد لمن مضى ، وعلم لغة العرب موجود فى الدفاتر عند المتأخرين على وجه لا يشذ منه شىء بعد ان كان المتقدمون يأخذونه عن الرواة حرفا حرفا ، ويستفيدون من أربابه كلمة كلمة . وكذلك تفسير الكتاب العزيز موجود فى التفاسير التى دوّنها السلف للخلف بعد ان كان الواحد منهم يرحل فى تفسير آية من كتاب الله إلى الاقطار الشاسعة . وكذلك الاحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موجودة فى الدفاتر التى جمعها الأول للآخر بعد ان كان الواحد منهم يرحل فى طلب الحديث الواحد إلى البلاد البعيدة . وهكذا جميع العلوم التى يستعان بها على فهم الكتاب والسنّة . فالوقوف على الحق والاطلاع على ما شرعه الله لعباده قد سهّله الله على المتأخرين ، ويسره على وجه لا يحتاجون فيه من العناية والتعب إلا بعض ما كان يحتاجه من قبلهم . وقد قدمنا الاشارة الى هذا المعنى .

ثم ان هذا العالم يوضح لمن يأخذ عنه العلم فى كل بحث ، ما يقتضيه الدليل ، ويوجبه الانصاف . وهو وان أبى ذلك فى الابتداء ، فلابد أن يؤثر ذلك البيان فى طبعه قبولا ، وفى فطرته انقيادا .

ويحرص على أن تكون أوقاته مشغولة بتدريس الطلبة فى كتب التفسير والحديث وشروحه ، وفى كتب الفقه التى يتعرض مؤلفوها لذكر الأدلة والترجيح ، فإنه فى تدريس هذه المؤلفات يتيسر له من الإرشاد والهداية ، وتأسيس الحق ، وتقريب الانصاف ، مالا يتيسر له فى غيرها .

وإن كان كلامه مع من هو دون هذه الطبقة ، فأنفع ما يلقيه إليه هو ترغيبه فى علوم الاجتهاد ، وتعريفه أن المقصود بهذه العلوم هو الوصول إلى ما وصل

إليه علماء الإسلام . فإذا جدَّ فى ذلك فقد انفتحت منه أبواب الهداية ، ولاحت عليه أنوار التوفيق . ثم إذا تأهل واستعد لفهم الحجة سلك معه المسلك الأول .

ومن كان لايهتدى إلى طلب تلك العلوم بوجه من الوجوه ، فأقرب مايسلكه العالم معه ، هو أن ينظر إلى من قال من أهل العلم الذين يعتقدهم ذلك المقصر بما قامت عليه الأدلة وأوجب سلوكه الإنصاف ، فيقول له : إن قول العالم الفلانى قول راجح لقيام الأدلة عليه . ثم يصنع معه هذا الصنع فى المسائل التى يعتقدها تقليدا ويجمد عليها قصورا . فإن انتفع بذلك ، فهو المطلوب . وإن لم ينتفع ، فأقل الأحوال السلامة من معرتّه والخلوص من شره .

وأما العامة الذين لم يتعلقوا بشيء من علم الرأى ، فهم أسرع الناس انقيادا ، وأقربهم إلى القبول إن سلموا من بلايا مايلقيه إليهم المتعصبون .

وبالجملة : فالعالم المتصدى للإرشاد ، المتصدى للهداية ، لايخفى عليه مايصلح من الكلام مع من يتكلم معه .

فهذا هو الذى أردته من نشر حجج الله ، وإرشاد العباد إليها ، وقد قدمته بأبسط من هذا ؛ وإنما كررته هنا لقصد دفع ماسبق من السؤال .

*عود إلى أسباب التعصب : الاستناد إلى قواعد ظنية :

ومن جملة أسباب التعصب التى لايشعر بها كثير من المشتغلين بالعلوم :**مايذكره كثير من المصنفين من انه يردّ ماخالف القواعد المقررة .** فإن من لاعناية له بالبحث يسمع هذه المقالة ، ويرى ماصنعه كثير من المصنفين من ردّ الأدلة من الكتاب والسنّة إذا خالف تلك القاعدة ، فيظن أنها فى اللوح المحفوظ ، فإذا كشفها وجدها فى الغالب كلمة تكلم بها بعض من يعتقده الناس من أهل العلم الذين قد صاروا تحت أطباق الثرى ، لامستند لها إلا محض الرأى ، وبحت مايُدعى من دلالة العقل .

وكثيرا ماتجد فى علم الكلام[١٠٤] الذى يسمونه أصول الدين ، قاعدة قد تقررت بينهم ، واشتهرت ، وتلقنها الآخر من الأول ، وخطوها جسرا يدفعون بها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . فإذا كشفت عنها وجدتها فى الأصل كلمة قالها بعض حكماء الكلام زاعما انه يقتضى ذلك العقل ويستحسنه . وليس إلا مجرد الدعوى على العقل ، وهو عنه برىء ، فإنه لم يقض بذلك العقل الذى خلقه الله فى عباده ، بل قضى به عقل قد تدنس بالبدع ، وتكدر بالتعصب ، وابتلى بالجهل بما جاء به الشرع ، وجاء بعده من هو أشد بلاء منه ، واسخف عقلا ، وأقل علماً ، وأبعد عن الشرع ، فجعل ذلك قاعدة عقلية ضرورية ، فدفع بها جميع ماجاء عن الشارع ، عرف هذا من عرفه ، وجهله من جهله . ومن لم يعرف هذا فليتهم نفسه . فيا لله العجب من مزية يفتريها على العقل بعض من حُرم علم الشرع ، ثم يأتى من بعده فيجعلها أصولا مقررة وقواعد محررة ، ويؤثرها على قول الله عز وجل وقول الانبياء .

وهكذا تجد فى علم أصول الفقه قاعدة قد أخذها الآخر عن الأول ، وتلقنها الخلف عن السلف ، وبنوا عليها القناطر ، وجعلوها إماما لأدلة الكتاب والسنة ، يجيزون ماأجازته ، ويردون ماردته . وليست من قواعد اللغة الكلية ، ولا من القوانين الشرعية . بل لا يستند لها إلا الخيال المختل ، والظن الفاسد ، والرأى البحت . ومع هذا فهم يزعمون أن هذا العلم لا تُقبل فيه إلا الأدلة القطعية دعوى ظاهرة البطلان واضحة الفساد ؛ فإن غالبها لا يوجد عليه دليل من الآحاد صحيح ولا حسن ، بل لا يوجد احادى ضعيف . وغالب مايوجد الموضوعات التى لا يمترى من له حظ من العلم فى كذبها ، كاستدلالهم بمثل «**حكمى على الواحد حكمى على الجماعة**» ، وبمثل : «**نحن نحكم بالظاهر**» ، ونحو هذه الاكاذيب .

فالمغرور من اغتر بهذه الدلس ، والمخدوع من خدع بها ، وترقى بها من

---

(١٠٤) يتضمن علم الكلام الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة .

كونها موضوعة إلى كونها صحيحة ، ثم من كونها صحيحة إلى كونها قطعية .

فيالله العجب من نفاق مثل هذه الأمور على كثير من أهل العلم ، وانقراض القرن بعد القرن ، والعصر بعد العصر ، وهى عندهم مسائل قطعية ، وقواعد مقررة ، والذنب لمن تكلم بها ، وذكرها فى مؤلفاته ، ولم يقف حيث أوقفه الله من جهله بما جاء فى الشريعة .

وهكذا ماوقع فى كثير من أبواب الفقه ، من ذكر قواعد يطردونها فى جميع المسائل ، ويظنون أنها من قواعد الشرع الثابتة بقطعيات الشريعة . ومن كشف عن ذلك وجد أكثرها مبنيا على محض الرأى الذى ليس عليه اثارة من علم ، ولا يرجع إلى شيء من الشرع .

ومن خفى عليه هذا ، فليعلم أن قصوره ، وعدم اشتغاله بالعلم ، هو الذى جنى عليه ، وغرةّ بما لا يغتر به من عض على العلم بناجذه ، وكشف عن الأمور كما ينبغى .

فعلى من أراد الوصول إلى الحق ، والتمسك بشعار الإنصاف ، أن يكشف عن هذه الامور ؟ فإنه إذا فعل ذلك هان عليه الخطب ، ولم يحل بينه وبين الحق ماليس من الحق .

★عدم الموضوعية فى عرض حجج الخصوم :

ومن أسباب الوقوع فى غير الانصاف والتمسك بذيل من الاعتساف : أن يأخذ طالب الحق أدلة المسائل من مجاميع الفقه التى يعتزى مؤلفها إلى مذهب من المذاهب . فإن من كان كذلك يُبالغ فى إيراد أدلة مذهبه ، ويُطيل ذيل الكلام عليها ، ويصرح تارة بأنها أدلة ، وتارة بأنها حجج ، وتارة بأنها صحيحة . ثم يطفف لخصمه المخالف فيورد أدلته بصيغة التمريض ، ويعنونها بلفظ الشبه ، وما يؤدى هذا المعنى .

فإذا اقتصر طالب الحق على النظر فى مثل هذه المؤلفات ، وقع فى الباطل وهو يظنه الحق ، وخالف الحق وهو يظنه الباطل . والذى أوقعه فى ذلك

اقتصاره فى البحث و النظر على ذلك الكتاب الذى ألفه ذلك المتعصب ، وإحسان الظن به ، وغفوله عن أن مواطن الأدلة هى مجاميع الحديث كالأمهات وما يلتحق بها ، وأن هؤلاء هم أهل العلم وأربابه الذين يعرفون صحيحه من فاسده ، كما قدمنا الإشارة الى هذا .

ولا بأس بأن ينظر طالب الحق فى كتب العلماء المشهورين بالإنصاف ، الذين لم يتعصبوا لمذهب من المذاهب ، ولا انتسبوا إلى عالم من العلماء ؛ فإنه يستفيد بمطالعة مؤلفات المنصفين كيفية العمل عند التعارض ، ويهتدى إلى مواقع الترجيح ومواطن ما يحق من الاجتهاد على الوجه المطابق .

وهكذا كتب الكلام وأصول الفقه ، فإن كل طائفة تصنع هذا الصنع فى الغالب ، فتصف ما يوافق مذهبها بالحجج القواطع والأدلة الراجحة ، وتطفف للمخالف ، فتورد له مالا يعجزون عن جوابه ودفعه ، ويتركون مالا يتمكنون من دفعه . وقد يذكرونه على وجه فيه مدخل للدفع ، ويلصقون به ما يفتح فيه أبواب المقال .

فليحذر المنصف من الركون على ما يورده المتذهبون لأنفسهم ولخصومهم من الحجج . فإنه قد علق بكل طائفة من العداوة للأخرى ما يوجب عدم القبول من بعضهم فى بعض .

وبالجملة : فليس المتعصب بأهل لأن يؤخذ الحق من مؤلفاته ؛ فإنه إذا لم ينتفع بالعلم ، ويهتدى بما عرف منه ، فكيف يهتدى به غيره ، أو يتوصل بما جمعه إلى ما هو الحق ؛ فالمصاب بالعمى لا يقود الأعمى ، فإن فعل كانت ظلمات بعضها فوق بعض . والمريض لا يداوى من هو مصاب بمثل مرضه ، ولو كان صادقا فيما يزعمه من اقتدار على المداواة ، كانت نفسه التى بين جنبيه أحق بذاك منه .

*تقليد المتعصبين من علماء الجرح والتعديل :

ومن جملة الأسباب المانعة من الانصاف : التقليد فى علم الجرح والتعديل لمن فيه عصبية من المصنفين فيه ، كما يجده اللبيب كثيراً . فإنه إذا تصدى لذلك بعض المصابين بالتقليد كان العدل عنده من يوافقه فى مذهبه الذى يعتقده ، والمجروح من خالفه كائنا من كان .

ومن خفى عليه ، فلينظر مافى مصنفات الحفاظ بعد انتشار المذاهب وتقيد الناس بها . وكذلك مافى كتب المؤرخين .

فإن الموافقة فى المذهب حاملة على ترك التعرض لموجبات الجرح ، وكتم الأسباب المقتضية لذلك . فإن وقع التعرض لشيء منها نادرا أكثر المصنف من التأويلات والمراوغات والتعسفات الموجبة لدفع كون ذلك الخارج خارجا . وإن كان الكلام على أحوال المخالفات كان الأمر بالعكس من ذلك ، فالفضائل مغموطة ، والرذائل منشورة من غير تأويل ولا إحسان ظن .

وبالجملة : فالاهتمام فى الموافق بذكر المناقب دون المثالب ، وفى المخالف بالعكس من ذلك . ولا أقول إنهم يتعمدون الكذب ، ويكتمون الحق ؛ فهم أعلى قدراً ، وأشد تورعاً من ذلك . ولكن رسخ فى قلوبهم حب مذاهبهم ، فأحسنوا الظن بأهلها ، فتسبب عن ذلك ما ذكرنا ، ولم يشعروا بأن هذا الصنيع من أشد التعصب وأقبح الظلم . بل ظنوا أن ذلك من نصرة الدين ، ورفع منار المحقين ، ووضع أمر المبطلين ؛ غفلة منهم وتقليدا .

وقد يقع ذلك بين أهل المذهب الواحد ، مع اتفاقهم فى التقليد لإمام واحد ، واعتقادهم بمعتقد واحد . فإذا تصدى أحدهم لتراجم أهل مذهبه أطال ذيل الكلام عند ذكر شيوخه وتلامذته بكل مايقدر عليه . وكذلك يوسع نطاق المقام عند ترجمته لمن له عليه أى يد كانت ، فإذا ترجم غير شيوخه وتلامذته وأهل مودته طفف لهم تطفيفا ، وأوسعهم ظلما وحيفا .

وإذا كان هذا مع الاتفاق فى المذهب والمعتقد ، فما ظنك بما يكون مع

الاختلاف فى المذهب ، والاتفاق فى التسمى باسم واحد ، إما باعتبار الاعتقاد ، أو باعتبار أمر آخر ، كأهل المذاهب الأربعة ، فإنهم اختلفوا فى المذاهب ، مع اتفاقهم على أنهم أهل السنة ، واشتراك غالبهم فى اعتقاد قول الأشعرى(١٠٥) . فإن دائرة الأهوية حينئذ تتسع ، ومحبة العصبية تكثر ، كما تراه كثيرا فى تراجم بعضهم لبعض ، خصوصا فيما بين الحنابلة ومن عداهم من أهل المذاهب الأربعة . وكذلك فيما بين الحنفية ومن عداهم . ومن نظر فى ذلك بعين الانصاف علم بالصواب .

دع عنك ما يقع مع الاختلاف فى المذاهب والمعتقدات ، فإنه يبلغ الأمر إلى عداوة فوق عداوة أهل الملل المختلفة .

فطالب الإنصاف لا يلتفت إلى شيء مما يقع من الجرح والتعديل بالمذاهب والنحل . فيقبلون جميعا إلا أن يكون ما جاء به المتمذهب مقويا لبدعته ، أو كان على مذهب لا يرى بالكذب فيه بأسا كما هو عند غلاة الرافضة . وأما ما عدى الجرح والتعديل بالمذاهب والمعتقدات ، فإن كان المتكلم فى ذلك بريئاً عن التمذهب والتعصب ، كما يُروى عن السلف قبل انتشار المذاهب ، فاحرص عليه ، واعمل به ، على اعتبار صحة الرواية وصدوره فى الواقع . وأما باعتبار كونه جارحا أو غير جارح ، فذلك مفوض إلى نظر المجتهد .

والذى ينبغى التعويل عليه أن القادح إن كان يرجع إلى أمر يتعلق بالرواية كالكذب فيها ، وضعف الحفظ ، والمجازفة ، فهذا هو القادح المعتبر . وإن كان يرجع إلى شيء آخر فلا اعتداد به وإن كان المتكلم متلبسا بشيء من هذه المذاهب ، فهو مقبول فى جرح من يجرحه من الموافقين له ، وتزكية من يزكيه من المخالفين له . وأما ما جاء بما يقتضى تعديل الموافق وجرح المخالف ، فهذا مما ينبغى التوقف فيه ، حتى يعرف من طريق غيره أو يشتهر اشتهاراً يقبله سامعه .

---

(١٠٥) على بن إسماعيل ، أبو الحسن الأشعرى : (٢٦٠ ـ ٣٢٤ هـ = ٨٧٤ ـ ٩٣٦ م) . مؤسس مذهب الأشاعرة ، من العلماء المتكلمين المجتهدين . تلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ، ثم رجع وجاهر بخلافهم . من مصنفاته « الرد على المجسمة » ، و « مقالات الإسلاميين » و « والإبانة عن أصول الديانة » طبقات الشافعية ٢ : ٢٤٥ ، والمقريزى ٢ : ٣٥٩.

*المنافسة بين الأقران بلا تبصر :

ومن الأسباب المانعة من الإنصاف : مايقع من المنافسة بين المتقاربين فى الفضائل ، أو فى الرئاسة الدينية أو الدنيوية . فإنه إذا نفخ الشيطان فى أنفهما ، وترقت المنافسة ، بلغت إلى حد يحمل كل واحد منهما على أن يرد ما جاء به الآخر إذا تمكن من ذلك وإن كان صحيحا جاريا على منهج الصواب .

وقد رأينا وسمعنا من هذا القبيل عجائب صنع فيها جماعة من أهل العلم صنيع أهل الطاغوت ، وردوا ماجاء به بعضهم من الحق ، وقابلوه بالجدال الباطل ، والمراء القاتل .

وإنى لأذكر أيام اشتغال الطلبة بالدرس علىّ فى كثير من العلوم ، وكنت أجيب عن مسائل ترد علىّ ، يحررها الطلبة ، ويحررها غيرهم من أهل العلم ، من أمكنة قريبة وبعيدة . فكان يتعصب على تلك الأجوبة جماعة من المشاركين لى فى تدريس الطلبة فى علوم الاجتهاد وغيرها .

وقد يسلكون مسلكا غير هذا ، فيقع منهم الإيهام على العوام بمخالفة ذلك الكلام لما يقوله من يعتقدون قوله من الأموات ، فينشأ عن ذلك فتن عظيمة ، وحوادث جسيمة .

وكان بعض نبلائهم يكتب على بعض ماأكتبه ، ثم يهديه إلى السائل ، وإن كان فى بلد بعيد ، من دون أن يقصده بسؤال ، ولا طلب منه تعقب ماأجبت به من المقال . وقد أقف على شيء من ذلك فأجده فى غاية من الاعتساف ، فأتعقبه تعقباً ، فيه كشف عواره ، وايضاح بواره . وقد ينضم إلى ذلك كلمات ، والاستشهاد بأبيات ، اقتضاها الشباب والنشاط واشتعال الغضب ؛ لما أراه من التعصب والمنافسة على ماليس لى فيه اختيار . فإن ورود سؤالات السائلين إلىّ من العامة والخاصة ، وانثيال المستفتين من كل جهة ، لم يكن بسعى منى ولا احتيال . وكذلك اجتماع نبلاء الطلبة لدىّ ، وأخذهم عنى ، وتعدد دروسهم عندى ، ليس لى فيه حيلة ، ولا هو من جهتى .

فكان هذا الصنع منهم يحمَلنى على مجاوبتهم بما لا يعجبنى بعد الصحو من سكر الحداثة ، والقيام من رقدة الشباب ، لالكونه غير حق ، أو ليس بصواب ، بل لكون فيه من سهام الملام ، وصوارم الخصام ، مالا يناسب هذا المقام .

فإذا كان هذا فى المشتركين فى التدريس والافتى ، وهما خارجان عن مناصب الدنيا ، لانهما فى ديارنا لا يقابلان بشىء من الدنيا لا من سلطان ولا من غيره من نوع الإنسان ؛ فما بالك بالرئاسات التى لها مدخل فى الدين والدنيا ، أو التى هى خاصة بالدنيا متمحضة لها ، فإنه لا شك أن التنافس بين أهلها أهم من الرئاسات الدينية المحضة التى لم تشب بشىء من شوائب الدنيا .

فينبغى للمنصف أن لا يغفل عن هذا السبب ؛ فإن النفس قد تنقبض عن كلام من كان منافسا فى رتبة ، معارضا فى فضيلة ، وإن كان حقا . وقد يحصل مع الناظر فيه زيادة على مجرد الانقباض ، فيتكلم بلسانه ، أو يحرر بقلمه ، ما فيه معارضة للحق ، ودفع للصواب ، فيكون مؤثرا لحمية الجاهلية ، وعصبية الطاغوت ، على الشريعة المطهرة . وكفى بهذا فإنه من الخذلان البيّن .. نسأل الله الهداية إلى سبيل الرشاد .

*التباس ما هو من الرأى البحت بشىء من العلوم التى هى مواد الاجتهاد :

ومن أسباب التعصب الحائلة بين من أصيب بها وبين المتمسك بالإنصاف : التباس ما هو من الرأى البحت بشىء من العلوم التى هى مواد الاجتهاد .

وكثيرا ما يقع ذلك فى أصول الفقه ، فإنه قد اختلط فيها المعروف بالمنكر ، والصحيح بالفاسد ، والجيد بالردىء . فربما يتكلم أهل هذا العلم على مسائل من مسائل الرأى ، ويحررونها ، ويقررونها ، وليست منه فى شىء ، ولا تعلق لها به بوجه . فيأتى الطالب لهذا العلم إلى تلك المسائل ، فيعتقد أنها منه ، فيرد

إليها المسائل الفروعية ، ويرجع إليها عند تعارض الأدلة ، ويعمل بها فى كثير من المباحث ، زاعما أنها من أصول الفقه ، ذاهلا عن كونها من علم الرأى . ولو علم بذلك لم يقع فيه ولا ركن إليه . فيكون هذا وأمثاله قد وقعوا فى التعصب ، وفارقوا مسلك الإنصاف ، ورجعوا إلى علم الرأى وهم لا يشعرون بشىء من ذلك ، ولا يفطنون به ، بل يعتقدون أنهم متشبثون بالحق ، متمسكون بالدليل ، واقفون على الإنصاف ، خارجون عن التعصب .

وقل من يسلم من هذه الدقيقة ، وينجو من غبار هذه الأعاصير ، بل هم أقل من القليل . وما أخطر ذلك ، وأعظم ضرره ، وأشد تأثيره ، وأكثر وقوعه ، وأسرع نفاقه على أهل الإنصاف وأرباب الاجتهاد !

فإن قلت : إذا كان هذا السبب ، كما زعمت من الغموض ، والدقة ، ووقوع كثير من المنصفين فيه وهم لا يشعرون ؛ فما أحقه بالبيان ، وأولاه بالإيضاح ، وأجدره بالكشف ، حتى يتخلص عنه الواقعون فيه ، وينجوا منه المتهافتون إليه .

قلت : اعلم أن ما كان من أصول الفقه راجعاً إلى لغة العرب رجوعاً ظاهراً ، مكشوفا كبناء العام على الخاص ، وحمل المطلق على المقيد ، ورد المجمل إلى المبيّن ، وما يقتضيه الأمر والنهى ، ونحو هذه الأمور . فالواجب على المجتهد أن يبحث عن مواقع الألفاظ العربية ، وموارد كلام أهلها وما كانوا عليه فى مثل ذلك . فما وافقه فهو الأحق بالقبول ، والأولى بالرجوع إليه .

فإذا اختلف أهل الأصول فى شىء من هذه المباحث ، كان الحق بيد من هو أسعد بلغة العرب . هذا على فرض عدم وجود دليل شرعى يدل على ذلك . فإن وجد ، فهو المقدر على كل شىء .

وإذا أردت الزيادة فى البيان ، والتكثر من الإيضاح ، بضرب من التمثيل ، وطرق من التصوير ، فاعلم أنه قد وقع الخلاف فى أنه : هل يُبنى العام على الخاص مطلقا ، أو مشروطا بشرط أن يكون الخاص متأخرا ؟

ووقع الخلاف فى أنه : هل يُحمل المطلق على المقيّد مع اختلاف السبب أم لا ؟

ووقع الخلاف فى معنى الأمر الحقيقى : هل هو الوجوب أم غيره ؟ !

ووقع الخلاف فى معنى النهى الحقيقى : هل هو التحريم أو غيره ؟

فاذا أردت الوقوف على الحق فى بحث من هذه الأبحاث ، فانظر فى اللغة العربية ، واعمل على ماهو موافق لها ، مطابق لما كان عليه أهلها . واجتنب ما خالفها . فإن وجدت ما يدل على ذلك من أدلة الشرع ، كما تقف عليه فى الأدلة الشرعية — من كون الأمر يفيد الوجوب والنهى يفيد التحريم ؛ فالمسألة أصولية ؛ لكونها قاعدة كلية شرعية ؛ لكون دليلها شرعيا ، كما ان ما يستفاد من اللغة من القواعد الكلية أصولية لغوية .

فهذه المباحث ، ومايشابهها من مسائل النسخ ، ومسائل المفهوم والمنطوق ، الراجعة إلى لغة العرب ، المستفادة منها على وجه يكون قاعدة كلية ، هى مسائل الأصول . والمرجع لها ، الذى يعرف به راجحها من مرجوحها ، هو العلم الذى هى مستفادة منه ، مأخوذة من موارده ومصادره .

وأما مباحث القياس ، فغالبها من بحث الرأى ، الذى لا يرجع إلى شيء مما تقوم به الحجة . وبيان ذلك أنهم جعلوا للعلة مسالك عشرة لا تقوم الحجة بشيء منها إلا ما كان راجعا إلى الشرع : كمسلك النص على العلة ، أو ما كان معلوما من لغة العرب كالالحاق بمسلك إلغاء الفارق ، وكذلك قياس الأولى المسمى عند البعض بفحوى الخطاب .

وأما المباحث التى يذكرها أهل الأصول فى مقاصده ، كما فعلوه فى مقصد الكتاب ومقصد السنة والإجماع ؛ فما كان من تلك المباحث الكلية مستفاداً من أدلة الشرع ، فهو أصولى شرعى . وما كان مستفادا من مباحث اللغة ، فهو أصولى لغوى . وما كان مستفادا من غير هذين ، فهو من علم الرأى الذى

كررنا عليك التحذير منه . ومن المقاصد المذكورة فى الكتب الأصولية التى هى من محض الرأى : الاستحسان[١٠٦] ، والاستصحاب[١٠٧] ، والتلازم .

وأما المباحث المتعلقة بالاجتهاد والتقليد ، وشرع من قبلنا ، والكلام على أقوال أصحابه ؛ فهى شرعية فما انتهض عليه دليل الشرع منها فهو حق ، وما خالفه فباطل .

وأما المباحث المتعلقة بالترجيح : فإن كان المرجح مستفادا من الشرع فهو شرعى ، وإن كان مستفادا من علم من العلوم المدونة ، فالاعتبار بذلك العلم ، فإن كان له مدخل فى الترجيح كعلم اللغة ، فإنه مقبول . وإن كان لا مدخل له إلا لمجرد الدعوى كعلم الرأى ، فإنه مردود .

وإذا تقرر هذا ، ظهر لك منه فائدتان :

الاولى: إرشادك إلى أن بعض ما دونه أهل الأصول فى الكتب الأصولية ليس من الأصول فى شىء ، بل هو من علم الرأى الذى هو عن الشرع وما يتوصل إليه به من العلوم بمعزل .

الثانية: إرشادك إلى العلوم التى تستمد منها المسائل المدونة فى الأصول ؛ لترجع إليها عند النظر فى تلك المسائل ، حتى تكون على بصيرة ، ويصفو لك هذا العلم ، ويخلص عن مشوب الكذب .

فإن قلت : إذا كان الأمر كما ذكرته ، فما تقول فيما يزعمه أهل الأصول من انه لا يقبل فى إثبات مسائله إلا الأدلة القطعية ؟

قلت : هذه دعوى منهم ، يكذبها العمل ، ويدفعها ما دونّوه فى هذا العلم

---

(١٠٦) المراد من (الاستحسان) فى اللغة : عَدُّ الشىء واعتقاده حسناً . وفى الاصطلاح : اسم لدليل من الأدلة الأربعة يُعارض القياس الجلىّ ويُعمل به إذا كان أقوى منه ، سمّوه بذلك لأنه فى الأغلب يكون أقوى من القياس الجلىّ ، فيكون قياساً مستحسناً ، قال تعالى : ﴿**فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**﴾ [الزمر : ١٧ ، ١٨] . ويُراد به أيضاً ترك القياس والأخذ بما هو أرفق للناس .

(١٠٧) يقصد بـ(الاستصحاب) : إبقاء ما كان على ما كان عليه لانعدام المُغيّر ، وهو الحكم الذى يثبت فى الزمان الثانى بناء على الزمان الأول .

من أدلة مسائله .

فإن قلت : إذا كان استمداد هذا العلم عندهم من الكلام ، والعربية والأحكام ، كما صرحوا به ؛ فليس ذلك دعوى مجردة . فإنهم قد صرحوا فى علم الكلام بأنه لا يقبل فى إثبات مسائله إلا الأدلة القطيعة . وصرحوا فى الكلام على نقل اللغة أنها لا تثبت بالآحاد . وإذا كان ما منه الاستمداد مثبتا ببراهين قطعية كان ما استمد منه مثله فى ذلك ؟

قلت : هذه دعوى على دعوى ، وظلمات بعضها فوق بعض . أما علم الكلام ، فغالب مسائله مبنية على مجرد الدعاوى على العقل التى هى كسراب بقيعة إذا جاءه طالب الهداية لم يجد شيئاً . وقد قدمنا الإشارة إلى هذا . وأما ما كان من مسائله مأخوذا من الشرع ، فهى مسائل شرعية ، ولا فرق بين شرعى وشرعى من هذه الحيثية .

وأما اللغة ، فقد وقع الخلاف بين أهل العلم هل يشترط فى إثباتها أن يكون النقل متواتراً أم لا ؟ والحق بيد من لم يثبت هذا الشرط ؛ فإن سابق المشتغلين بنقل علم اللغة ولاحقهم ، قد رأيناهم يثبتونها لمجرد وجود الحرف فى بيت من أبيات شعرائهم ، وكلمة من كلمات بلغائهم . ومن أنكر هذا فهو مكابر لا يستحق تطويل الكلام معه .

كيفية الوصول إلى مراتب العلم المختلفة

*طبقات طلاب العلم

*كيفية الوصول إلى المرتبة الأولى للعلم

*كيفية الوصول إلى المرتبة الثانية

*كيفية الوصول إلى المرتبة الثالثة

*كيفية الوصول إلى المرتبة الرابعة

كيفية الوصول إلى مراتب العلم المختلفة

إذ قد انتهى بنا الكلام فى بيان الأسباب المانعة من الإنصاف إلى هذه الغاية ، وتغلغل بنا البحث إلى ذكر ماذكرناه من تلك الدقائق التى ينبغى لكل عالم ومتعلم أن تكون نصب عينيه فى إقدامه وإحجامه ، وأن تكون ثابتة فى تصوره فى جميع أحواله . وماأحقها بذلك ، وأولاها بالحرص على ماهنالك ؛ فانها فوائد لاتوجد فى كتاب ، وفرائد لايخلو أكثرها عن قوة كثير من المرشدين المحققين وإن حال بينهم وبين إبرازها إلى الفعل حجاب .

فلنتكلم الآن على ماينبغى لطالب العلم أن يتعلمه من العلوم .

*طبقات طلاب العلم :

فأقول : إنها لما كانت تتفاوت المطالب فى هذا الشأن ، وتتباين المقاصد ، بتفاوت همم الطالبين وأغراض القاصدين . فقد ترتفع همة البعض منهم ، فيقصد البلوغ إلى مرتبة فى الطلب لعلم الشرع ومقدما لها يكون عند تحصيلها إماما مرجوعا إليه ، مستفادا منه ، مأخوذا بقوله ، مدرسا ، مفتيا ، مصنفا .

وقد تقصر همته عن هذه الغاية ، فتكون غاية مقصده ، ومعظم مطلبه ، ونهاية رغبته : أن يعرف ماطلبه منه الشارع من أحكام التكليف ، والوضع على وجه يستقل فيه بنفسه ، ولا يحتاج إلى غيره ، من دون أن يتصور البلوغ إلى ماتصوره أهل الطبقة الأولى من تعدى فوائد معارفهم إلى غيرهم ، والقيام فى مقام أكابر الأئمة ، ونحارير هذه الامة .

وقد يكون نهاية مايريده ، وغاية مايطلبه ، أمراً دون أهل الطبقة الثانية ، وذلك كما يكون من جماعة يرغبون إلى إصلاح ألسنتهم ، وتقويم أفهامهم ، بما يقتدرون به على فهم معانى مايحتاجون إليه من الشرع ، وعدم تحريفه وتصحيفه ، وتغيير إعرابه ، من دون قصد منهم إلى الاستقلال ، بل يعزمون

على التعويل على السؤال عند عروض التعارض والاحتياج إلى الترجيح .

فهذه ثلاث طبقات للطلبة من المتشرعين الطالبين للاطلاع على ما جاء فى الكتاب والسنة ، إما كلا أو بعضا ، بحسب اختلاف المقاصد وتفاوت المطالب .

وثَمَّ طبقة رابعة ، يقصدون الوصول إلى علم من العلوم ، أو علمين ، أو أكثر لغرض من الأغراض الدينية والدنيوية ، من دون تصور الوصول إلى علم الشرع .

فكانت الطبقات أربع .

وينبغى لمن كان صادق الرغبة ، قوى الفهم ، ثاقب النظر ، عزيز النفس ، شهم الطبع ، عالى الهمة ، سامى الغريزة — أن لا يرضى لنفسه بالدون ، ولا يقنع بما دون الغاية ، ولا يقعد عن الجد والاجتهاد المبلغين له إلى أعلا ما يراد ، وأرفع ما يستفاد ؛ فإن النفوس الأبية ، والهمم العلية ، لا ترضى بدون الغاية فى المطالب الدنيوية من جاه ، أو مال ، أو رئاسة ، أو صناعة ، أو حرفة ؛ حتى قال قائلهم :

إذا غامرت فى شرف مدوم ... فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير ... كطعم الموت فى أمر عظيم

وقال آخر مشيراً إلى هذا المعنى :

إذا لم تكن ملكا مطاعا ... فكن عبدا لخالقه مطيعا
وإن لم تملك الدنيا جميعا ... كما تهواه فاتركها جميعا
هما شيئان من ملك ونسك ... ينيلان الفتى شرفا رفيعا

وقال آخر :

فإما مكانا يضرب النجم دونه ... سرادقه أو باكيا لحمام

وقد ورد هذا المعنى كثيرا فى النظم والنثر ، وهو المطلب الذى تنشط إليه الهمم الشريفة ، وتقبله النفوس العلية .

وإذا كان هذا شأنهم فى الأمور الدنيوية ، التى هى سريعة الزوال ، قريبة الاضمحلال ؛ فكيف لا يكون ذلك من مطالب المتوجهين إلى ماهو أشرف مطلبا ، وأعلا مكسبا ، وأرفع مراداً ، وأجل خطرا ، وأعظم قدرا ، وأعود نفعا ، وأتم فائدة . وهى المطالب الدينية ، مع كون العلم أعلاها وأولاها بكل فضيلة ، وأجلها واكملها فى حصول المقصود ، وهو الخير الأخروى ؟! فإن الله سبحانه قد قرن العلماء فى كتابه بنفسه وملائكته ، فقال ﴿**شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم**﴾(١٠٨) .

وقصر الخشية له التى هى سبب الفوز لديه عليهم ، فقال :﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾(١٠٩) .

وأخبره عباده بأنه يرفع علماء أمته درجات ، فقال :﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾(١١٠) .

وأخبرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم« **بأن العلماء ورثة الانبياء** »(١١١) .

وناهيك بهذه المزية الجليلة ، والمنقبة النبيلة ، فأكرم بنفس تطلب غاية المطالب فى أشرف المكاسب . وأحبب برجل أراد من الفضائل مالا تدانيه فضيلة ، ولا تساميه منقبة ، ولا تقاربه مكرمة ، فليس بعد مايتصوره أهل الطبقة الأولى متصور . فإن نالوه على الوجه الذى تصوروه ، فقد ظفروا من خير العاجلة والآجلة ، وشرف الدنيا والآخرة ، بما لا يظفر به إلا من صنع صنيعهم ، ونال نيلهم ، وبلغ مبالغهم ، وإن اخترمهم دونه مخترم ، وحال بينهم وبينه حائل ، فقد اعذروا ، وليس على من طلب جسيماً ورام أمرا عظيما

---

(١٠٨) آل عمران : ١٨ .

(١٠٩) فاطر : ٢٨ .

(١١٠) المجادلة : ١١ .

(١١١) تمامه : «**العلماء ورثة الأنبياء ، يحبهم أهل السماء ، وتستغفر لهم الحيتان فى البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة**» . رواه ابن النجار عن أنس . وهو حديث ضعيف . الأحاديث الضعيفة برقم ٣٩٥٢ ، والفتح الكبير ٢ : ٢٥١ ، وضعيف الجامع برقم ٣٨٩٣ ، ج٤ ص ٧٣ .

إن منعته عنه الموانع وصرفته عنه الصوارف من بأس . وماأحسن ماقاله الشريف الرضى الموسوى[١١٢] :

لابد أن أركبها صعبة   وقاحة تحت علام وقاح
اجهدها او تنثني بالردا   دون الذى املت او بالنجاح
اما فتى نال المنى فاشتفى   او بطل ذاق الردى فاستراح

وكنت فى أيام الطلب ، وعصر الشباب ، قد نظمت قصيدة فى هذا المعنى على هذا النمط ، أذكر منها الآن أبياتا هى :

قد أتعب السير رحالى وقد   آن لها بعد الوجى ان تُراح
فما يهاب العتب من فاز من   غاية أمنيه بالنجاح
سعى فلما ظفرت بالمنى   يمينه ألقى العصى واستراح

فيأيها العالم الصعلوك ، قد ظفرت برتبة أرفع من رتب الملوك ، ونلت من المعالى أعلاها ، ومن المناقب والفضائل أولاها بالشرف وأولاها . فإن كل المعالى الدنيوية وإن تناهت فليست باعتبار المعالى العلمية والشرف الحاصل بها فى ورد ولا صدر .

فإنه يحصل للعالم أولًا وبالذات : الفوز بالنعيم الأخروى الدائم السرمدى الذى لا تعدل منه الدنيا بأسرها قيد شرط ، بل مقدار سوط .

ويحصل له ثانياً وبالعرض : من شرف الدنيا مايصغر عنده كل شرف ، ويتقاصر دونه كل مجد ، ويتضاءل لديه كل فخر . وإن من فهم مقدار مافى العلوم من العلو كان عند نفسه أعز قدراً وأعلا محلا وأجل رتبة من الملوك ،

---

(١١٢) محمد بن الحسين الشريف الرضي العلوى الحسينى الموسوي : (٣٥٩ ـ ٤٠٦ هـ = ٩٧٠ ـ ١٠١٥ م) ، أشعر الطالبيين ، على كثرة المجيدين فيهم . مولده ووفاته ببغداد . انتهت إليه نقابة الأشراف فى حياة والده . له «ديوان شعر» فى مجلدين ، و«المجازات النبوية» ، و«حقائق التأويل فى متشابه التنزيل» . وفيات الأعيان ٢ : ٢ ، وتاريخ بغداد ٢ : ٢٤٦ ، والذريعة ٧ : ١٦ ، يتيمة الدهر ٢ : ٢٩٧ ـ ٣١٥ .

وإن كانَ متضايق المعيشة ، يركب نعليه ويلبس طمريه* . وقلت فى هذا المعنى من أبيات :

قد كنت ذا طمرين أمرح فى العلا مرح الأغر بجانب الميدان
ماكنت مضطهدا فأطلب رفعة أو خاملا فأريد شهرة شانى

فاحرص أيها الطالب على أن تكون من أهل الطبقة الأولى ، فإنك إذا ترقيت من البداية التصورية ، إلى العلة الغائية ، التى هى أول الفكر ، وآخر العمل ، كنت فرد العالم ، وواحد الدهر ، وقريع الناس ، وفخر العصر ، ورئيس القرن . وأى شرف يسامى شرفك ، أو فخر يدانى فخرك ، وأنت تأخذ دينك عن الله وعن رسوله ، لاتقلد فى ذلك أحداً ، ولاتقتدى بقول رجل ، ولاتقف عند رأى ، ولاتخضع لغير الدليل ، ولاتعوّل على غير النقد .

هذه والله رتبة تسمو على السماء ، ومنزلة تتقاصر عندها النجوم . فكيف بك إذا كنت مع هذه المزية مرجعا فى دين الله ، ملجأ لعباد الله ، مترجما لكتاب الله وسنة رسول الله ، يدوم لك الأجر ، ويستمر لك النفع ، ويعود لك الخير ، وأنت بين أطباق الثرى ، وفى عداد الموتى ، بعد مئين من السنين .

ولايحول بينك وبين هذا المطلب الشريف ماتنازعك نفسكٍ إليه من مطالب الدنيا التى تروقها وتود الظفر بها ، فإنها حاصلة لك على الوجه الذى تحب ، والسبيل الذى تريد ، بعد تحصيلك لما أرشدتك إليه من الرتبة العلمية ، وتكون إذ ذاك مخطوبا لاخاطبا ، ومطلوبا لاطالبا .

وعلى فرض أنها تكدى عليك المطالب ، وتعاند الأسباب ، فلست تعدم الكفاف الذى لابد لك منه . فما رأينا عالماً ولامتعلما مات جوعاً ، ولاأعوزه الحال حتى انكشفت عورته عرياً ، أو لم يجد مكاناً يكنه ، ومنزلاً يسكنه ، وليس الدنيا إلا هذه الأمور ، وماعداها فضلات مشغلة للأحياء مهلكة للأموات .

أنا إن عشت لست أعدم قوتا وإذا مت لست أعدم قبراً

---

* الطِّمْرُ : الثوب الخلَق البالى . والجمع أطمار .

وعلى العاقل أن يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتبه الله له ، ولا يعدوه ما قدّره له ، وأنه قد فرغ من أمر رزقه الذى فرضه الله له . فلا القعود يصده ، ولا السعى واتعاب النفس يوجب الوصول إلى مالم يأذن به الله .

وهذا معلوم من الشرع ، قد توافق عليه صريح الكتاب والسنة ، وتطابقت عليه الشرائع . وإذا كان الأمر هكذا ، فما أحق هذا النوع العاقل من الحيوان الذى دارت رحى التكليف عليه ، ونيطت أسباب الخير والشر به ، أن يشتغل بطلب ما أمره الله بطلبه ، وتحصيل ما خلقه الله لتحصيله ، وهو الامتثال لما أمره به من طاعته ، والانتهاء مما نهاه عنه من معاصيه .

وإن أعظم ما يريده الله منه ، ويقربه إليه ، ويفوز به عنده ، أن يشغل نفسه ، ويستغرق أوقاته فى طلب معرفة هذه الشريعة التى شرعها الله لعباده ، وينفق ساعاته فى تحصيل هذا الأمر الذى جاءت به رسل الله إلى عباده ، ونزلت به ملائكته . فإن جميع ما يريده الله من عباده عاجلاً وآجلاً ، وما وعدهم به من خير وشر ، قد صار فى هذه الشريعة .

فأكرم برجل تاقت نفسه عن أن يكون عبد بطنه إلى أن يكون عبد دينه ، حتى يناله على الوجه الأكمل ، ويعرفه على الوجه الذى أراده الله منه ، ويرشد إليه من عباده من أراد له الرشاد ، ويهدى به من استحق الهداية . فانظر أعزك الله كم الفرق بين الرجلين ، وتأمل قدر مسافة التفاوت بين الأمرين . هذا يستغرق جميع أوقاته ، وينفق كل ساعاته فى تحصيل طعامه وشرابه وملبسه وما لابد منه قام أو قعد سعى أو وقف ، وهذا يقابله بسعى غير هذا السعى وعمل غير ذلك العمل ، فينفق ساعاته ، ويستغرق أوقاته فى طلب ما جاء عن الله وعن رسوله ، من التكاليف التى كلف بها عباده ، وما أذن به من إبلاغه إليهم من أمور دنياهم وأخراهم لينتفع بذلك ، ثم ينفع به من يشاء الله من عباده ، ويبلغ إليهم حجة الله ، ويعرفهم شرائعه .

فلقد تعاظم الفرق بين النوعين ، وتفاوت تفاوتا يقصر التعبير عنه ، ويعجز

البيان له ، إلا على وجه الإجمال بأن يقال إن أحد النوعين قد التحق بالدواب ، والآخر بالملائكة ؛ لأن كل واحد منهما قد سعى سعياً شابه من التحق به ، فإن الدابة يستعملها مالكها فى مصالحه ، ويقوم بطعامها وشرابها وما يحتاج إليه . ومع هذا فمن نظر فى الأمر بعين البصيرة ، وتأمله حق التأمل ، وجد عيش من شغل نفسه بالطاعة ، وفرغها للعلم ، ولم يلتفت إلى ما تدعو إليه الحاجة من أمر دنياه، تجده أرفه، وحاله أقوم، وسروره أتم ، وتلك حكمة الله البالغة التى يتبين عندها أنه لن يعدو المرء ما قدر له ، ولن يفوته ما كان يدركه .

وكما ان هذا المعنى الذى ذكرناه ، ثابت فى الشريعة ، مصرح به فى غير موطن منها ، قد أجراه الله على لسان الجبابرة من عباده وعتاة أمته ، حتى قال الحجاج بن يوسف الثقفى(١١٣) فى بعض خطبه ما معناه : أيها الناس ، إن الله كفانا أمر الرزق ، وأمرنا بالعبادة ، فسعينا لما كفيناه ، وتركنا السعى للذى أمرنا به ، فليتنا أمرنا بطلب الرزق ، وكفينا العبادة ، حتى نكون كما أراده الله منا . هذا معنى كلامه لا لفظه . فلما بلغ كلامه هذا بعض السلف المعاصرين له قال : إن الله لا يخرج الفاجر من هذه الدار وفى قلبه حكمة ينتفع بها العباد إلا أخرجها منه ، وإن هذا مما أخرجه من الحجاج .

فانظر هذا الجبار كيف لم يخف عليه هذا الأمر ، مع ما هو فيه من التجبر ، وسفك الدماء ، وهتك الحرم ، والتجرؤ على الله ، وعلى عباده ، وتعدى حدوده . فما أحقه بأن لا يخفى على من هو ألين منه قلبا ، وأقل منه ظلما ، وأخف منه تجبرا ، وأقرب منه من خير ، وأبعد منه من شر .

وان من تصور هذا الأمر حق التصور ، وتعقله كما ينبغى ، انتفع به انتفاعا عظيما ، ونال به من الفوائد جسيما ، والهداية بيد الهادى جل جلاله وتقدست أسماؤه .

---

(١١٣) الحجاج بن يوسف الثقفى : (٤٠ ـ ٩٥ هـ = ٦٦٠ ـ ٧١٤ م) ، قائد ، داهية سفاك ، خطيب . قلده عبد الملك بن مراون أمر عسكره فقمع ثورة عبد الله بن الزبير بالحجاز ، ثم قمع ثورات أهل العراق ، وثبتت له الإمارة عشرين سنة . تهذيب التهذيب ٢ : ٢١٠ ، ووفيات الأعيان ١ : ١٢٣ ، وابن الأثير ٤ : ٢٢٢ .

وإن لحسن النية ، وإخلاص العمل ، تأثيرا عظيما فى هذا المعنى ، فمن تعكست عليه بعض أموره من طلبة العلم ، أو اكلف عليه مطالبه ، وتضايقت مقاصده ، فليعلم أنه بذنبه أصيب ، وبعدم إخلاصه عوقب ، أو أنه أصيب بشىء من ذلك محنة له وابتلاء واختبارا لينظر كيف صبره واحتماله ، ثم يفيض عليه بعد ذلك من خزائن الخير ومخازن العطايا مالم يكن بحسبان ، ولا يبلغ إليه تصوره . فليعض على العلم بناجذه ، ويشد عليه يده ، ويشرح به صدره ، فإنه لا محالة واصل إلى المنزل الذى ذكرنا ، نائل للمرتبة التى بيّنا .

وما أحسن ما حكاه بعض أهل العلم عن الحكيم أفلاطون(١١٤) ، فإنه قال : الفضائل مُرة الأوائل ، حلوة العواقب ، والرذائل حلوة الأوائل مُرة العواقب .

وقد صدق فإن من شغل أوائل عمره وعنفوان شبابه ، بطلب الفضائل ، لابد له أن يفطم نفسه عن بعض شهواتها ، ويحبسها عن الأمور التى يشتغل بها أترابه ومعارفه ، من الملاهى ، ومجالس الراحة ، وشهوات الشباب . فإذا انتهى إليه ما هم فيه من تلك اللذات والخلاعات ، وجد فى نفسه بحكم الشباب ، وحداثة السن ، وميل الطبع ، ما هناك مرارة ، واحتاج إلى مجاهدة يرد بها جامح طبعه ، ومتفلت هواه ، ومتوثب نشاطه ، ولا يتم له ذلك إلا بالجام شهوته بلجام الصبر ، وربطها بمربط العفة .

وكيف لا يجد مرارة الحبس للنفس من كان فى زاوية من زوايا المساجد ، ومقصورة من مقاصر المدارس ، لا ينظر إلا فى دفتر ، ولا يتكلم إلا فى فن من الفنون ، ولا يتحدث إلا إلى عالم أو متعلم ، وأترابه ومعارفه من قرابته وجيرانه وذوى سنه وأهل نشأته وبلده يتقلبون فى رافه العيش ورائق القصف* .

وإذا انضم لذلك الطالب إلى هذه المرارة الحاصلة له بعزف النفس عن شهواتها مرارة أخرى ، هى اعواز الحال ، وضيق المكسب ، وحقارة الدخل ، فإنه لابد أن يجد من المرارة المتضاعفة ما يعظم عنده موقعه ، لكنه يذهب عنه قليلًا قليلًا .

---

(١١٤) من كبار الفلاسفة فى كل العصور . سبق التعريف به .

* القصف : اللهو واللعب والافتنان فى الطعام والشراب .

فأول عقدة تنحل عنه من عقد هذه المرارة عندما يتصور ما يؤول به الأمر ، الأمر ، وينتهى إليه حاله من الوصول إلى ما قد وصل إليه من يجده فى عصره من العلماء .

ثم تنحل عنه العقدة الثانية بفهم المباحث ، وحفظ المسائل ، وإدراك الدقائق ؛ فإنه عند ذلك يجد من اللذة والحلاوة ما يذهب بكل مرارة .

ثم إذا نال من المعارف حظاً ، وأحرز منها نصيباً ، ودخل فى عداد أهل العلم ، كان متقلبا فى اللذات النفسانية ، التى هى اللذات بالحقيقة . ولا يعدم عند ذلك من اللذات الجسمانية ما هو أفضل ، وأحلى من اللذات التى يتقلب فيها كل من كان من أترابه .

وهو إذا وازن بين نفسه الشريفة وبين فرد معارفه الذين لم يشتغلوا بما اشتغل به ، اغتبط بنفسه غاية الاغتباط ، ووجد من السرور والحبور ما لا يقادر قدره . هذا باعتبار ما يجده من اللذة النفسانية عند أن يجد نفسه عالمة ونفس معارفه جاهلة .

ويزداد ذلك بما يحصل له من لوازم العلم من الجلالة ، والفخامة ، وبُعد الصيت ، وعظم الشهرة ، ونبالة الذكر ، ورفعة المحل ، والرجوع إليه فى مسائل الدين ، وتقديمه على غيره فى مطالب الدنيا ، وخضوع من كان يزرى عليه ، ويستخفف مكانه ، من بنى عصره ، فإذا جمعهم مجلس من مجالس الدنيا ، كانوا له بمنزلة الخدم ، وإن كان على غاية من الإفلاس والعدم .

ثم إذا تناهى حاله ، وبلغ من الحظ فى العلم إلى مكان علىّ ، انثال عليه الطلبة للعلوم ، وأقبل إليه المستفتون فى أمر الدين ، واحتاج إليه ملوك الدنيا ، فضلا عن غيرهم ؛ فيكون عند هذا عيشه حلواً محضاً ، وعمره مغموراً باللذات النفسانية والجسمانية ، ويرتفع أمره عن هذه الدرجة ارتفاعا لا يقادر قدره إذا تصور ماله عند الله من عظيم المنزلة ، وعلىّ الرتبة ، وعظيم الجزاء الذى هو المقصود أولا وبالذات من علوم الدين .

وكنت فى أوائل أيام طلبى للعمل فى سن البلوغ ، وبعدها بقليل ، تصورت ما ذكرته هنا فقلت :

سددت الأذن عن داعى التصابى فلا داع لدىّ ولا مجيب
وأنفقت الشبيبة غير وانٍ لمجد الشيب فليهن المشيب

وقلت أيضا رامزاً إلى هذا المعنى :

وأبدى رغبة لنجود نجدٍ وشوقا لا نتشاق منه ريحاً
وما بسوى العقيق أقام قلبى وأضحى بين أهليه طريحاً

وأما كون الرذائل ، حلوة الأوائل ، مُرة العواقب ، فصدق هذا غير خاف على ذى لب ؛ فإن من أرسل عنان شبابه فى البطالات ، وحل رباط نفسه فأجراها فى ميادين اللذات ، أدرك من اللذة الجسمانية من ذلك بحسب ما يتفق له منها ، ولا سيما إذا كان ذا مال وجمال . ولكنها تنقضى عنه اللذة ، وتفارقه هذه الحلاوة ، إذا تكامل عقله ، ورجح فهمه ، وقوى فكره ، فإنه لا يدرى عند ذلك ما يدهمه من المرارات التى منها الندامة على ما اقترفه من معاصى الله ، ثم الحسرة على ما فوته من العمر فى غير طائل ، ثم على ما أنفقه من المال فى غير حلة ، ولم يفز من الجميع بشىء ، ولا ظفر من الكل بطائل .

وتزداد حسرته ، وتتعاظم كربته ، إذا قاس نفسه بنفس من اشتغل بطلب المعالى من أترابه ، فى مقتبل شبابه ، فإنه لا يزال عند موازنة ذاته بذاته ، وصفاته بصفاته ، فى حسرات متجددة ، وزفرات متصاعدة ، ولا سيما إذا كان بيته فى العلم طويل الدعائم ، وسلفه من المتأهلين لتلك المعالى والمكارم ، فإنه حينئذ تذهب عنه سكرة البطالة ، وتنقشع عنه عماية الجهالة ، بكروب طويلة ، وهموم ثقيلة ، وقد فاته ما فات ، وحيل بين العير والنزوان ، وحال الجريض دون القريض ، وفى الصيف ضيعت اللبن .

فانظر أعزك الله أى الرجلين أربح صفقة ، وأكثر فائدة ، وأعظم عائدة . فقد بيّن الصبح لذى عينين ، وعند الصباح يحمد القوم السرى .

ولنعد الآن إلى بيان ما يحتاج اليه أهل تلك الطبقات من العلوم ، وما ينبغي لهم ان يشتغلوا به ، فنقول :

كيفية الوصول إلى المرتبة الأولى للعلم

أما أهل الطبقة الأولى التى هى فى أرفع مكان وأعز محل يرتقى إليه علماء الشريعة ، على حسب ما قدمنا بيانه ، فينبغى لمن تصور الوصول إليها ، وقصد الإدراك لها :

*علم النحو :

أن يشرع بعلم النحو ، مبتدئاً بالمختصرات ، كمنظومة الحريرى[١١٥] المسماه بالملحة[١١٦] ، وشروحها[١١٧] .

فإذا فهم ذلك ، وأتقنه ، انتقل إلى كافية ابن الحاجب[١١٨]

---

(١١٥) القاسم بن على بن محمد بن عثمان ، الحريرى : (٤٤٦ - ٥١٦ هـ = ١٠٥٤ - ١١٢٢ م) ، أديب كبير ، قال مرجليوث : ترجم شولتنز وريسكه نماذج من مقامات الحريرى إلى اللاتينية فى القرن الثامن عشر ، وظهر لها تراجم فى كثير من اللغات الأوربية الحديثة . واسم مقاماته «مقامات أبى زيد السروجى» وله «درة الغواص فى أوهام الخواص» . نزهة الجليس ٢ : ٢ ، ومفتاح السعادة ١ : ١٧٩ ، ووفيات الأعيان ١ : ٤١٩ ، والأعلام ٥ : ١٧٧ - ١٧٨ .

(١١٦) اسمها كاملًا : «ملحة الإعراب» وهي مطبوعة .

(١١٧) من شروحها : شرح لمحمد بن عمر ، وآخر لعبد الملك بن دعسين .

(١١٨) عثمان بن عمر بن أبى بكر ، ابن الحاجب : (٥٧٠ - ٦٤٦ هـ = ١١٧٤ - ١٢٤٩) ، فقيه مالكى ، من كبار العلماء بالعربية . ولد فى إسنا بمصر ومات بالإسكندرية . وكان أبوه حاجباً فعرف به من تصانيفه «الكافية» المشار إليها أعلاه ، و«الأمالى النحوية» . وفيات الأعيان ١ : ٣١٤ ، والطالع =

وشروحها[119] ، ومغنى اللبيب[120] وشروحه .

هذا باعتبار هذه الديار اليمنية إذا كان طالب العلم فيها ؛ لأنه يجد شيوخ هذه المصنفات ، ولا يجد شيوخ غيرها من مصنفات النحو ، إلا باعتبار الوجادة[121] ، لا باعتبار السماع . فإذا كان ناشئا فى أرض يشتغلون فيها بغير هذه المصنفات ، فعليه الاشتغال بما اشتغل به مشائخ تلك الأرض ، مبتدئا بما هو أقربها تناولًا ، منتهيا إلى ما هو النهاية للمشتغلين بذلك الفن وذلك القطر .

فاعرف هذا ، واعلم أن ما أسميه ههنا إنما هو باعتبار ما يشتغل به الناس فى الديار اليمنية . فمن كان فى غيرها ، فليأخذ عن شيوخها فى كل فن مقدارا يوافق ما أذكره هنا .

واعلم أنه لا يستغنى طالب العلم المتصور المتبحر فى علم الشريعة ، العازم على أن يكون من أهل الطبقة الأولى ، عن اتقان ما اشتمل عليه شرح الرضى على الكافية[122] من المباحث اللطيفة ، والفوائد الشريفة ، وكذلك ما فى **«مغنى اللبيب»**[123] من المسائل الغريبة .

ويكون اشتغاله بسماع شروح المختصرات ، بعد أن تكون هذه المختصرات

= السعيد ١٨٨ ، وآداب اللغة ٣ : ٥٣ ، والأعلام ٤ : ٢١١ .

(١١٩) من شروح الكافية : شرح الرصاص ، وآخر لابن هطيل ، وشرح الرضى وهو أشهرها .

(١٢٠) هو كتاب «مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب» ، لعبد الله بن يوسف ، المعروف بابن هشام : (٧٠٨ - ٧٦١ هـ = ١٣٠٩ - ١٣٦٠ م) ، من كبار علماء العربية . مولده ووفاته بمصر . من مصنفاته «قطر الندى» ، و«أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» . الدرر الكامنة ٢ : ٣٠٨ ، ومفتاح السعادة ١ : ١٥٩ ، والنجوم الزاهرة ١٠ : ٣٣٦ .

(١٢١) (الوِجادة) بكسر الواو ، مصدر «وجد» ، وهذا المصدر مولد غير مسموع من العرب . والمراد به أن يجد الطالب الكتاب ثم يتعلم منه بنفسه دون السماع من شيخ .

(١٢٢) اسم هذا الشرح «الوافية فى شرح الكافية» فى النحو ، جزآن ، أكمله مؤلفه سنة ٦٨٦ هـ . وهو مطبوع . واسم مؤلفه : محمد بن الحسن الرضى ، نجم الدين : عالم بالعربية ، من أهل أستراباذ ، (من أعمال طبرستان) . وله أيضاً شرح لمقدمة ابن الحاجب مسماة بـ«الشافية» فى علم الصرف . مات سنة ٦٨٦ هـ = ١٢٨٧ م . خزانة الأدب للبغدادى ١ : ١٢ ، ومفتاح السعادة ١ : ١٤٧ ، وكشف الظنون ١٠٢١ و ١٣٧٠ .

(١٢٣) سبق الإشارة إليه .

محفوظة له حفظاً يمليه عن ظهر قلب ، ويبديه من طرف لسانه . وأقل الأحوال أن يحفظ مختصرا منها هو أكثرها مسائل ، وأنفعها فوائد .

ولا يفوته النظر فى مثل الألفية لابن مالك(١٢٤) وشروحها(١٢٥) ، والتسهيل وشرحه(١٢٦) والمفصل للزمخشرى(١٢٧) ، والكتاب لسيبويه(١٢٨) ؛ فإنه يجد فى هذه الكتب من لطائف المسائل النحوية ، ودقائق المباحث العربية ، مالم يكن قد وجده فى تلك .

وينبغى للطالب المذكور أن يطلع على مختصرات المنطق ، ويأخذه عن شيوخه ، ويفهم معانيه ، بعد أن يفهم النحو ، يفهم مايبتدىء به من كتبه ليستعين بذلك على فهم مايورده المصنفون فى مطولات كتب النحو ومتوسطاتها من المباحث النحوية .

ويكفيه فى ذلك مثل المختصر المعروف بايساغوجى(١٢٩) ، أو تهذيب

---

(١٢٤) محمد بن عبد الله ، ابن مالك الطائى : (٦٠٠ - ٦٧٢ هـ = ١٢٠٣ - ١٢٧٤ م) ، أحد الأئمة فى علوم العربية . ولد فى جيان بالأندلس ومات بدمشق بغية الوعاة ٥٣ ، وغاية النهاية ٢ : ١٨٠ .

(١٢٥) أشهر شروحها : «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» لابن هشام .

(١٢٦) اسمه كاملًا «تسهيل الفوائد» وهو لابن مالك أيضاً ، وشرحه كذلك له .

(١٢٧) محمود بن عمر ، جار الله ، الزمخشرى : (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ = ١٠٧٥ - ١١٤٤ م) ، من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب . وكان معتزلى المذهب ، مجاهرا ، شديد الإنكار على المتصوفة . من كتبه «نوابغ الكلم» ، و«أساس البلاغة» . وفيات الأعيان ٢ : ٨١ ، وإرشاد الأريب ٧ : ١٤٧ ، ولسان الميزان ٦ : ٤ .

(١٢٨) عمرو بن عثمان بن قنبر ، الملقب سيبويه : (١٤٨ - ١٨٠ هـ = ٧٦٥ - ٧٩٦ م) ، إمام النحاة ، وأول من بسط علم النحو . وكتابه المسمى «كتاب سيبويه» فى النحو ، لم يصنع قبله ولا بعده مثله . وكان أنيقاً جميلًا ، مات شاباً . ابن خلكان ١ : ٣٨٥ ، والبداية والنهاية ١٠ : ١٧٦ وتاريخ بغداد ١٢ : ١٩٥ .

(١٢٩) «إيساغوجى» : الكليات الخمس ، وهو لفظ يونانى قديم . ومؤلفه : المفضل بن عمر الأبهرى ابن السمرقندى ، أثير الدين : منطقى ، له اشتغال بعلوم الفلسفة . من كتبه أيضاً «هداية الحكمة» ، و«درايات الأفلاك» . توفى ٦٦٣ هـ = ١٢٦٤ م . آداب اللغة ٣ : ١٠٥ ، وابن العبرى ٤٤٥ ، وسركيس ٢٩٠ .

السعد[١٣٠] ، وشرح من شروحهما . وسيأتى بيان ماينبغى الاشتغال به من فن المنطق إن شاء الله ، وليس المراد هنا إلا الاستعانة بمعرفة مباحث التصورات والتصديقات إجمالا ؛ لئلا يعثر على بحث من مباحث العربية من نحو أو صرف أو بيان قد سلك فيه صاحب الكتاب مسلكا على النمط الذى سلكه أهل المنطق ، فلا يفهمه ، كما يقع كثيراً فى الحدود والالزامات ؛ فإن أهل العربية يتكلمون فى ذلك بكلام المناطقة ، فإذا كان الطالب عاطلا عن علم المنطق بالمرة لم يفهم تلك المباحث كما ينبغى .

*علم الصرف :

ثم بعد ثبوت الملكة له فى النحو ، وإن لم يكن قد فرغ من سماع ماسميناه ، يشرع فى الاشتغال بعلم الصرف ، كالشافية[١٣١] وشرحها ، والريحانية ولامية الأفعال[١٣٢] .

ولا يكون عالما بعلم الصرف كما ينبغى ، إلا بعد أن تكون الشافية من محفوظاته ؛ لانتشار مسائل فن الصرف ، وطول ذيل قواعده ، وتشعب أبوابه .

ولا يفوته الاشتغال بشرح الرضى[١٣٣] على الشافية ، بعد أن يشتغل بما هو

(١٣٠) اسمه : « تهذيب المنطق والكلام » . ومؤلفه مسعود بن عمر التفتازانى ، سعد الدين : (٧١٢ - ٧٩٣ هـ = ١٣١٢ - ١٣٩٠ م) ، من أئمة العربية والبيان والمنطق . من مصنفاته أيضاً « التلويح إلى كشف غوامض التنقيح » ، و« مقاصد الطالبين » . بغية الوعاة ٣٩١ ، ومفتاح السعادة ١ : ١٦٥ ، والدرر الكامنة ٤ : ٣٥٠ ، والأعلام ٧ : ٢١٩ .

(١٣١) لابن الحاجب سبقت له ترجمة .

(١٣٢) لابن مالك . سبقت له ترجمة .

(١٣٣) سبقت له ترجمة .

أخصر منه من شرحها ، كشرح الجاربردى[١٣٤] ولطف الله الغياث[١٣٥] ؛ فإن فيه من الفوائد الصرفية مالا يوجد فى غيره .

*علم المعانى والبيان :

ثم ينبغى له بعد ثبوت الملكة له نحوا وصرفا ، وإن لم يكن قد فرغ من سماع كتب الفنين ، أن يشرع فى علم المعانى والبيان ، فيبتدىء بحفظ مختصر من مختصرات الفن ، يشتمل على مهمات مسائله ، كالتلخيص و شرح السعد[١٣٦] المختصر وماعليه من الحواشى وشرحه المطول وحواشيه فإنه إذا حفظ هذا المختصر ، وحقق الشرحين المذكورين ، وحواشيهما ، بلغ إلى مكان من الفن مكين . فقد أحاطت هذه الجملة بما فى مؤلفات المتقدمين من شراح المفتاح ونحوه. وإذا ظفر بشىء من مؤلفات عبد القاهر الجرجانى[١٣٧] ، والسكاكى[١٣٨] ، فى هذا الفن ، فليمعن النظر فيه ؛ فإنه يقف فى تلك المؤلفات على فوائد .

---

(١٣٤) أحمد بن الحسن بن يوسف ، فخر الدين الجاربردى : فقيه شافعى . توفى سنة ٧٤٦ هـ = ١٣٤٦ م فى تبريز . وشرحه على الشافية مخطوط فى الأزهرية ودار الكتب المصرية . وله أيضاً : « حاشية على الكشاف » ، و« شرح مناهج البيضاوى » فى أصول الفقه . البدر الطالع ١ : ٤٧ ، والدرر الكامنة ١ : ١٢٣ ، والأزهرية ٤ : ٧٨ ، ودار الكتب ٢ : ٢٥٢ .

(١٣٥) لطف الله بن محمد الغياث الظفيرى : من علماء اليمن . وشرحه على الشافية اسمه « المناهل الصافية » . وله أيضاً : « حاشية على مختصر السعد » فى المنطق ، و« أرجوزة فى الفرائض » . توفى سنة ١٠٣٥ هـ = ١٦٢٦ م) . خلاصة الأثر ٣ : ٣٠٣ ، وجامعة الرياض ١ : ١٣ ، والأعلام ٥ : ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

(١٣٦) سبقت له ترجمة .

(١٣٧) فى الأصل « عبد القادر الجرجانى » وهو خطأ ، والصواب « عبد القاهر الجرجانى » وهو ماأثبتناه أعلاه . وعبد القاهر : هو واضع أصول البلاغة ، ومن أئمة اللغة . من كتبه « إعجاز القرآن » ، و« دلائل الإعجاز » ، و« أسرار البلاغة » توفى ٤٧١ هـ - ١٧٨ م بغية الوعاة . ٣١٠ ، وآداب اللغة ٣ : ٤٤ ، ومرآة الجنان ٣ : ١٠١ .

(١٣٨) يوسف بن أبى بكر ، السكاكى ، سراج الدين : (٥٥٥ ـ ٦٢٦ هـ = ١١٦٠ ـ ١٢٢٩ م) ، عالم بالعربية والأدب . مولده ووفاته بخوارزم من كتبه « مفتاح العلوم » ، و« رسالة فى علم المناظرة » . مفتاح السعادة ١ : ١٦٣ ، والجواهر المضية ٢ : ٢٢٥ ، وبغية الوعاة ٤٢٥ .

*فن الوضع والمناظرة :

وينبغى له حال الاشتغال بهذا الفن ، أن يشتغل بفنون مختصرة قريبة المأخذ ، قليلة المباحث ، كفن الوضع ، وفن المناظرة ، ويكفيه فى الأول رسالة الوضع(١٣٩) وشرح من شروحها . وفى الثانى أدب البحث العضدية(١٤٠) وشرح من شروحها .

وقد تشعبت مسائل علم المناظرة فى الأزمنة الأخيرة ، فوصل رجل من الأكراد من طلبة العلم ، ومعه رسالة وشرحها ، يذكر أنها لبعض علماء الهند ، ولم يعرف اسمه ، وفيها من الفوائد وشروحها والتفاصيل مالا يوجد فى الآداب العضدية وشروحها إلا ماهو بالنسبة إليه كالرموز . وقد نقلها الناس عنه ، وانتشرت بين علماء صنعاء ، وهى فى نحو ثلاثة كراريس ، مشتملة على مقدمة وتسعة مباحث . ولا يستغنى طالب هذا الفن عن إمعان النظر فيها . وقد اشتغلت بهذه الرسالة ، وقابلتها معه على نسخته ــ ولم يكن له من الفهم والاستعداد ما يبلغ به إلى أن تؤخذ عنه هذه الرسالة وشرحها رواية ولا دراية ، مع كونه كان من أهل الصلاح ، والاكباب على الطلب ، والرغبة فى العلم .

وكما تشعبت مباحث علم المناظرة ، فقد تشعبت أيضا عند المتأخرين مباحث علم البديع ؛ فإن الموجود فى كتب المتقدمين من أنواعه اللفظية والمعنوية دون أربعين نوعاً ، وعند أهل البديعيات زيادة على مائة وخمسين نوعاً .

---

(١٣٩) للشريف الجرجانى صاحب (التعريفات) المتوفى سنة ٨١٦ هـ وهو غير عبد القاهر الجرجانى صاحب (دلائل الإعجاز) .

ومن المصنفات الهامة فى علم الوضع « الرسالة العضدية » لعضد الدين الإيجى .

(١٤٠) لعضد الدين الإيجى المشار إليه فى الهامش السابق ، وهو عالم بالأصول والمعانى والعربية . من أهل إيج بفارس ، ولى القضاء ، وأنجب تلاميذ عظاماً . وجرت له محنة مع صاحب كرمان ، فحبسه بالقلعة ، فمات مسجوناً مات سنة ٧٥٦ هـ = ١٣٥٥ م . بغية الوعاة ٢٩٦ ، ومفتاح السعادة ١ : ١٦٩ ، والدرر الكامنة ٢ : ٣٢٢ .

وأخبرنى الشيخ عبد الرحمن بن أحمد الرئيس[١٤١] من علماء الحرم المكى . عند وفوده إلى صنعاء : أنه قد أنهاها بعض المتاخرين إلى نحو سبع مائة نوع ، وأنه وقف على رسالة أو منظومة ــ الشك منى ــ لبعض المتأخرين ، تشتمل على ذلك .

وأنا بحمد الله قد استخرجت أنواعا من البديع ، وذكرت لها أسماء خارجة عن الأسماء التى ذكرها أهل هذا العلم ، وذكرت أبياتا اشتملت على ذلك[١٤٢] .

*المؤلفات المشتملة على بيان مفردات اللغة عموماً وخصوصاً :

ثم ينبغى له أن يكب على مؤلفات اللغة المشتملة على بيان مفرداتها ، كالصحاح[١٤٣] ، والقاموس[١٤٤] ، وشمس العلوم[١٤٥] ، وضياء الحلوم[١٤٦] ،

(١٤١) عبد الرحمن بن أحمد : (١١٨٢ ـ ١٢٤٨ هـ = ١٧٦٨ ـ ١٨٣٢ م) ، من مؤلفاته : « الأفاويق بتراجم البخارى والتعاليق » ، و« تفسير اليسرى بشرح المجتبى من السنن الكبرى » للنسائى . نيل الوطر ٢ : ٢٣ ، والأعلام ٣ : ٢٩٨ .

(١٤٢) وذلك فى كتاب « الروض الوسيع فى عدم انحصار البديع » .

(١٤٣) وهو مطبوع فى مجلدين ، للجوهرى المتوفى ٣٩٣ هـ = ١٠٠٣ م . معجم الأدباء ٢ : ٢٦٩ ، ويتيمة الدهر ٤ : ٢٨٩ .

(١٤٤) اسمه كاملًا : « القاموس المحيط » وهو مطبوع فى أربعة أجزاء ، للفيروز ابادى (٧٢٩ ـ ٨١٧ هـ = ١٣٢٩ ـ ١٤١٥ م) .
مفتاح السعادة ١ : ١٠٣ ، وكشف الظنون ١٦٥٧ .

(١٤٥) اسمه كاملًا : « شمس العلوم ودواء العرب من الكلوم » مطبوع مجلدين منه ، وهو فى ثمانية ، وطبعت منتخبات منه تتعلق بأخبار اليمن ، ومنه نسخة كاملة فى أربعة أسفار ينقصها السفر الأول ، مصورة فى معهد المخطوطات (الرقم ٣٩٦ ـ ٣٩٨ سعودية) . وهو لنشوان الحميرى المتوفى ٥٧٣ هـ = ١١٧٨ م.الكنوز ١ : ١٨٦ ، ومنتخبات من تاريخ اليمن ٤٠ ـ ٤١ ، والأعلام ٨ ٢ .

(١٤٦) اسمه كاملًا : « ضياء الحلوم فى مختصر شمس العلوم » وهو مختصر للكتاب السالف ، لمحمد بن نشوان الحميرى المتوفى ٦١٠ هـ = ١٢١٣ م . الأعلام ٧ : ١٢٣ ، ومشاركة العراق الرقم ٢١٦ ، وهدية ٢ : ١٠٩ .

وديوان الادب (١٤٧) ، ونحو ذلك من المؤلفات المشتملة على بيان اللغة العربية عموماً أو خصوصاً ، كالمؤلفات المختصة بغريب القرآن والحديث .

★علم المنطق :

ثم يشتغل بعد هذا بعلم المنطق ، فيحفظ مختصرا من مختصراته ، كالتهذيب(١٤٨) ، أو الشمسية(١٤٩) . ثم يأخذ فى سماع شروحهما على أهل الفن . فإن العلم بهذا الفن على الوجه الذى ينبغى يستفيد به الطالب مزيد إدراك ، وكمال استعداد ، عند ورود الحجج العقلية عليه . وأقل الأحوال أن يكون على بصيرة عند وقوفه على المباحث التى يوردها المؤلفون فى علوم الاجتهاد من المباحث المنطقية كما يفعله كثير من المؤلفين فى الأصول والبيان والنحو .

★فن أصول الفقه :

ثم يشتغل بفن أصول الفقه ، بعد أن يحفظ مختصرا من مختصراته المشتملة

---

(١٤٧) توجد منه نسخة فى خالدية القدس ، كتبت سنة ٥٨٨ هـ ، ونسخة أخرى كتبت سنة ٦١١ فى حلب وهى بمكتبة مغنسيا برقم ٢٨٢٤ . ومؤلف الكتاب : هو إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابى : أديب غزير فى مادته العلمية . وهو خال الجوهرى صاحب الصحاح . وقد توفى نحو ٣٥٠ هـ = ٩٦١ م . معجم الأدباء ٢ : ٢٢٦ . وبغية الوعاة ١٩١ ، ومجلة المجمع العلمى ٢٢ : ٥٠٧ .

(١٤٨) سبقت الإشارة إليه .

(١٤٩) هى رسالة فى قواعد المنطق ، صنفها على بن عمر بن على الكاتبى القزوينى : (٦٠٠ - ٦٧٥ هـ = ١٢٠٣ - ١٢٧٧ م) ، وهو حكيم ، منطقى . من تلاميذ نصير الدين الطوسى . فوات الوفيات ٢ : ٦٦ ، والعارفين ١ : ٧١٣ .

على مهمات مسائله ، كمختصر المنتهى[150] ، أو جمع الجوامع[151] ، أو الغاية[152] .

ثم يشتغل بسماع شروح هذه المختصرات ، كشرح العضد على المختصر[153] ، وشرح المحلى على الجوامع[154] ، وشرح ابن الإمام على الغاية[155] .

وينبغي له أن يطولّ الباع في هذا الفن ، ويطلع على مؤلفات أهل المذاهب المختلفة ، كالتنقيح[156] ، والتوضيح[157] ، والتلويح[158] ، والمنار[159] ،

---

(١٥٠) لابن الحاجب ، سبقت له ترجمة .

(١٥١) لتاج الدين السبكي : (٧٢٧ - ٧٧١ هـ = ١٣٢٧ - ١٣٧٠ م) ، قاضي القضاه ، مؤرخ . وقد جرى عليه كثير من المحن لم يجر على قاض مثله . من تصانيفه أيضاً : « طبقات الشافعية الكبرى » ، و« منع الموانع » تعليق على جمع الجوامع السابق ذكره . جلاء العينين ١٦ ، والدرر الكامنة ٢ : ٤٢٥ ، وحسن المحاضرة ١ : ١٨٢ .

(١٥٢) اسمة كاملًا « غاية السول في علم الأصول » وله شرح لنفس المؤلف « هداية العقول » ، وصاحبه : الحسين بن الإمام القاسم بن محمد : (٩٩٩ - ١٠٥٠ هـ = ١٥٩١ - ١٦٤٠ م) ، أمير ، من فقهاء الزيدية باليمن . ومن عجيب أمره أنه صنف كتبه وهو يتنقل في ميادين القتال يقود الجيوش ضد الأتراك . خلاصة الأثر ٢ : ١٠٤ ، والبدر الطالع ١ : ٢٢٦ .

(١٥٣) لعضد الدين الإيجي ، سبقت له ترجمة .

(١٥٤) اسمه « البدر الطالع في حل جمع الجوامع » ، لجلال الدين المحلى : (٧٩١ - ٨٦٤ هـ = ١٣٨٩ - ١٤٥٩ م) ، أصولي ، مفسر ، كان مهيباً صداعاً بالحق ، يواجه بذلك الظلمة والحكام عرض عليه القضاء الأكبر فامتنع . حسن المحاضرة ١ : ٢٥٢ ، وشذرات الذهب . ٧ : ٣٠٤ ، والضوء اللامع ٧ : ٣٩ - ٤١ .

(١٥٥) اسمه « هداية العقول » ، سبقت الإشارة له ولمؤلفه قريباً .

(١٥٦) لعبيد الله بن مسعود ، صدر الشريعة الأصغر ابن صدر الشريعة الأكبر : من علماء الحكمة والطبيعيات وأصول الفقه . مات سنة ٧٤٧ هـ = ١٣٤٦ م . الفوائد البهية ١٠٩ - ١١٢ ، ومفتاح السعادة ٢ : ٦٠ .

(١٥٧) وهو أيضاً لصدر الشريعة الأصغر .

(١٥٨) للتفتازاني ، سبقت ترجمته .

(١٥٩) اسمه « منار الأنوار » ، لأبي البركات النسفي : فقيه حنفي ، مفسر . مات ٧١٠ هـ = ١٣١٠ م . الفوائد البهية ١٠١ ، والدرر الكامنة ٢ : ٢٤٧ ، ومفتاح السعادة ٢ : ٥٧ .

وتحرير ابن الهمام[١٦٠] وليس فى هذه المؤلفات مثل التحرير المذكور وشرحه .

ومن أنفع ما يستعان به على بلوغ درجة التحقيق فى هذا الفن الاكباب على الحواشى التى ألفها المحققون على الشرح العضدى وعلى شرح الجمع .

٭علم الكلام أو أصول الدين :

ثم ينبغى له بعد اتقان فن أصول الفقه ، وإن لم يكن قد فرغ من سماع مطولاته ، أن يشتغل بفن الكلام المسمى بأصول الدين ، ويأخذ من مؤلفات الأشعرية بنصيب ، ومن مؤلفات المعتزلة بنصيب ، ومن المؤلفات الماتريدية بنصيب ، ومن مؤلفات المتوسطين بين هذه الفرق كالزيدية بنصيب .

فإنه إذا فعل كل هذا عرف الاعتقادات كما ينبغى ، وأنصف كل فرقة بالترجيح أو التجريح على بصيرة ، وقابل كل قول بالقبول أو الرد على حقيقة .

ومن أحسن مؤلفات المعتزلة المجتبى ، ومن أحسن مؤلفات متأخرى الأشعرية المواقف العضدية وشرحها للشريف ، والمقاصد السعدية وشرحها له .

وإياك أن يثنيك عن الاشتغال بهذا الفن ما تسمعه من كلمات بعض أهل العلم فى التنفير عنه ، والتزهيد فيه ، والتقليل لفائدته ، فإنك إن عملت على ذلك ، وقبلت ما يقال فى الفن قبل معرفته ، كنت مقلدا فيما لا يدرى ماهو . [illegible] ، وتكون فى الطبقة الأولية ، بل اعرفه حق معرفته ، وأنت بعد ذلك مفوض فيما تقوله من مدح أو قدح ؛ فإنه لا يقال لك حينئذ أنت تمدح مالا تعرفه ، أو تقدح فيما لا تدرى ماهو .

---

(١٦٠) محمد بن عبد الواحد ، المعروف بابن الهمام : (٧٩٠ ـ ٨٦١ هـ = ١٣٨٨ ـ ١٤٥٧) ، عالم بالفقه وأصوله والحساب والمنطق وغيرها . كان معظماً عند الملوك وأرباب الدولة بمصر . الضوء اللامع ٨ : ١٢٧ ـ ١٣٢ ، والفوائد البهية ١٨٠ ، وشذرات الذهب ٧ : ٢٨٩ .

على أنه يتعلق بذلك فائدة وزيادة بصيرة فى علوم أخرى ، كعلم التفسير ، وعلم تفسير الحديث ؛ فإنك إذا بلغت إلى ذلك علمت ما فى العلم بهذا الفن من الفائدة ، لا سيما عند قراءة كشاف الزمخشرى(١٦١) ومن سلك مسلكه ؛ فإن فى مباحثهم من التدقيقات الراجعة إلى علم الكلام مالا يفهمها حق الفهم إلا من عرف الفن واطلع على مذاهب المعتزلة والأشعرية وسائر الفرق .

وإنى أقول بعد هذا إنه لا ينبغى لعالم أن يدين بغير ما دان به السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم من الوقوف على ماتقتضيه أدلة الكتاب والسنّة ، وإبراز الصفات كما جاءت ، ورد علم المتشابه إلى الله سبحانه ، وعدم الاعتداد بشىء من تلك القواعد المدونة فى هذا العلم ، المبنية على شفى جرف هار من أدلة العقل التى لا تعقل ، ولا تثبت إلا بمجرد الدعاوى والافتراء على العقل بما يطابق الهوى ، ولا سيما إذا كانت مخالفة لأدلة الشرع الثابتة فى الحديث والسنة ؛ فإنها حينئذ حديث خرافة ، ولعبة لاعب ، فلا سبيل للعباد يتوصلون به إلى معرفة مايتعلق بالرب سبحانه وبالوعد والوعيد والجنة والنار والمبدأ والمعاد إلا ماجاءت به الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه عن الله سبحانه ، وليس للعقول وصول إلى تلك الأمور . ومن زعم ذلك ، فقد كلف العقول ما أراحها الله منه ، ولم يتعبدها به ، بل غاية ماتدركه ، وجل ما تصل إليه هو ثبوت الخالق البارى ، وأن هذه المصنوعات لها صانع ، وهذه الموجودات لها موجد ، وماعدى ذلك من التفاصيل التى جاءتنا فى كتب الله عز وجل وعلى ألسن رسله ، فلا يستفاد من العقل ، بل من ذلك النقل الذى منه جاءت ، وإلينا به وصلت .

واعلم أنى عند الاشتغال بعلم الكلام ، وممارسة تلك المذاهب والنحل ، لم ازدد بها إلا حيرة ، ولا استفدت منها إلا العلم بأن تلك المقالات خزعبلات ، فقلت إذ ذاك مشيرا إلى مااستفدته من هذا العلم :

وغاية ما حصلته من مباحثى ... ومن نظرى من بعد طول التدبر

---

(١٦١) سبقت له ترجمة .

هو الوقف ما بين الطريقين حيرة فما علم من لم يلق غير التحير
على انني قد خضت منه غماره وما قنعت نفسى بدون التبحر

وعند هذا زميت بتلك القواعد من حالق ، وطرحتها خلف الحائط ، ورجعت إلى الطريقة المربوطة بأدلة الكتاب والسنّة ، المعمودة بالأعمدة التى هى أوثق ما يعتمد عليه عباد الله ، وهم الصحابة ، ومن جاء بعدهم من علماء الأمة المقتدين بهم ، السالكين مسالكهم ؛ فطاحت الحيرة ، وانجابت ظلمة العماية ، وانقشعت وانكشفت ستور الغواية ، ولله الحمد .

على انى — ولله الشكر — لم اشتغل بهذا الفن إلا بعد رسوخ القدم فى أدلة الكتاب والسنّة ، فكنت إذا عرضت مسألة من مسائله ، مبنية على غير أساس ، رجعت إلى ما يدفعها من علم الشرع ، ويدمغ زائغها من أنوار الكتاب والسنّة . ولكنى كنت أقدرّ فى نفسى أنه لو لم يكن لدى إلا تلك القواعد والمقالات ، فلا أجد حينئذ إلا حيرة ، ولا أمشى إلا فى ظلمة ، ثم إذا ضربت بها وجه قائلها ودخلت إلى تلك المسائل من الباب الذى أمر الله بالدخول منه كنت حينئذ فى راحة من تلك الحيرة ، وفى دعة من تلك الخزعبلات ، والحمد لله رب العالمين عدد ما حمده الحامدون بكل لسان فى كل زمان .

★علـــم التفســير :

ثم بعد إحراز هذه العلوم ، يشتغل بعلم التفسير ، فيأخذ عن الشيوخ ما يحتاج مثله إلى الأخذ ، كالكشاف . ويكب على كتب التفسير على اختلاف أنواعها ، وتباين مقاديرها — ويعتمد فى تفسير كلام الله سبحانه ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم عن الصحابة ؛ فإنهم مع كونهم أعلم من غيرهم بمقاصد الشارع ، هم أيضا من أهل اللسان العربى . فما وجده من تفاسير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى الكتب المعتبرة ، كالأمهات وما يلتحق بها ، قدمه على غيره ، بل يتعين عليه لأحد به ، ولا يحل له

مخالفته ـــ واجمع مؤلف فى ذلك ، وأنفعه ، وأكثره فائدة : الدر المنثور للسيوطى[١٦٢] .

وما ذكرنا من تقديم ما ورد عن الصحابة مقيد بما إذا لم يخالف ما يُعلم من لغة العرب ، ولم تكن تلك المخالفة لأجل معنى شرعى ؛ فإن كانت لمعنى شرعى فقد تقرر ان الحقائق الشرعية مقدمة على اللغوية .

وينبغى له أن يطول الباع فى هذا العلم ، ويطالع مطولات التفاسير ، كمفاتيح الغيب للرازى[١٦٣] . فإن المعانى المأخوذة من كتاب الله سبحانه كثيرة العدد ، يستخرج منها كل عالم بحسب استعداده ، وقدر ملكته فى العلوم .

ولا يغتر بما يزعمه بعض أهل العلم من أنه يكفى الاطلاع على تفسير آيات الكتاب العزيز ، كما وقع لكثير من التآليف فى تفسير آيات مخصوصة مسميا لها بآيات الأحكام كالموزعى[١٦٤] ، وصاحب الثمرات[١٦٥] . فإن القرآن جميعه حتى قصصه وأمثاله لا يخلو من فوائد متعلقة بالأحكام الشرعية ، ولطائف لا يأتى الحصر عليها لها مدخل فى الدين . يعرف هذا من يعرفه ، ويجهله من يجهله .

وينبغى أن يقدم على قراءة التفاسير الاطلاع على علوم الأداء ، وكل ما كان

---

(١٦٢) عبد الرحمن بن أبى بكر ، جلال الدين السيوطى : (٨٤٩ ــ ٩١١ هـ = ١٤٤٥ ــ ١٥٠٥ م) ، حافظ ، مؤرخ ، له نحو ٦٠٠ مصنف أغلبها تلخيص أو شرح أو جمع . الضوء اللامع ٤ : ٦٥ ، وآداب اللغة ٣ : ٢٢٨ ، وشذرات الذهب ٨ : ٥١ .

(١٦٣) سبقت له ترجمة .

(١٦٤) محمد بن على بن عبد الله ، الشهير بابن نور الدين ، ويعرف بالموزعى : مفسر ، عالم بالأصول . له « تيسير البيان لأحكام القرآن » وهو المشار إليه أعلاه . توفى نحو ٨٢٠ هـ = ١٤١٧ م . الضوء اللامع ٨ : ١٧٨ ، وهدية العارفين ٢ : ١٧٩ .

(١٦٥) اسم الكتاب كاملًا « الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة » ، وصاحبه : يوسف بن أحمد ابن محمد ، نجم الدين : فقيه ، فاضل . توفى سنة ٨٣٢ هـ = ١٤٢٩ م . البدر الطالع ٢ : ٣٥٠ ، والدر الفريد ٢٩ .

له مدخل فى التلاوة ، وسائر العلوم المتعلقة بالكتاب العزيز ، وما أنفع الاتقان(١٦٦) للسيوطى فى مثل هذه الأمور .

ثم لا يهمل النظر فى الكتب المدونة فى القراءات ، وما يتعلق بها ، كالشاطبية(١٦٧) وشرحها ، والطيبة(١٦٨) وشروحها .

*علـم السـنة :

إذا عرفت ما ينبغى لمن أراد أن يكون من أهل الطبقة الأولى ، فاعلم أن أعظم العلوم فائدة ، وأكثرها نفعاً ، وأوسعها قدراً ، وأجلها خطراً علم السنة المطهرة ؛ فإنه الذى تكفل ببيان الكتاب العزيز ، ثم استقل بما لا ينحصر من الأحكام .

ولست أقول إن الطالب يشتغل به فى وقت معين ، ولا أقول إنه يقدمه على هذه العلوم المتقدمة أو يؤخره عنها ، بل أقول إنه ينبغى لطالب العلم بعد أن يُقيم لسانه بما يحتاج إليه من النحو أن يُقبل على سماع الكتب التى جمع فيها أهل العلم متون الأحاديث مقطوعة الأسانيد ، كجامع الأصول(١٦٩) ، والمشارق(١٧٠) ، وكنز العمال(١٧١) ، والمنتقى(١٧٢) لابن تيمية(١٧٣) ، وبلوغ

---

(١٦٦) اسمه كاملاً « الاتقان فى علوم القرآن » . وسبقت ترجمة للسيوطى .

(١٦٧) للقاسم بن فيرة الأندلسى : عالم بالتفسير والقراآت . توفى عام ٥٩٠ هـ .

(١٦٨) اسمها كاملاً « طيبة النشر فى القراءات العشر » لمحمد بن محمد ، الشهير بابن الجزرى : (٧٥١ – ٨٣٣ هـ = ١٣٥٠ – ١٤٢٩ م) ، شيخ القراء فى زمانه . له أيضاً « ملخص تاريخ الإسلام » و« منجد المقرئين » . مفتاح السعادة ١ : ٣٩٢ ، ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ١١٨ .

(١٦٩) لابن الأثير ، المتوفى سنة ٦٠٦ هـ .

(١٧٠) اسمه كاملاً « مشارق الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية » للصغانى المتوفى سنة ٦٥٠ هـ .

(١٧١) اسمه كاملاً « كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال » للمتقى الهندى . توفى عام ٩٥٧ هـ .

(١٧٢) اسمه « منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار » .

(١٧٣) هو ابن تيمية الجد : عبد السلام بن عبد الله . مات عام ٦٥٢ هـ .

المرام لابن حجر[١٧٤] ، والعمدة[١٧٥] .

ثم يسمع الكتب التى فيها الأسانيد ، كالأمهات الست ، ومسند أحمد[١٧٦] ، وصحيح ابن خزيمة[١٧٧] ، وابن حبّان[١٧٨] وابن الجارود[١٧٩] ، وسنن الدراقطنى[١٨٠] ، والبيهقى[١٨١] .

وبالجملة : فما بلغت إليه قدرته ، ووجد فى أهل عصره شيوخه من كتب السنّة ، جد فى سماعه ، واجتهد بحسب مايمكنه .

ويكون هذا الاشتغال بهذا العلم الجليل ، مصاحبا لاشتغاله بجميع العلوم المتقدمة من البداية إلى النهاية .

فإذا قضى وطره من سماع كتب المتن والإسناد ، اشتغل بشروح هذه المؤلفات ؛ فيسمع منها ماتيسر له سماعه ، ويطالع مالم يتيسر له سماعه .

ويستكثر من النظر فى المؤلفات فى علم الجرح والتعديل ، بل يتوسع فى هذا

---

(١٧٤) أحمد بن على بن حجر العسقلانى : حافظ ، عالم بالحديث والفقه وعلم الرجال . من مصنفاته « تقريب التهذيب » ، و« فتح البارى شرح صحيح البخارى » . توفى سنة ٨٥٢ هـ .

(١٧٥) يريد « عمدة الأحكام عن سيد الأنام » لعبد الغنى المقدسى : عالم بالحديث والفقه . مات عام ٦٠٠ هـ .

(١٧٦) سبقت له ترجمة .

(١٧٧) محمد بن إسحاق بن خزيمة : حافظ عالم بالحديث والرجال . مات عام ٣١١ هـ .

(١٧٨) محمد بن حبان بن أحمد ، أبو حاتم البستى : مؤرخ ، جغرافى ، محدث . وهو أحد المكثرين من التصنيف . وكانت الرحلة فى خراسان إلى مصنفاته . وكتابه « المسند الصحيح » فى الحديث ، يرى البعض أنه أصح من سنن ابن ماجه . توفى عام ٣٥٤ هـ . تذكرة الحفاظ ٣ : ١٢٥ ، وميزان الاعتدال ٣ : ٣٩ وطبقات السبكى ٢ : ١٤١ ومفاتيح علوم الحديث .

(١٧٩) أحمد بن على بن الجارود : من حفاظ الحديث . من أهل أصبهان . له « المسند » و« الشيوخ » ، وقال أبو نعيم : علامة بالحديث ، منقن ، صحيح الكتابة . توفى سنة ٢٩٩ هـ . ذكر أخبار أصبهان ١ : ١١٧ ، والأعلام ١ : ١٧١ .

(١٨٠) على بن عمر الدارقطنى : من كبار علماء الحديث فى كل العصور ، نسبته إلى دار قطن بالعراق . له انتقادات كثيرة على صحيح البخارى . وهو نقاد يقل أن يوجد له نظير . مات عام ٣٨٥ هـ .

(١٨١) أحمد بن الحسين بن على ، البيهقى : من كبار علماء الحديث والفقه . صنف زهاء ألف جزء ، منها « السنن الكبرى » و« السنن الصغرى » ، و« القراءة خلف الإمام » . مولده ووفاته عام (٣٨٤ — ٤٥٨ هـ) . شذرات الذهب ٣ : ٣٠٤ ، وطبقات الشافعية ٣ : ٣ .

العلم بكل ممكن ، وأنفع ما ينتفع به مثل : النبلاء[١٨٢] وتاريخ الإسلام[١٨٣] ، وتذكرة الحفاظ[١٨٤] ، والميزان[١٨٥] ؛ فإنه يجد فى هذه المؤلفات من الاختلاف فى المترجم له ، وذكر أسباب الجرح والتعديل ، مالا يجده فى غيرها كتهذيب الكمال[١٨٦] وفروعه[١٨٧] .

*علم مصطلح الحديث :

وهذا بعد أن يشتغل بشيء من علم اصطلاح أهل الحديث ، كمؤلفات ابن الصلاح[١٨٨] ، والألفية للعراقى[١٨٩] وشروحها . ولا يستغنى عن المطولات بالمختصرات ، لا سيما إذا بالغ مؤلفوها فى الاختصار كالنخبة[١٩٠] وما هو مشابه لها .

*علم التاريخ :

وينبغى له ان يشتغل بمطالعة الكتب المصنفة فى تاريخ الدول ؛ وحوادث

---

(١٨٢) اسمه كاملًا « سير أعلام النبلاء » للذهبى . سبقت له ترجمة .
(١٨٣) للذهبى أيضاً .
(١٨٤) للذهبى أيضاً .
(١٨٥) اسمه كاملًا « ميزان الاعتدال فى نقد الرجال » للحافظ الذهبى .
(١٨٦) لعبد الغنى المقدسى . سبقت الإشارة إليه .
(١٨٧) مثل « خلاصة تذهيب تهذيب الكمال » للخزرجى ، و« تهذيب التهذيب » لابن حجر ، و« تقريب التهذيب » له أيضا .
(١٨٨) عثمان بن عبد الرحمن ، الشهير بابن الصلاح : من كبار علماء مصطلح الحديث ، من مصنفاته « مقدمة ابن الصلاح » فى علوم الحديث . و« فتاوى ابن الصلاح » . توفى سنة ٦٤٣ .
(١٨٩) عبد الرحيم بن الحسين ، زين الدين العراقى : حافظ للحديث ، عالم بالمصطلح والتخريج . من مصنفاته « تخريج أحاديث إحياء علوم الدين » ، و« التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح » . مات سنة ٨٠٦ هـ .
(١٩٠) اسمها كاملًا « نخبة الفكر فى مصطلح أهل الأثر » لابن حجر العسقلانى .

العالم فى كل سنة ، كما فعله الطبرى فى تاريخه[191] ، وابن الأثير فى كامله[192] ، وكما فعله كثير من المؤرخين على اختلاف مسالكهم فى تخصيص التصنيف بدولة من الدول ، أو طائفة من طوائف أهل العلم والأدب ، أو فرقة من فرق أهل الرئاسات ، أو غير ذلك . فإن للاطلاع على ذلك فائدة جليلة لا يعرفها إلا من عرف أحوال العالم ، واتقن أهل كل عصر منهم ، وعلم بأوقات موالدهم ووفياتهم .

*مؤشر الوصول إلى المرتبة الأولى :

فاذا أحاط الطالب بما ذكرناه من العلوم ، فقد صار حينئذ فى الطبقة العالية من طبقات المجتهدين ، وكملت له جميع أنواع علوم الدين ، وصار قادرا على استخراج الأحكام من الأدلة متى شاء وكيف شاء .

ولكنه ينبغي له أن يطلع على علوم أخري ليكمل له ماقد حازه من الشرف ، ويتم له ماقد ظفر به من بلوغ الغاية .

*علـم الفقـه :

فمن ذلك علم الفقه ، وأقل الأحوال أن يعرف مختصرا فى فقه كل مذهب من المذاهب المشهورة ؛ فإن معرفة مايذهب إليه أهل المذاهب الإسلامية قد يحتاجه المجتهد لإفادة المتمذهبين السائلين عن مذاهب أئمتهم . وقد يحتاجه لدفع من يشنع عليه فى اجتهاده ، كما يقع ذلك كثيراً من أهل التعصب والتقصير ؛

---

(١٩١) اسمه « أخبار الرسل والملوك » ، وقد سبق التعريف بالطبرى .

(١٩٢) على بن محمد بن الأثير : مؤرخ ، حافظ . توفى عام ٦٣٠ هـ .

فإنه إذا قال له : قد قال بهذه المقالة العالم الفلانى أو عمل عليها أهل المذهب الفلانى ـــ كان ذلك دافعا لصولته ، كاسرا لسورته . وقد وقعنا فى كثير من هذه الأمور مع المقصرين ، وتخلصنا عن شغبهم بحكاية ماأنكروه علينا عن بعض من يعتقدونه من الأموات .

وما أنفع الاطلاع على المؤلفات البسيطة فى حكاية مذاهب السلف ، وأهل المذاهب ، وحكاية أدلتهم ، وما دار بين المتناظرين منهم ، اما تحقيقا أو فرضا ، كمؤلفات ابن المنذر(١٩٣) ، وابن قدامه(١٩٤) ، وابن حزم(١٩٥) وابن تيمية(١٩٦) ، ومن سلك مسالكهم .

فإن المجتهد يزداد بذلك علما إلى علمه ، وبصيرة إلى بصيرته ، وقوة فى الاستدلال إلى قوته ؛ فإن تلك المؤلفات هى مطارح أنظار المحققين ، ومطامح أفكار المجتهدين . وكثيرا مايحصل للعالم من نكت واللطائف الصالحة للاستدلال بها مالا يحصل للعالم الآخر ، وإن تقاربت معارفهما ، وتوازنت علومهما . بل قد يتيسر لمن هو أقل علما مالا يتيسر لمن هو أكثر علما من الاستدلال والجواب والنقض والمعارضة ، وكما قيل :

ورأيان أحزم من واحد　　　ورأى الثلاثة لاينقض

وكما قيل :

---

(١٩٣) محمد بن إبراهيم بن المنذر : (٢٤٢ ـ ٣١٩ هـ = ٨٥٦ ـ ٩٣١ م) ، فقيه مجتهد ، من الحفاظ . من مؤلفاته « المبسوط » فى الفقه ، و« الأوسط فى السنن والإجماع والاختلاف » ، و« اختلاف العلماء » . لسان الميزان ٥ : ٢٧ ، والوافى بالوفيات ١ : ٣٣٦ ، وطبقات الشافعية ٢ : ١٢٦ .

(١٩٤) عبد الله بن محمد بن قدامة : (٥٤١ ـ ٦٢٠ هـ = ١١٤٦ ـ ١٢٢٣ م) ، من كبار فقهاء الحنابلة . من تصانيفه « المغنى » شرح به مختصر الخرقى فى الفقه ، و« روضة الناظر » فى أصول الفقه ، و« البرهان فى مسائل القرآن » . مختصر طبقات الحنابلة ٤٥ ، والبداية والنهاية ١٣ : ٩٩ ، وشذرات الذهب ٥ : ٨٨ ، والأعلام ٤ : ٦٧ .

(١٩٥) سبق التعريف به .

(١٩٦) سبق التعريف به .

ولكن تأخذ الأفهام منه على قدر القرائح والعلوم

ولا سيما مؤلفات أهل الإنصاف الذين لا يتعصبون لمذهب من المذاهب ، ولا يقصدون إلا تقرير الحق ، وتبيين الصواب ؛ فإن المجتهد الطالب للحق ، ينتفع بها ، ويستعين بأهلها ، فينظر فيما قد حرروه من الأدلة ، وقدروه من المباحث ، ويُعمل فكره فى ذلك ، فيأخذ ما يرتضيه ، ويزيد عليه ما بلغت إليه قدرته ، ووصلت إليه ملكته ، غير تارك للبحث عن تصحيح ماقد صححوه ، وتضعيف ماقد ضعفوه على الوجه المعتبر .

★من لوازم الإنصاف والاجتهاد :

ومن حق الإنصاف ، ولازم الاجتهاد : أن لا يُحسن الظن ، أو يسيئه بفرد من أفراد أهل العلم ، على وجه يوجب قبول ما جاء به ، أو رده ، من غير إعمال فكر وإمعان نظر وكشف وبحث . فإن هذا شأن المقلدين ، وصنيع المتعصبين ، وإن غرته نفسه بأنه من المنصفين .

وأن لا يغتر بالكثرة ، فإن المجتهد هو الذى لا ينظر إلى من قال ، بل إلى ماقال ، فإن وجد نفسه تنازعه إلى الدخول فى قول الأكثرين ، والخروج عن قول الأقلين ، أو إلى متابعة من له جلالة قدر ، ونبالة ذكر ، وسعة دائرة علم ، لا لأمر سوى ذلك ، فيعلم أنه قد بقى فيه عرق من عروق العصبية ، وشعبة من شعب التقليد ، وأنه لم يوف الاجتهاد حقه .

وبالجملة : فالمجتهد على التحقيق ، وهو من يأخذ الأدلة الشرعية من مواطنها ، على الوجه الذى قدمناه ، ويفرض نفسه موجودا فى زمن النبوة ، وعند نزول الوحى ، وإن كان فى آخر الزمان ، وكأنه لم يسبقه عالم ولا تقدمه مجتهد . فإن الخطابات الشرعية تتناوله ، كما تناولت الصحابة من غير فرق . وحينئذ يهون الخطب ، وتذهب الروعة التى نزلت بقلبه من الجمهور ، وتزول

الهيبة التى تداخل قلوب المقصرين .

*أهمية الاطلاع على أشعار المبدعين :

ومما يزيد من أراد هذه الطبقة العلية علواً ، ويفيده قوة إدراك ، وصحة فهم ، وسيلان ذهن ، الإطلاع على أشعار فحول الشعراء ، ومجيديهم ، والمشهورين منهم ، باستخراج لطائف المعانى ، ومطربات النكات . مع ماتحصل له بذلك من الاقتدار على النظم ، والتصرف فى فنونه . فقد يحتاج العالم إلى النظم لجواب مايرد عليه من الأسئلة المنظومة ، أو المطارحات الواردة إليه من أهل العلم ، وربما ينظم فى فن من الفنون لغرض من الأغراض الصحيحة ، فإن من كان بهذه المنزلة الرفيعة من العلم إذا كان لايقتدر على النظم كان ذلك خدشة فى وجه محاسنه ونقصا فى كماله .

*النظر فى بلاغات مبدعى الإنشاء :

وهكذا الاستكثار من النظر فى بلاغات أهل الانشاء المشهورين بالإجادة والإحسان ، المتصرفين فى رسالاتهم وحكاياتهم بأفصح لسان وأبين بيان ؛ فإنه ينتفع بذلك إذا احتاج إلى الانشاء ، أو جاوب صديقاً أو كاتب حبيبا ، لأنه ينبغى أن يكون كلامه على قدر علمه ، وهو إذا لم يمارس جيد النظم والنثر كان كلامه ساقطا عن درجة الاعتبار عند أهل البلاغة ، والعلم شجرة ثمرتها الالفاظ . وماأقبح بالعالم المتبحر فى كل فن أن يتلاعب به فى النظم والنثر من لايجاريه فى علم من علومه ، ويتضاحك منه من له أدنى المام بمستحسن الكلام ورائق النظام .

*علم العروض والقوافي :

ويستعين على بلوغ ما يليق به ، ويطابق رتبته بمثل علم العروض والقوافي ، وأنفع ما في ذلك منظومة الجزولي[١٩٧] وشروحها . وبمثل المؤلفات المدونة لذلك ، وأنفع ما ينتفع به «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» لابن الأثير[١٩٨] .

*أهمية الاطلاع على العلوم الفلسفية :

ثم لا بأس على من رسخ قدمه في العلوم الشرعية ، أن يأخذ بطرف من فنون ، هي من أعظم ما يصقل الأفكار ، ويصفي القرائح ، ويزيد القلب سرورا ، والنفس انشراحاً ، كالعلم الرياضي والطبيعي والهندسة والهيئة والطب .

وبالجملة : فالعلم بكل فن خير من الجهل به بكثير ، ولا سيما من رشح نفسه للطبقة العلية والمنزلة الرفيعة .

ودع عنك ما تسمعه من التشنيعات ؛ فإنها كما قدمنا لك شعبة من التقليد ، وأنت بعد العلم بأي علم من العلوم حاكم عليه بما لديك من العلم ، غير محكوم عليك ، واختر لنفسك ما يحلو ، وليس يخشى على من قد ثبت قدمه في علم الشرع من شيء ، وإنما يخشى على من كان غير ثابت القدم في علوم الكتاب والسنّة ؛ فإنه ربما يتزلزل ، وتحول ثقته .

(١٩٧) اسمها « كشف الرموز » رسالة منظومة في شرح القصيدة الخزرجية في العروض . وصاحبها هو : أحمد بن محمد الجزولي ، الشهير بالمشتوكي : فقيه مالكي ، وعالم بالعربية . من كتبه : « التحفة » في النحو ، و« الدرة النفيسة السنية في بعض المسائل النحوية » . مات سنة ١١٢٧ هـ = ١٧١٥ م . طبقات الحضيكي ١ : ٨٢ ، والأعلام ١ : ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

(١٩٨) نصر الله بن محمد ، الجزري ، المعروف بابن الأثير الكاتب : (٥٥٨ ــ ٦٣٧ هـ = ١١٦٣ =

فإذا قدمت العلم بما قدمنا لك من العلوم الشرعية ، فاشتغل بما شئت ، واستكثر من الفنون ماأردت ، وتبحر فى الدقائق ما استطعت ، وجاوب من خالفك وعذلك وشنع عليك بقول القائل :

أتانا ان سهلا ذم جهلا　　علوما ليس يعرفهن سهل
علوما لو دراها ما قلاها　　ولكن الرضى بالجهل سهل

وإنى لأعجب من رجل يدعّى الإنصاف ، والمحبة للعلم ، ويجرى على لسانه الطعن فى علم من العلوم لا يدرى به ، ولا يعرفه ولا يعرف موضوعه ، ولا غايته ، ولا فائدته ، ولا يتصوره بوجه من الوجوه .

وقد رأينا كثيراً ممن عاصرنا ، ورأيناه يشتغل بالعلم ، وينصف فى مسائل الشرع ، ويقتدى به بالدليل ، فإذا سمع مسألة من فن من الفنون التى لا يعرفها ، كعلم المنطق ، والكلام ، والهيئة ، ونحو ذلك ، نفر منه طبعه ، ونفَّر عنه غيره ، وهو لا يدرى ما تلك المسألة ، ولا يعقلها قط ، ولا يفهم شيئاً منها .

فما أحق من كان هكذا بالسكوت ، والاعتراف بالقصور ، والوقوف حيث أوقفه الله ، والتمسك فى الجواب إذا سئل عن ذلك بقوله : لا أدرى . فإن كان ولابد متكلما ومادحا أو قادحاً ، فلا يكون متكلما بالجهل ، وعائبا لما لا يفهمه ، بل يقدم بين يدى ذلك الاشتغال بذلك الفن حتى يعرفه حق المعرفة ، ثم يقول بعد ذلك ما شاء .

ولقد وجدنا لكثير من العلوم التى ليست من علم الشرع نفعا عظيماً ، وفائدة جليلة فى دفع المبطلين والمتعصبين وأهل الرأى البحت ومن لا اشتغال له بالدليل .

فإنه إذا اشتغل من يشتغل منهم بفن من الفنون ، كالمشتغلين بعلم المنطق ،

= ١٢٣٩م) وزير من العلماء الكتاب المترسلين . وفيات الأعيان ٢ : ١٥٨ ، ومفتاح السعادة ١ : ١٧٨ ، وشذرات الذهب ٥ : ١٨٧ .

جعلوا كلامهم ومذكراتهم فى قواعد فنهم ، ويعتقدون لعدم اشتغالهم بغيره أن من لا يجاريهم فى مباحثه ليس من أهل العلم ولا هو معدود منهم ، وإن كان بالمحل العالى من علوم الشرع ، فحينئذ لا يبالون بمقاله ، ويوردون عليه ما لا يدرى ما هو ، ويسخرون منه ، فيكون فى ذلك من المهانة على علماء الشريعة ما لا يقادر قدره .

وأما إذا كان العالم المتشرع المتصدر للهداية إلى المسالك الشرعية ، والمناهج الإنصافية ، عالماً بذلك ، فإنه يجرى معهم فى فنهم ، فيكبر فى عيونهم ، ثم يعطف عليهم ، فيبين لهم بُطلان ما يعتقدونه بمسلك من المسالك التى يعرفونها ، فإن ذلك لا يصعب على مثله . ثم بعد ذلك يوضح لهم أدلة الشرع ، فيقبلون منه أحسن قبول ، ويقتدون به أتم قدوة .

وأما العالم الذى لا يعرف ما يقولون ، فغاية ما يجرى بينه وبينهم خصام ، وسباب ، ومشاتمة ، هو يرميهم بالاشتغال بالعلوم الكفرية ، ولا يدرى ما هى تلك العلوم ؛ وهم يرمونه بالبلادة ، وعدم الفهم ، والجهل بعلم العقل ، ولا يدرون ما لديه من علم الشرع .

*أصناف المثقفين فى زمن الشوكانى :

ولقد أهدت لنا هذه الأيام ما لم يكن لنا فى حساب من زعانف ، هم سقط المتاع ، وفقعة القاع ، وأبناء الرعاع ، لابسوا طلبة العلم بعض الملابسة ، وشاركوهم بجامع الخلطة والعشرة ، فى مثل النظر فى مختصرات النحو حتى صاروا ممن يتمكن من إعراب أواخر الكلم ، ثم طاحت بهم الطوائح ، ورمت بهم الروامى إلى مطالعة تجريد الطوسى(١٩٩) ، وبعض شروحه ، وفهموا بعض

(١٩٩) هو الكتاب المسمى « تجريد العقائد » ويعرف بتجريد الكلام ، لمحمد بن محمد بن الحسن ، نصير الدين الطوسى : (٥٩٧ ــ ٦٧٢هـ = ١٢٠١ ــ ١٢٧٤م) ؛ فيلسوف . كان رأساً فى العلوم=

مباحثه ، فظنوا أنهم قد ظفروا بما لم يظفر به أرسطوطاليس[٢٠٠] ولاجالينوس[٢٠١] ، دع مثل الكندى[٢٠٢] والفارابى[٢٠٣] وابن سينا[٢٠٤] ، فإنهم عندهم فى عداد المقصرين ، وأما مثل الرازى[٢٠٥] وطبقته ، فليسوا من أهل العلم فى ورد ولا صدر ، وأما سائر العلماء المتبحرين فى علم الشرع وغيره من أهل العصر وغيرهم فهم عند هؤلاء النوكاء[٢٠٦] الرقعاء[٢٠٧] لا يفهمون شيئا ولا يعقلون .

فقبّح الله تلك الوجوه ؛ فإنها صارت عاراً وشناراً على أهل العلم ، وصار

= العقلية ، علامة بالأرصاد والمجسطى والرياضيات . علت منزلته عند « هولاكو » فكان يطيعه فيما يشير به عليه . شذرات الذهب ٥ : ٣٣٩ ، ومفتاح السعادة ١ : ٢٦١ ، وآداب اللغة ٣ : ٢٣٤

(٢٠٠) فيلسوف شهير ، سبق التعريف به .

(٢٠١) طبيب شهير ، سبق التعريف به .

(٢٠٢) يعقوب بن إسحاق الكندى : فيلسوف العرب والإسلام فى عصره ، وأحد أبناء الملوك من كندة . من كتبه « إلهيات أرسطو » ، و « المد والجزر » ، و « الأدوية المركبة » . توفى نحو ٢٦٠ هـ = ٨٧٣ م . ابن النديم طبعة فلوجل ٢٥٥ ـ ٢٦١ ، وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقى ٤١ ، وطبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ٧٣ .

(٢٠٣) محمد بن محمد ، أبو نصر الفارابى : (٢٦٠ ـ ٣٣٩ هـ = ٨٧٤ ـ ٩٥٠ م) ، فيلسوف كبير ، يعرف بالمعلم الثانى لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم الأول) . كان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة فى عصره . كان زاهداً يميل إلى الانفراد بنفسه . من كتبه « مبادىء الموجودات » و « إبطال أحكام النجوم » ، و « أغراض مابعد الطبيعة » . البداية والنهاية ١١ : ٢٢٤ ، والوافى بالوفيات ١ : ١٠٦ ، ومفتاح السعادة ١ : ٢٥٩ .

(٢٠٤) الحسين بن عبد الله بن سينا : (٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ)= ٩٨٠ ـ ١٠٣٧ م) ، الفيلسوف الرئيس ، صاحب التصانيف فى الطب والمنطق والطبيعيات والإلهيات . له مكانة رفيعة عند الإفرنج . من أشهر كتبه « القانون » فى الطب ، و « الشفاء » فى الفلسفة ، و « أسرار الحكمة المشرقية » . لسان الميزان ٢ : ٢٩١ ، والرد على المنطقيين ١٤١ ـ ١٤٤ ، ودائرة المعارف الإسلامية ١ : ٢٠٣ .

(٢٠٥) محمد بن زكريا الرازى ، أبو بكر : (٢٥١ ـ ٣١٣ هـ = ٨٦٥ ـ ٩٢٥ م) ، فيلسوف ، من الأئمة فى صناعة الطب . من أهل الرىّ . من كتبه « الحاوى » كتاب نفيس فى الطب ، و « الطب الملوكى » ، و « خواص الأشياء » . الوافى بالوفيات ٣ : ٧٦ ، ودائرة المعارف الإسلامية ٩ : ٤٥١ ـ ٤٥٧ ، ومفتاح السعادة ١ : ٢٦٨ ، وأخبار الحكماء ١٧٨ .

(٢٠٦) النوكاء : العاجزون الجاهلون .

(٢٠٧) الرُقَعَاءُ : الحمقاء .

دخول مثل هؤلاء الذين دنسوا عرض العلم ، وجهموا وجهه ، وأهانوا شرفه ، من أعظم المصائب التى أصابت أهله ، وأكبر المحن التى امتحن بها حملته ، فإنه يسمعهم السامع يثلبون أعراض الأحياء والأموات ، من المشهورين بالعلم ، الذين قد اشتهرت مصنفاتهم ، وانتشرت معارفهم ، فيزهد فى العلم ، ويخاف من أن يعرضّ نفسه للوقيعة من مثل هؤلاء الجهلة . وعلى أنهم لا يعرفون شيئا إلا ما ذكرت لك ، ولا يفهمون علما من العلوم لا بالكنه ولا بالوجه . فما أحق هؤلاء بالمنع لهم عن مجالس العلم ، والأخذ على أيديهم من الدخول فى مداخل أهله ، والتشبه بهم فى شيء من الأمور ، والزامهم بملازمة حرف آبائهم وصناعات أهلهم ، والوقوف فى الأسواق لمباشرة الأعمال التى يباشرها سلفهم ، فليس فى مفارقتهم لها إلا ما جلبوه من الشر على العلم وأهله .

ولكنهم قد تحذلقوا وجعلوا لأنفسهم حصنا حصينا ، وسورا منيعا ، فتظهروا بشيء من الرفض ، وتلبسوا بثيابه ، فإذا أراد من له غيرة على العلم المعاقبة لهم ، واعزاز دين الاسلام باهانتهم ، قالوا للعامة : إنهم أصيبوا بسبب التشيع ، وأهينوا بما اختاروه لأنفسهم من محبة أهل البيت رضى الله عنهم .

وقد علم الله ، وكل من له فهم ، أنهم ليسوا من ذلك فى قبيل ولا دبير ، بل ليس عندهم إلا التهاون بالشريعة الاسلامية ، والتلاعب بالدين ، والطعن على الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، فضلا عن غيرهم من المتمسكين بالشرع . وكل عارف إذا سمع كلامهم ، وتدبر أبحاثهم ، يتضوع له منها روائح الزندقة ، بل قد يقف على ما هو صريح الكفر الذى لا يبقى معه ريب .

ولقد كان القضاة من أهل المذاهب فى البلاد الشامية والمصرية والرومية والمغربية وغيرها ، يحكمون بإراقة دم من ظهر منه دون ما يظهر من هؤلاء ، حسبما تحكيه كتب التاريخ . وقد أصابوا أصاب الله بهم ، فاعزاز دين الله هو فى الانتقام من أعدائه المتنقصين به .

وما يصنع العالم فى مثل أرضنا هذه فى مثل هؤلاء المخذولين ، فإنه إن قام

عليهم ، وأفتى بما يستحقونه ، ويوجبه عليهم الشرع ، حال بينه وبينهم حوائل ، منها عدم اعتياد مثل هذه البلاد لمثل سفك دماء المتزندقين ، ومنها عدم نفوذ أفهام المنفذين لأحكام الشرع حتى يعرفوا الدقائق الكفرية الموجبة للخروج من الإسلام القاضية بسفك دم من صدرت عنه . وكيف يفهم ذلك غالب القضاة وهم يعجزون عن فهم شروط الوضوء وفرائضه وسننه ، بل يقصرون عن فهم مباحث أبواب قضاء الحاجة ؛ فهل تراهم يفهمون ما يقوله لهم المفتى بسفك دم المتزندق من أنه كفر بكذا استحق سفك دمه بكذا . هيهات هيهات فإنهم أبلد من ذاك ، وأسوأ فهما من البلوغ إليه .

ومنها ــ وهو أعظمها ــ ماعرفّناك به من تظهرّهم بالرفض ، وادعائهم أنهم لم يُصابوا بذنب سواه ، ولا نالهم ما نالهم إلا بسببه . فإن هذه الدعوى سريعة النفاق تدخل إلى أذهان غالب الناس ، وتقبلها عقولهم بأيسر عمل ، للاشتراك فى الجنس ، وإن لم يكن على التواطىء ، بل على التشكيك ، وكفاك من شر سماعه .

وبعد هذا ، فإنى أرجو الله عز وجل آن يمكن منهم ، فتجرى عليهم الأحكام الشرعية ، وينفذ فيهم ما يقتضيه مر الحق ونص الدليل . وقد علم الله سبحانه إنى أجد من الحسرة والتلهف مالا يُقادر قدره ، ولا يمكن التعبير عنه ؛ لأنه ليس بتغاض عن مبتدع ، ولا بمجرد سكوت عن انتهاك حرمة من حرمات الشرع ، بل هو سكوت عن الكفر ، واغماض عن متظهر بالزندقة ، يتكلم فيها بملء فيه ، ويبدى منها ما تبكى له عيون الإسلام وأهله ، فتارة يتهاون بالقران ، وتارة يتهاون بالأنبياء ، وتارة يتهاون بحملة الدين ، وحينا يزرى على علماء المسلمين ، ولكن بعبارات لا يفهمها المقصرون ، ورموز لا يهتدى إليها المشتغلون بأبواب الفقه ، مع خلط تلك العبارات بشىء من الرفض يفهمه المقصر والكامل . فاذا نظره المقصرون فى كلامهم لم يفهموا منه إلا ما فيه من الرفض . ولا يفهمون شيئا مما عداه .

وإذا أخبرهم العالم بما اشتمل عليه ذلك الكلام من الكفر والزندقة ، لم تقبله

أفهامهم لأمرين :

أحدهما : الجهل بالعلوم التى يتوصلون بها إلى فهم ذلك .

والثانى : اعتقادهم أن ذلك المتكلم شيعى ، وأن هذا العالم الذى أنكره إنما قام عليه لأجل تشيعه ، لكونهم يعتقدون فى كل من اشتغل بعلوم الاجتهاد أنه يخالف الشيعة ، طبيعة راسخة فيهم ، وأمر ورثوه عن أسلافهم ، وداء قبلوه من كل مخذول ، ومحنة تعاظم بسببها البلاء على الشريعة وعلى أهلها .

فبهذه الأسباب علمت أن قيامى عليهم لا يجدى إلا ثوران فتنة ، وظهور محنة ، وقد يكون سبباً لتظهرهم بزيادة على ما يتظهرون به من تلك الأمور الفظيعة ، والكفريات الشنيعة .

اللهم إنى أشهدك ، وأنت خير الشاهدين ، أنى أول حاكم بسفك دم من صدر منه ذلك ، وأول مفتٍ بقتل من فعل شيئاً منه أو قال به ، عند أول بارقة من بوارق العدل ، وفى اخفاء رائحة من روائح الإنصاف .

ولست أقول أن جميع من أشرت إليهم هم على الصفة التى ذكرتها الموجبة لإراقة الدم ، وإزهاق الروح ، بل يتظهر بذلك بعض مخذوليهم ، ويشتغل به اناس من شياطينهم ، والبقية وإن كانوا بما يصدر منهم نقمة على العلم وأهله ، فإنهم ينفّرون الناس عن علم الشرع ، ويهونونه فى صدورهم ، ويستصغرون علوم الدين بأسرها ، ويجذبون من يطمعون فيه إلى جهالاتهم وضلالاتهم ، فهم مُستحقون للحيلولة بينهم وبين كل سبب يتوصلون به إلى العلم على كل تقدير كما أشرنا إليه سابقا ، مع انزال بعض ما فيه إهانة لهم بهم ، ومسهم بسوط إذلال ؛ فيكون فى ذلك إعزاز للدين ، ورفع لمناره ، وغسل لما قد لوثوا به أهله من القذر الذى يلقونه عليهم ، وينجسونهم به .

والله المرجو ، فعنده الخير كله ، وهو أغير على دينه ، وهو أكرم عليه من أن يهان أو يضام أهله .

وفيهم أفراد قليلون ، يصلحون بتعلم العلم ، ويتشبهون بأهله ، ويجرون على

نمط من يتعلمون منه ، ويأخذون عنه إن خيراً فخير ، وإن شر فشر . ولكن ما أقل من يكون هكذا منهم .

*المؤهلون لتلقى العلم :

فإن قلت : وما هذه الأهلية التى يكون صاحبها محلا لوضع العلم فيه وتعليمه إياه ؟

قلت : هى شرف المحتد ، وكرم النجار ، وظهور الحسب ، أو كون فى سلف الطالب من له تعلق بالعلم والصلاح ومعالم الدين ، أو بمعالى الأمور ورفيع الرتب .

وقد أشار إلى هذا النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى الحديث الثابت عنه فى الصحيح فقال :« **الناس معادن كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا** »(٢٠٨) .

فاعتبر صلى الله عليه وآله وسلم الخيار فى الجاهلية ، وليس ذلك لأمر يتعلق بالدين ، فإنه لا دين لأهل الجاهلية ، بل المراد بخيار أهل الجاهلية من كان منهم من أهل الشرف وفى البيوت الرفيعة ، فإن هذا أمر يجذب بطبع صاحبه إلى معالى الأمور ، ويحول بينه وبين الرذائل ويوجب عليه إذا دخل فى أمر أن يكون منه فى أعلى محل وأرفع رتبة ، فمتعلم العلم منهم يكون فى أهله على أتم وصف ، وأحسن حال ، غير شامخ بأنفه ، ولا متباه بما حصلّه ، ولا مترفع على الناس بما نال منه .

وأما من كان من سقط المتاع ، وسفساف أهل المهن ، كأهل الحياكة ،

(٢٠٨) رواه البخارى : فى كتاب الأنبياء ، باب ١٩ ؛ وكتاب المناقب ، باب ١ ، ٢٥ . ومسلم : فى كتاب فضائل الصحابة برقم ١٩٩ . وأحمد فى المسند : الجزء الثانى ، ص ٢ ، ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٣٩١ ، ٤٣٨ ، ٤٧٥ ، ٤٩٨ ، ٥٢٥ ، ٥٣٩ ؛ والثالث ص ٣٦٧ .

والعصارة والقضابة ، ونحو ذلك من المهن الدنية ، والحرف الوضيعة ، فإن نفسه لاتفارق الدناءة ، ولاتجانب السقوط ، ولاتأبى المهانة ، ولاتنفر عن الضيم[٢٠٩] .

فإذا اشتغل مشتغل منهم بطلب العلم ، ونال منه بعض النيل ، وقع فى أمور ، منها العجب والزهو والخيلاء ؛ لأنه يرى نفسه بعد أن كان فى أوضع مكان وأخس رتبة قاعداً فى أعلا محل ، وأرفع موضع ؛ فإن منزلة العلم وأهله هى المنزلة التى لاتساميها منزلة وإن علت ، ولاتساويها رتبة وإن ارتفعت . فبينما ذلك الطالب قاعد بين أهل حرفته من أهل الحياكة ، أو الحجامة ، أو الجزارة ، أو نحوهم ، فى أخس بقعة ، وأعظم مهانة ، إذ صار بين العلماء المتعلمين الذين هم فى أعلا منازل الدنيا والدين .

فمبجرد ذلك يحصل له من العجب ، والتطاول على الناس ، والترفع عليهم ، مايعظم به الضرر على أهل العلم ، فضلاً عن غيرهم ممن هو دونهم ، ومع ماينضم الى ذلك من السخف الذى نشأ عليه ، وتلقاه من سلفه ، وسقوط النفس ، وضعف العقل ، ونذالة الهمة ، ومثل تأمّر الصبى لما ينشأ عليه من أخلاق آبائه لاينكره أحد .

ولهذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم فيما صح عنه فى الصحيح : **«كل مولود يولد على الفطرة ، ولكن أبواه يهودانه ، وينصرانه ، ويمجسانه»**[٢١٠] ، فإذا كان الصغير ينطبع بطابع الكفر بسبب أبويه ، فما بالك بسائر الأخلاق التى يجدهما عليها .

---

(٢٠٩) رغم أن كلام الشوكانى هنا يفيد التعميم ، إلا أنه سيستثنى بعض الأفراد من هذا الحكم العام ، فهو يقول بعد ذلك بقليل : « ومن نكر هذا ، فعليه بالاستقراء والتتبع ، فإنه سيجد ماوجدناه ، ويقف على صحة ماحكيناه . ولايخرج من هؤلاء إلا النادر القليل ، ولايكون ذلك إلا لعرق ينزعه إلى الشرف ، ويجذبه إلى الخير فى سلفه القديم ، وإن جهله مَنْ لم يعرفه » . ولا شك أن الكثيرين يختلفون مع الشوكانى فى هذا الرأى استناداً إلى كثير من الشواهد التاريخية .

(٢١٠) رواه البخارى : فى كتاب الجنائز ، باب ٨٠ ؛ وفى كتاب التفسير سورة ٣٠ (١) ؛ وكتاب القدر ، باب ٣ . ومسلم : فى كتاب القدر ، حديث رقم ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، وأحمد فى المسند : الجزء الثانى ص ٣١٥ ، ٣٤٦ .

ومما يقع فيه هذا الطالب ، الناشىء بين أهل الوضاعة ، المرتضع من ثدى الرقاعة : أنه بحكم الطبع ، وألف المنشأ ، لا يرى فى الناس إلا أهل حرفته وبنى مهنته ؛ فيعود من حيث بدا ، ويرجع من الباب الذى خرج منه ، فيكون فى ذلك من الاهانة للعلم ، والازراء على أهله ، والوضع بجانبهم ، مالا يقادر قدره ؛ لأن هذا يراه الناس تارة فى المدارس قاعدا بين أيدى شيوخ العلم مشاركاً للمتعلمين ، وتارة يرونه فى دكاكين الحجامين وحوانيت العطارين ومن جرى هذا المجرى من المحترفين .

ومما يقع فيه أنه بحكم الطبع الذى استفاده من المنشأ ، وتطبعّ به من أبويه ومن يماثلهما ، وإن دخل فى مداخل العلم ، وتزيا بزى أهله ، فهم أبغض الناس إليه وأحقرهم لديه ، لا يقيم لهم وزنا ، ولا يعترف لهم بفضيلة ، بل يكون ديدنه ، وهجيراه ، ومعنى كلامه ، وفحواه ، هو التهاون بهم ، وتحقير ماعظمه الله من أمرهم والاغراء بين أماثلهم ، والتعرض للمفاضلة بين فضائلهم ، وادخال الشحناء بينهم بكل ممكن .

ومن نكر هذا ، فعليه بالاستقراء والتتبع ، فإنه سيجد ماوجدناه ، ويقف على صحة ماحكيناه . ولا يخرج من هؤلاء إلا النادر القليل ، ولا يكون ذلك إلا لعرق ينزعه إلى الشرف ، ويجذبه إلى الخير فى سلفه القديم ، وإن جهله من لم يعرفه .

وبالجملة : فهذا ماتفيده التجربة ، وتشير إليه بعض الأدلة الشرعية ، وإذا صح قوله صلى الله عليه وآله وسلم :«واضع العلم فى غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر»(٢١١) ، ففيه أعظم عبرة للمعتبرين من الحاملين لعلوم الدين . وقد عزاه بعض أهل العلم إلى ابن ماجه(٢١٢) ، ولا استحضره حال الرقم فيما هو فى حفظى من أحاديث سنن ابن ماجه ، فلينظر . ثم كشفت عنه فوجدته فى سنن ابن ماجه ، عن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه

---

(٢١١) رواه ابن ماجه : فى مقدمة السنن باب ١٧ .

(٢١٢) انظر الهامش السابق .

وآله وسلم :«**طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وواضع العلم عند غير أهله كمقلد الخنازير الجوهر واللؤلؤ والذهب**»[٢١٣] . وفى إسناده حفص بن سليمان البزاز ، وفيه مقال .

وأما من كان أهلًا للعلم ، وفى مكانٍ من الشرف ، فإنه يزداد بالعلم شرفاً إلى شرفه ، ويكتسب به من حسن السمت ، وجميل التواضع ، ورائق الوقار ، وبديع الأخلاق ، ما يزيد علمه علوا ، وعرفانه تعظيما ؛ فيتخلق بأخلاق الأنبياء ، ومن يمشى على طريقهم ، من عاملى العلماء وصالحى الامة ، ويعرف للعلم حقه ، ويعظمه بما ينبغى من تعظيمه ، فلا يكدره بالمطامع ، ولا يشوبه بالخضوع لأهل الدنيا ، ولا يجهمه بالتوصل به إلى ما فى يد الأغنياء ، فيكون عنده مخدوما لا خادما ، ومقصودا لا قاصدا .

وبين هاتين الطائفتين : طائفة ثالثة ، ليست من هؤلاء ، ولا من هؤلاء ، جعلوا العلم مكسبا من مكاسب الدنيا ، ومعيشة من معايش أهله ، لا غرض لهم فيه إلا إدراك منصب من مناصب أسلافهم ، ونيل رئاسة من الرئاسات التى كانت لهم .

كما نشاهده فى عالب البيوت المعمورة بالقضاء أو الإفتاء أو الخطابة أو الكتابة ، أو ما هو شبيه بهذه الأمور .

فإن من كان طالباً للوصول إلى شىء من هذه الأمور ذهب إلى مدارس العلم يتعلم ما يتأهل به لما يطلبه ، وهو لا يتصور البلوغ إلى الثمرة المستفادة من العلم ، والغاية الحاصلة لطالبه فيكون ذهنه كليلًا ، وفهمه عليلًا ، ونفسه خائرة ، ونيته خاسرة ، بل غاية تصوره ، ومعظم فكرته فى اقتناص المنصب ، والوصول إليه ، فيخدم فى مدة طلبه واشتغاله أهل المناصب ، ومن يرجو منهم الإعانة على بلوغ مراده أكثر مما يخدم العلم ، ويتردد إلى أبوابهم ، ويتعثر فى مجالسهم ، ويذوق به من الإهانة ما فيه أعظم مرارة ، ويتجرع من الغصص

---

(٢١٣) انظر الهامش قبل السابق .

ما يصغر قدر الدنيا بالنسبة إليه .

فإذا نال ذلك المنصب ضرب بالدفاتر وجه الحائط ، وألقاها خلف السور لعدم الباعث عليها من جهة نفسه والمنشط على العلم والمرغب فيه .

فهذا هو شبيه بمن يتعلم مهنة من المهن ، ويتدرب فى حرفة من الحرف ، فيقصد أهلها حتى يدركها ، ويكون فيها استاذا ، ثم يذهب إلى دكان من الدكاكين ، فيعتاش بتلك الحرفة .

وليس هو من أهل العلم فى ورد ولا صدر ، ولا ينبغى أن يكون معدودا منهم وإن ارتسم فى ذهنه منه رسوم ، فهو من أزهد الناس فيها ، وأجفاهم لها ، وأقلهم احتفالا بها ، ولا فائدة فى تعلمه راجعة إلى الدين قط ، بل غاية ما استفاده منه العلم وأهله تعريضه وتعريضهم للاهانة عند أهل الدنيا وإيقاعه وإيقاعهم فى يد من لا يعرف للعلم قدرا ، ولا يرفع له ذكرا ، ولا يقيم له وزنا ، كما يشاهد من المتعلقين بالأعمال الدولية ، فإنهم يتلاعبون بطلبة المناصب الدنيوية غاية التلاعب ، ويعرضّونهم للاهانة مرة بعد أخرى ، ويتلذذون بذلك ويتبهجون ؛ لانهم يظنون أنها قد ارتفعت طبقتهم عن طبقات أهل العلم ، وحكموا تارة فيهم بالولاية وتارة بالعزل ، وتمرغوا على عتباتهم مرة بعد مرة . فبهذه الوسيلة دخل على أهل العلم بما يصنعه هؤلاء من هذه الهنات الوضيعة ، والفعلات الشنيعة ، ما تبكى عيون العلم وأهله ، وتقوم عليه النواعى ، ويغضب له كل من له حمية دينية وهمة علية . ولو علم أولئك المغرورون لم يتبهجوا بمن قصدهم من هؤلاء النوكاء ؛ فإنهم ليسوا من أهل العلم ، ولا بينهم وبينهم علاقة ، ولا فرق بينهم وبين من يطلب الاعمال الدولية التى لا تعلق لها بالعلم .

ومن هذه الحيثية تنازل منصب العلم ، وتهاون الناس به ؛ لأنهم يرون رجلا قد لبس لباس أهل العلم ، وتزيّا بزيهم ، وحضر مجالسهم ، ثم ذهب إلى مجالس أهل الدنيا ومن لهم قدرة على إيصال أهل الأعمال الدنيوية إليها من وزير أو أمير ، فتصاغر لهم ، وتذلل ، وتهاون ، وتحقر ، حتى يصير فى عداد خدمهم ،

ومن هو فى أبوابهم . ثم أعطوه منصبا من المناصب ، فعمل على ما يريدونه منه ، وإن خالف الشرع ، واعتمد ما يرسمونه له وإن كان طاغوتا بحتاً .

فيظن من لا علم عنده بحقائق الأمور أن أهل العلم كلهم هكذا ، وأنهم ينسلخون من العلم إذا ظفروا بمنصب من المناصب هذا الانسلاخ ، ويمسخون هذا المسخ . ويعود أمرهم إلى هذا المعاد ، فيزهد فى العلم وأهله ، وتنفر عنه نفسه ، وتقل فيه رغبته ، ويؤثر الحُرف الدنيوية عليه ؛ ليربح السلامة من المهانة ، التى رآها نازلة بهذا المشوم ، الجالب على نفسه ، وعلى أهل العلم ، ما جلب من الذل والصغار .

وإذا كان ما جناه هؤلاء النوكاء على العلم وأهله بالغاً إلى هذا الحد عند سائر الناس ، فما ظنك بما يعتقده فيهم من يطلبون من المناصب ، بعد أن شاهد منهم ما يشاهده من الخضوع والذلة والانسلاخ عن الشرع إلى ما يريدونه منه وبذل الأموال لهم على ذلك ، ومهاداتهم بأفخر الهدايا ، والوقوف على ما يطلبونه منه على أى صفة تراد منهم .

وينضم إلى هذا خلوهم عن العلم ، وجهلهم لأهله الذين هم أهله ، فيظنون أن أولئك الذين قصدوهم ، وتعثروا على أبوابهم هم رؤوس أهله ، لما يشاهدونه عليهم من الهيئة واللباس الفاخر الذى لا يجدونه عند المشتغلين بالعلم .

فهل تراهم بعد هذا يميلون إلى ما يقوله أهل العلم ، وينزجرون بما يوردونه عليهم من الزواجر الشرعية ، المتضمنة لانكار ما هو منكر ، والأمر بما هو معروف ، والتخويف لهم عن مجاوزة حدود الله ؟! هيهات أن يصغوا لهذا سمعا ، أو يفتحوا له طرفاً .. فإلى الله المشتكى ، وعليه المعول . فهذا أمر وقع فيه أهل العصور الأول فالأول .

وما أحق أهل العلم الحاملين لحجج الله ، المرشدين لعباده إلى شرائعه ، أن يطردوا هؤلاء عن مجالسهم ، ويبعدوهم عن مواطن تعليمهم ، وأن لا يبذلوا العلم إلا لمن يقدره حق قدره ، وينزله منزلته ، ويطلبه لذاته ، ويرغب فيه

لشرفه ، ويعتقد أنه أشرف مطلب من مطالب الدين والدنيا ، وأنه يصغر عنده الملك فضلًا عما هو دونه .

*تولى أهل العلم للمناصب :

ولا أقول : إن أهل العلم العارفين به ، المطلعين على أسراره ، يمنعون أنفسهم من المناصب الدينية .

وكيف أقول بهذا وهذه المناصب إذا لم تربط بهم ضاعت ، وإذا لم يدخل فيها الأخيار تتابع فيها الأشرار ، وإذا لم يقم بها أهل العلم قام بها أهل الجهل ، وإذا أدبر عنها أهل الورع أقبل إليها أهل الجور .

وكيف أقول هذا وأهل العلم هم المأمورون بالحكم بين الناس بالحق ، والعدل ، والقسط ، وماأنزل الله ، وماأراهم الله القيام بين الناس بحججه ، والتبليغ لأحكامه ، وتذكيرهم بما أمر الله بالتذكير به ، وإرشادهم إلى ماأرشدهم الله إليه ، ولأهل القضاء والإفتاء ونحوها من هذه الأمور أوفر نصيب وأكبر حظ .

ولكنى أقول : إنه ينبغى لطالب العلم أن يطلبه كما ينبغى ، ويتعلمه على الوجه الذى يريده الله منه ، معتقداً أنه أعلا أمور الدين والدنيا ، راجياً أن ينفع به عباد الله بعد الوصول إلى الفائدة منه . ومن جملة النفع إذا احتاج إليه الملوك وأهل الدنيا أن يلى منصبا من المناصب ، فطلبوا منه ذلك ، وعولوا عليه فى الإجابة ، معترفين بحق العلم ، منقادين إلى مايوجبه الشرع ، معظمين لما أوجب الله تعظيمه ، وكان قد بلغ إلى منزلة فى العلم تصلح لذلك المنصب ، وشهد له أهل العلم بكمال التأهيل ، وإحراز عدته ؛ فهذا إذا كان الحال هكذا لا يحل له أن يمتنع من الإجابة أو يأبى من قبول ذلك ؛ فإنه إذا فعل ذلك كان تاركاً لما أوجبه الله عليه من القيام بحجته ، ونشر أحكامه ، وإرشاد عباده إلى

معالمه ، ونهيهم عن تجاوز حدوده . ولا شك أن ذلك من أوجب الواجبات على أهل العلم ، وأهم المهمات ، ولو جاز ذلك لمن طلُب منهم ، وعول عليه ، لجاز لغيره من أهل العلم أن يصنع كصنعه ، ويسلك مسلكه ، فتتعطل معاهد الشرع ، وتذهب رسومه ، ويتخذ الناس رؤوساً جهالًا ، يقضون بغير علم ، فيَضلوْن ويُضلون . وذلك من علامات القيامة ، وأشراط الساعة كما ورد به الخبر الصحيح[٢١٤] .

كيفية الوصول إلى المرتبة الثانية للعلم

وإذا عرفت ما ينبغي لأهل الطبقة الأولى من العلوم ،فلنتكلم الآن على ما ينبغي لأهل الطبقة الثانية من الطبقات المذكورة سابقا ، وهى طبقة من يريد أن يعرف ما طلبه منه الشارع من أحكام التكليف والوضع على وجه يستقل فيه بنفسه ، ولا يحتاج إلى غيره ، من دون أن يتصور البلوغ إلى ما تصوره أهل الطبقة الأولى من تعدى فوائد معارفهم إلى غيرهم والقيام فى مقام أكابر الأئمة المرجوع إليهم ، كما يتصوره أهل الطبقة الاولى .

فنقول : صاحب هذه الطبقة الثانية : هو من يطلب ما يصدق عليه مسمى الاجتهاد ، ويسوغ به العمل بأدلة الشرع ، وهو يكتفى بأن يأخذ من كل فن من فنون الاجتهاد بنصيب يعلم به ذلك الفن علما يستغنى به عن الحاجة إليه ، أو يهتدى به إلى المكان الذى فيه ذلك البحث على وجه يفهم به ما يقف عليه منه :

★علـــم النحـــو :

فيشرع بتعلم علم النحو ، حتى تثبت له فيه ملكة يقتدر بها على معرفة أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناءً . وأقل ما يحصل له ذلك ، بحفظ مختصر من

---

(٢١٤) وذلك فى قوله (ص) : «**إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويظهر الجهل**» رواه البخارى : فى كتاب العلم ، باب رفع العلم وظهور الجهل . ومسلم : فى كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن آخر الزمان .

المختصرات ، المشتملة على مهمات مسائل النحو ، والمتضمنة لتقرير مباحثه على الوجه المعتبر ، كالكافية لابن الحاجب[٢١٥] ، وقراءة شرح من شروحها المختصرة ، وأحسنها بالنسبة إلى الشروح المختصرة شرح الجامى[٢١٦] . فإنه ينتفع به الطالب انتفاعاً لا يجده فى غيره من مختصرات الشروح .

*علـم الصــرف :

ثم يحفظ مختصرا فى الصرف ، كالشافية لابن الحاجب ، وقراءة شرح من شروحها المختصرة ، وأحسنها شرح الجاربردى[٢١٧] .

*علـم المعانى والبيــان :

ثم يشتغل بحفظ مختصر من مختصرات علم المعانى والبيان ، كالتلخيص للقزوينى ، وقراءة شرح من شروحه المختصرة كشرح السعد المختصر .

*علــم أصــول الفقــه :

ثم يشتغل بحفظ مختصر من مختصرات الأصول الفقهية ، وقراءة شرح من

---

(٢١٥) سبق التعريف به .

(٢١٦) المسمى «الفوائد الضيائية» وصاحبها : عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الجامى : (٨١٧ — ٨٩٨ هـ = ١٤١٤ ـ ١٤٩٢ م) ، مفسر ، فاضل ، ولد فى جام من بلاد ماوراء النهر . من كتبه «تفسير القرآن» و «شرح فصوص الحكم لابن عربى» ، و «شرح الرسالة العضدية» فى الوضع . كشف الظنون ١٣٧٢ ، والفوائد البهية ٨٦ ، وشذرات الذهب ٧ : ٣٦٠ .

(٢١٧) سبق التعريف به .

شروحه ، وأنفع ماينتفع به الطالب الغاية للحسين بن القاسم[٢١٨] وشرحها له . فإنهما مع المبالغة فى الاختصار قد اشتملا على ماحوته غالب المطولات الكبار .

*علـــم التفســـير :

ثم يشتغل بقراءة تفسير من التفاسير المختصرة كتفسير القاضى البيضاوى[٢١٩] ، مع مراجعة مايمكنه مراجعته من التفاسير .

*علـــم الحـــديث :

ثم يشتغل بسماع مالابد من سماعه من كتب الحديث ، وهى الست الأمهات ؛ فإن عجز عن ذلك اشتغل بسماع ماهو مشتمل على مافيها من المتون ، كجامع الأصول[٢٢٠] . ثم لايدع البحث عن ماهو موجود من أحاديث الأحكام فى غيرها بحسب ماتبلغ إليه طاقته . ويبحث عن الأحاديث الخارجة عن الصحيح فى المواطن التى هى مظنة للكلام عليها من الشروح والتخريجات .

*علـــوم أخـــرى :

ويكون مع هذا عند ممارسته لعلم اللغة على وجه يهتدى به فى البحث عن

---

(٢١٨) سبق التعريف به .

(٢١٩) اسمه كاملًا «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» ، وصاحبه : عبد الله بن عمر بن محمد ، ناصر الدين البيضاوى : قاض ، مفسر ، ولى قضاء شيراز مدة . من كتبه أيضاً «طوالع الأنوار» فى التوحيد ، و «منهاج الوصول إلى علم الأصول» . توفى سنة ٦٨٥ هـ = ١٢٨٦ م . البداية والنهاية ١٣ : ٣٠٩ ، وبغية الوعاة ٢٨٦ ، ونزهة الجليس ٢ : ٨٧ ، والأعلام ٤ : ١١٠ .

(٢٢٠) لابن الأثير ، سبق التعريف به .

الألفاظ العربية واستخراجها من مواطنها ، وعنده من علم إصطلاح الحديث وعلم الجرح والتعديل مايهتدى به إلى معرفة مايتكلم به الحفاظ على أسانيد الأحاديث ومتونها .

*مؤشـــر الوصـول إلى المرتبـة الثانيـة :

فمن علم بهذه العلوم علما متوسطا ، يوجب ثبوت مطلق الملكة فى كل واحد منها ، صار مجتهدا مستغنيا عن غيره ، ممنوعا من العمل بغير الدليل . وعليه أن يبحث عند كل حادثة يحتاج إليها فى دينه عن أقوال أهل العلم ، وكيفية استدلالهم فى تلك الحادثة ، وماقالوه ، ومارد عليهم به ؛ فانه ينتفع بذلك انتفاعا كاملًا ، ويضم إلى علمه علوماً وإلى فهمه فهوماً .

وهو وإن قصر عن أهل الطبقة الأولى ، فليس بمحتاج فيما يتعلق به من أمر الدين الى زيادة على هذا المقدار .

ويختلف الانتفاع بالعلوم باختلاف القرائح والفهوم ؛ فقد ينتفع من هو كامل الذكاء ، صادق الفهم ، قوى الإدراك ، بالقليل مالا يقتدر على الانتفاع بما هو أكثر منه كثير من جامدى الفهم راكدى الفطنة .

كيفيـة الوصـول إلى المرتبـة الثالثـة للعـلم

وأما أهل الطبقة الثالثة : وهم الذين يرغبون إلى إصلاح ألسنتهم ، وتقويم أفهامهم بما يقتدرون به على فهم معانى مايحتاجون إليه من الشرع ، وعدم تحريفه ، وتصحيفه ، وتغيير إعرابه ، من دون قصد منهم إلى الاستقلال ، بل

يعزمون على التعويل على السؤال عند عروض التعارض والاحتياج إلى الترجيح .

*علـــم الإعـــراب :

فينبغى تعلم شيئا من علم الإعراب حتى يعرف به إعراب أواخر الكلم . ويكفيه فى مثل ذلك حفظ منظومة الحريرى[٢٢١] المسماة« **الملحة** » وقراءة شروحها على أهل الفن . وتدربه فى إعراب مايطلع عليه من الكلام المنظوم والمنثور . ويحفى[٢٢٢] السؤال عن إعراب ماأشكل عليه ؛ حتى تثبت له بمجموع ذلك ملكة يعرف بها أحوال أواخر الكلم إعراباً وبناء ، وإن لم يعلم بوجوه العلل النحوية ولا عرف الحجج العربية .

*علـــم مصطلـــح الحـــديث :

ثم يتعلم اصطلاح علم الحديث ، ويكفيه فى مثل ذلك مثل« **النخبة** » وشرحها .

*علـــم الســـــنة :

ثم بعد هذا يكب على سماع المختصرات فى الحديث مثل« **بلوغ المرام** » و« **العمدة** » ، و« **المنتقى** » . وإن تمكن من سماع« **جامع الأصول** » أو شىء من مختصراته فعل[٢٢٣] .

فإذا اشكل عليه معنى حديث نظر فى الشروح أو كتب اللغة وإن أشكل

---

(٢٢١) سبق التعريف به .

(٢٢٢) (أَحْفَى) فلان فلاناً : ألحَّ عليه فى السؤال وجَهَدَه . ويقال : أَحْفَى السؤال وأحفى الكلام ، وفيهما : رددهما واستقصى فيهما .

(٢٢٣) سبق الإشارة إلى كل هذه الكتب والتعريف بمؤلفيها .

عليه الراجح من المتعارضات ،أو التبس عليه : هل الحديث مما يجوز العمل به أم لا ؟ سأل علماء هذا الشأن الموثوق بعرفانهم وانصافهم ، ويعمل على ما يرشدونه إليه ، استفتاءً وعملًا بالدليل ، لا تقليداً وعملًا بالرأى .

★علـــم التفســـير :

ويشتغل بسماع تفسير من التفاسير التى لا يحتاج إلى تحقيق وتدقيق ، كتفسير البغوى(٢٢٤) ، وتفسير السيوطى المسمى« **الدر المنثور** »(٢٢٥) .

★ماذا يفعل الطالب عند حدوث إشكال أو صعوبة :

وإذا أشكل عليه بحث من المباحث ، أو تعارضت عليه التفاسير ، ولم يهتد إلى الراجح ، أو التبس عليه أمر يرجع إلى تصحيح شيء مما يجده فى كتب التفسير ــ رجع إلى أهل العلم بذلك الفن سائلا لهم عن الرواية لا عن الرأى .

وقد كان من هذه الطبقة الصحابة ، والتابعين ، وتابعيهم الذين يقول فيهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم :« **خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم** »★ . فإنهم كانوا يسألون أهل العلم منهم ، عن حكم ما يعرض لهم ، مما يحتاجون إليه فى معاشهم ومعادهم ، فيروون لهم فى ذلك ما جاء عن الله تعالى ، أو عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ فيعملون بروايتهم ،

(٢٢٤) اسمه كاملًا « لباب التأويل فى معالم التنزيل » وصاحبه : الحسين بن مسعود بن محمد ، البغوى : (٤٣٦ ـ ٥١٠ هـ = ١٠٤٤ ـ ١١١٧ م) ، مفسر ، فقيه محدث . نسبته إلى « بغا » من قرى خرسان . له « شرح السنة » فى الحديث ، و« مصابيح السنة » . وفيات الأعيان ١ : ١٤٥ ، وتهذيب ابن عساكر ٤ : ٣٤٥ ووفاته فيه سنة ٥١٦ هـ ، ودائرة المعارف الإسلامية ٤ : ٢٧ ، وفهرست الكتبخانة ١ : ٣٥٧ و ٤٤٢ .

(٢٢٥) سبق الإشارة إليه والتعريف بمؤلفه .

★ رواه البخارى ، والترمذى ، وابن ماجه ، وغيرهم .

لا برأيهم ، من دون تقليد ولا التزام رأى ، كما يعرف ذلك من يعرفه .

وقد أوضحت هذا إيضاحاً كثيراً فى كتابى الذى سميته «**القول المفيد فى حكم التقليد**» ؛ فليرجع اليه .

كيفية الوصول إلى المرتبة الرابعة للعلم

وأما الطبقة الرابعة : الذين يقصدون الوصول إلى علم من العلوم ، أو علمين ، أو اكثر ، لغرض من الأغراض الدينية أو الدنيوية ، من دون تصور الوصول إلى علم الشرع ، كما يفعله من يريد أن يكون مدركا لصناعة من الصناعات التى لها تعلق بالعلم ، وذلك كمن يريد أن يكون شاعراً ومنشئاً ، أو حاسباً ، فإنه ينبغى له أن يتعلم ما يتوصل به إلى ذلك المطلب .

* كيف تصبح شاعراً ؟ :

فمن أراد أن يكون شاعراً ، تعلم من علم النحو ، والمعانى ، والبيان ، ما يفهم به مقاصد أهل هذه العلوم .

ويستكثر من الاطلاع على علم البديع ، والإحاطة بأنواعه ، والبحث عن نكته وأسراره ، وعلم العروض والقوافى .

ويمارس أشعار العرب ، ويحفظ ما يمكنه حفظه منها ، ثم اشعار أهل الطبقة

الأولى من أهل الاسلام : كجرير[٢٢٦] ، والفرزدق[٢٢٧] ، وطبقتهما .

ثم اشعار مثل : بشار بن برد[٢٢٨] ، وأبى نواس[٢٢٩] ومسلم بن الوليد[٢٣٠] .

وأعيان من جاء بعدهم : كأبى تمام[٢٣١] ، والبحترى[٢٣٢] ، والمتنبى[٢٣٣] .

(٢٢٦) جرير بن عطية بن حذيفة ، من تميم : (٢٨ ــ ١١٠هـ = ٦٤٠ ــ ٧٢٨م) ، أشعر أهل عصره . عاش عمره كله يناضل الشعراء ويساجلهم ــ وكان هجاؤه مراً ــ فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل . الأغانى : أول المجلد الثامن ، من طبعة دار الكتب ، ووفيات الأعيان ١ : ١٠٢ .

(٢٢٧) همام بن غالب التميمى : (٠٠٠ ـ ١١٠ هـ = ٠٠٠ ـ ٧٢٨ م) ، من الشعراء النبلاء ، عظيم الأثر فى اللغة . وكان مشتهراً بالنساء . خزانة البغدادى ١ : ١٠٥ ـ ١٠٨ ، والشعر والشعراء تحقيق شاكر ٤٤٢ ، وأمالى المرتضى ١ : ٤٣ ـ ٤٩ .

(٢٢٨) بشار بن برد العقيلى : (٩٥ ـ ١٦٧ هـ ٧١٤ ــ ٧٨٤ م) ، أشعر المولدين على الإطلاق . كان ضريراً . وشعره كثير متفرق من الطبقة الأولى . واتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط . الشعر والشعراء ٢٩١ ، والكامل للمبرد ٢ : ١٣٤ ، ونكت الهميان ١٢٥ .

(٢٢٩) الحسن بن هانىء بن عبد الأول ، أبو نواس : (١٤٦ ـ ١٩٨ هـ = ٧٦٣ ـ ٨١٤ م) ، شاعر العراق فى عصره . قال الجاحظ : « مارأيت رجلا أعلم باللغة ولا أفصح لهجة من أبى نواس » . وهو أول من نهج للشعر طريقته الحضرية وأخرجه من اللهجة البدوية . خزانة البغدادى ١ : ١٦٨ ، ووفيات الأعيان ١ : ١٣٥ ، والشعر والشعراء ٣١٣ .

(٢٣٠) مسلم بن الوليد الأنصارى : (٠٠٠ ـ ٢٠٨ هـ = ٠٠٠ ـ ٨٢٣ م) ، شاعر غزل ، هو أول من أكثر من «البديع» وتبعه الشعراء فيه . ولقبه الرشيد بـ «صريع الغوانى» عندما أنشده : « وما العيش إلا أن تروح مع الصبى وتغدو ، صريع الكأس والأعين النجل » . التبريزى ٣ : ٥ ، وتاريخ بغداد ١٣ : ٩٦ ، والشعر والشعراء ٣٣٩ .

(٢٣١) حبيب بن أوس الطائى ، أبو تمام : (١٨٨ ــ ٢٣١ هـ = ٨٠٤ ــ ٨٤٦ م) ، الشاعر ، الأديب ، أحد أمراء البيان . أختلف فى التفضيل بينه وبين المتنبى والبحترى . له تصانيف ، منها « فحول الشعراء » و « ديوان الحماسة » . خزانة البغدادى ١ : ١٧٢ و ٤٦٤ ، وتاريخ بغداد ٨ : ٢٤٨ ، وشذرات الذهب ٢ : ٧٢ .

(٢٣٢) الوليد بن عبيد الطائى ، البحترى : (٢٠٦ ـ ٢٨٤ هـ = ٨٢١ ـ ٨٩٨ م) ، شاعر كبير يقال لشعره « سلاسل الذهب » . وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم : المتنبى ، وأبو تمام ، والبحترى . قيل لأبى العلاء المعرى : أى الثلاثة أشعر ؟ فقال المتنبى وأبو تمام حكيمان ، وإنما الشاعر البحترى . تاريخ بغداد ١٣ : ٤٤٦ ، ومفتاح السعادة ١ : ١٩٣ ، والأعلام ٨ : ١٢٠ .

(٢٣٣) أحمد بن الحسين ، أبو الطيب المتنبى : (٣٠٣ ــ ٣٥٤هـ = ٩١٥ ــ ٩٦٥م) ، الشاعر =

ثم أشعار المشهورين بالجودة من أهل العصور المتأخرة . ويستعين على فهم مااستعصب عليه بكتب اللغة . ويكب على الكتب المشتملة على تراجم أهل الأدب : « **كيتيمة الدهر** »[٢٣٤] وذيولها[٢٣٥] ، « **وقلائد العقيان** »[٢٣٦] ، وماهو على نمطه من مؤلفات أهل الادب : كالريحانة[٢٣٧] والنفحة[٢٣٨] .

*كيف تصبح منشئاً ؟ :

وكما يحتاج إلى ماذكرناه من أراد أن يكون شاعراً ، فهو يحتاج إليه أيضا من أراد أن يكون منشئا مع احتياجه إلى الاطلاع على « **المثل السائر** » لابن الأثير[٢٣٩] و « **الكامل** » للمبرد[٢٤٠] ، و « **الأمالى** » للقالى[٢٤١] ، ومجاميع

= الحكيم . وأحد مفاخر الأدب العربى . تنبأ فتبعه كثيرون ، ثم رجع عن دعواه . تاريخ بغداد ٤ : ١٠٢ ، وابن خلكان ١ : ٣٦ ، وابن الوردى ١ : ٢٩٠ .

(٢٣٤) لعبد الملك بن محمد ، أبى منصور الثعالبى : أحد كبار الأدباء ، وأئمة اللغة ، مولده ووفاته ٣٥٠١ ـ ٤٢٩ هـ = ٩٦١ ـ ١٠٣٨ م) .

(٢٣٥) ليتيمة الدهر ذيول كثيرة ، نذكر منها : « خريدة القصر » للعماد الأصبهانى ، و « دمية القصر » للباخرزى .

(٢٣٦) وهو فى أخبار شعراء المغرب ، للفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان : كاتب ، مؤرخ ، من أهل إشبيلية . مات ذبيحاً بمدينة مراكش بإيعاز من على بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين . مولده ووفاته (٤٨٠ ـ ٥٢٨ هـ = ١٠٨٧ ـ ١١٣٤ م) . نفح الطيب ٤ : ٦١٨ ، ومعجم ابن الأبار ٣٠٠ .

(٢٣٧) اسمه كاملًا « ريحانة الألباء وزهرة الحياة الدنيا » ، لأحمد الخفاجى : أديب ، مؤرخ . مات سنة ١٠٦٩ هـ .

(٢٣٨) اسمها كاملًا « نفحة الريحانة ورشحة طلى العانة » ، نحا فيه مؤلفه منحى الخفاجى فى ريحانه الألباء ، مجلد واحد . وصاحبه : محمد بن أمين المحبى : (١٠٦١ ـ ١١١١ هـ = ١٦٥١ ـ ١٦٩٩ م) ، مؤرخ ، باحث ، أديب . عنى كثيراً بتراجم أهل عصره ، فصنف « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » . سلك الدرر ٤ : ٨٦ ، وآداب زيدان ٣ : ٢٩٥ .

(٢٣٩) سبق التعريف به .

(٢٤٠) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ، المعروف بالمبرد : (٢١٠ ـ ٢٨٦ هـ = ٨٢٦ ـ ٨٩٩ م) ، إمام العربية ببغداد فى زمنه ، وأحد أئمة الأدب والأخبار . تاريخ بغداد ٣ : ٣٨٠ وآداب اللغة ٢ : ١٨٦ ، ولسان الميزان ٥ : ٤٣ .

(٢٤١) إسماعيل بن القاسم ، أبو على القالى : (٢٨٨ ـ ٣٥٦ هـ = ٩٠١ ـ ٩٦٧ م) ، أحفظ أهل =

خطب البلغاء ورسائلهم ، خصوصاً مثل ماهو مدونّ من بلاغات الجاحظ[٢٤٢] ، والفاضل[٢٤٣] ، والعماد[٢٤٤] ، وأمثالهم ؛ فإنه ينتفع بذلك أتم انتفاع .

★كيف تصبح محاسباً ؟ :

ومن أراد أن يكون محاسباً ، اشتغل بعلم الحساب ، ومؤلفاته معروفة .

★كيف تصبح عالماً بالفلسفة ؟ :

وهكذا من أراد أن يطلع على علم الفلسفة ؛ فإنه يحتاج إلى معرفة العلم الرياضى : وهو علم يعرف به أحوال الكمّ المتصل والمنفصل ، والعلم الطبيعى : وهو العلم الباحث عن أحوال عالم الكون والفساد ، والعلم الإلهى : وهو العلم الباحث عن أحوال الموجود بما هو موجود ، مع ما يتعلق بذلك من أحوال المبدأ والمعاد . وهكذا علم الهندسة : وهو العلم الباحث عن مقادير

= زمانه للغة والشعر والأدب . تذكرة النوادر ١١١ ، ونفح الطيب ٢ : ٨٥ .

(٢٤٢) عمرو بن بحر الجاحظ (١٦٣ ـ ٢٥٥ هـ = ٧٨٠ ـ ٨٦٩ م) أحد كبار الأدباء المبدعين ، له مصنفات عديدة قيمة مثل « **البيان والتبين** » ، و« **البخلاء** » ، و« **الحيوان** » . أمراء البيان ٣١١ ـ ٤٨٧ ، وأمالى المرتضى ١ : ١٣٨ .

(٢٤٣) عبد الرحيم بن على ، المعروف بالقاضى الفاضل : (٥٢٩ ـ ٥٩٦ هـ = ١١٣٥ ـ ١٢٠٠ م) ، وزير من أئمة الكتّاب . له « ديوان شعر » مطبوع . النجوم الزاهرة ٦ : ١٥٦ ، وابن خلكان ١ : ٢٨٤ ، والأعلام ٣ : ٣٤٦ .

(٢٤٤) محمد بن محمد ، عماد الدين الكاتب الأصبهانى : (٥١٩ ـ ٥٩٧ هـ = ١١٢٥ ـ ١٢٠١ م) ، مؤرخ ، عالم بالأدب ، من أكابر الكتاب . من مصنفاته « **خريدة القصر** » الذى سبق الإشارة إليه ، و« **البرق الشامى** » سبع مجلدات فى أخبار صلاح الدين وفتوحه . مفتاح السعادة ١ : ٢١٤ ، وآداب اللغة ٣ : ٦١ ، والمختصر المحتاج إليه ١٢٢ .

الاشياء كمّاً وكيفاً ومبادئ الاشكال . فمن جمع هذه العلوم الأربعة — أعنى الرياضى والطبيعى والإلهى والهندسى — صار فيلسوفا .

والعلم بالعلوم الفلسفية لا ينافى علم الشرع ، بل يزيد المتشرع الذى قد رسخت قدمه فى علم الشرع غبطة بعلم الشرع ومحبة له ؛ لأنه يعلم أنه لاسبيل للوقوف على ماحاول الفلاسفة الوقوف عليه إلا من جهة الشرع ، وأن كل باب غير هذا الباب لا ينتهى بمن دخل إليه إلى غاية وفائدة .

★ كيف تصبح طبيباً ؟

ومن كان مريدا لعلم الطب فعليه بمطالعة كتب جالينوس[٢٤٥] ، فإنها أنفع شيء فى هذا الفن باتفاق من جاء بعده من المشتغلين بهذه الصناعة إلا النادر القليل . وقد انتقى منها جماعة من المتأخرين ستة عشر كتابا وشرحوها شروحا مفيدة .

فإن تعذر عليه ذلك ، فأكمل ماوقفت عليه من الكتب الجامعة بين المفردات والمركبات والعلاجات كتاب « **القانون** » لابن سينا ، و« **كامل الصناعة** » المشهور بـ « **الملكى** »[٢٤٦] لعلى بن العباس[٢٤٧] .

---

(٢٤٥) سبق التعريف به .

(٢٤٦) كان أكثر اعتماد الناس على كتاب « كامل الصناعة الطبية الضرورية » فى زمانه ، ولزموا درسه إلى أن ظهر كتاب « القانون » لابن سينا ، فمالوا إليه وتركوا الملكى بعض الترك . ويعتبر الملكى – كما قال القفطى – فى العمل أبلغ ، والقانون فى العلم أثبت .

(٢٤٧) على بن عباس المجوسى : فارسى الأصل ، من علماء الطب . من تلاميذ موسى بن يوسف بن السيار . وكان متصلًا بعضد الدولة بن بويه ، فصنف له الكتاب المذكور أعلاه . مات نحو سنة ٤٠٠ هـ = ١٠١٠ م . أخبار الحكماء ١٥٥ ، وطبقات الأطباء ١ : ٢٣٦ ، وكشف الظنون ٢ : ١٣٨ .

ومن أنفع المختصرات فى هذا الفن «**الذخيرة**» لثابت بن قرة[٢٤٨] ، فإنها قد تضمنت من العلاجات النافعة والأدوية المجربة ، مع اختصارها ما هو قائم مقام كثير من المطولات .

ومن أنفع ما فى هذا الفن باعتبار خواص الأدوية المفردة وبعض المركبات «**تذكرة الشيخ داود الانطاكى**»[٢٤٩] . ولو كمل بالمعالجات لكان مغنيا عن غيره ، ولكنه انقطع بعد أن شرع فى الكلام على معالجات العلل على حروف أبجد ، فوصل إلى حرف الطاء ، ثم انقطع الكتاب .

ومن أنفع الكتب فى هذا الفن «**الموجز**»[٢٥٠] وشروحه .

وبالجملة : فمن كان قاصداً إلى علم من العلوم ، كان عليه أن يتوصل إليه بالمؤلفات المشهورة بنفع من اشتغل بها ، المحررة أحسن تحرير ، المهذبة أبلغ تهذيب ، وقد قدمنا فى كل فن ما فيه إرشاد إلى أحسن المؤلفات فيه .

*كيف تكون عالماً بمذهب من المذاهب ؟ :

---

(٢٤٨) ثابت بن قرة : (٢٢١ ـ ٢٨٨ هـ = ٨٣٦ ـ ٩٠١ م) ، فيلسوف ، طبيب ، مهندس . وكان يحسن السريانية وأكثر اللغات الشائعة فى عصره . من كتبه « المبانى الهندسية » ، و « تصحيح مسائل الجبر » و « أصول الأخلاق » . طبقات الأطباء ١ : ٢١٥ ـ ٢٢٠ ، وحكماء الإسلام ٢٠ ، وابن خلكان ١ : ١٠٠ .

(٢٤٩) داود بن عمر الأنطاكى : (... ـ ١٠٠٨ هـ = ... ـ ١٦٠٠ م) ، عالم بالطب والأدب . كان ضريراً ، انتهت إليه رياسة الأطباء فى زمانه . ودرس اللغة اليونانية فأحكمها . من تصانيفه « تذكرة أولى الألباب » المذكور أعلاه ، وهو مطبوع فى ثلاث مجلدات . وله « غاية المرام فى تحرير المنطق والكلام » . خلاصة الأثر ٢ : ١٤٠ ـ ١٤٩ ، والأعلام ٢ : ٣٣٣ ـ ٣٣٤ .

(٢٥٠) يعنى كتاب « الموجز » فى الطب ، وهو اختصار لكتاب « القانون » لابن سينا . وصاحبه : على ابن أبى الحزم الملقب بابن النفيس : أعلم أهل زمانه بالطب . وكانت طريقته فى التأليف أن يكتب من حفظه وتجاربه ومشاهداته ومستنبطاته ، وقل أن يراجع أو أن ينقل . توفى بمصر سنة ٦٨٧ هـ = ١٢٨٨م . طبقات السبكى ٥ : ١٢٩ ، وشذرات الذهب ٥ : ٤٠١ ، ودول الإسلام للذهبى ٢ : ١٤٣ .

وكثيرا مايقصد الطالب الذى لم يتدرب بأخلاق المنصفين ، ويتهذب بإرشاد المحققين ، الاطلاع على مذهب من المذاهب المشهورة ، ولم تكن له فى غيره رغبة ، ولاعنده لما سواه نشاط ، فأقرب الطريق إلى إدراك مقصده ، ونيل مأربه ، أن يبتدىء بحفظ مختصر من مختصرات أهل ذلك المذهب «**كالكنز**»[٢٥١] فى مذهب الحنفية ، و «**المنهاج**»[٢٥٢] فى مذهب الشافعية . فإذا صار ذلك المختصر محفوظا له ، متقنا على وجه يستغنى به عن حمل الكتاب ، شرع فى تفهم معانيه ، وتدبر مسائله ، على شيخ من شيوخ ذلك الفن ، حتى يكون جامعا بين حفظ ذلك المختصر وفهم معانيه ، مع كونه مكررا لدرسه ، متدبرا لمعانيه ، الوقت بعد الوقت ، حتى يرسخ حفظه رسوخاً يأمن معه من التفلت .

ثم يشتغل بدرس شرح مختصر من شروحه على شيخ من الشيوخ ، ثم يترقى إلى ماهو أكثر منه فوائد وأكمل مسائل .

ثم يكبّ على مطالعة مؤلفات المحققين من أهل ذلك الفن ، فيضم ماوجده من المسائل خارجاً عن ذلك المختصر الذى قد صار محفوظاً له إليه ، على وجه يستحضره عند الحاجة إليه .

ولكنه إذا لم يكن لديه من العلم إلا ما قد صار عنده من فقه ذلك المذهب ، فلا ريب انه يكون عامى الفهم سيء الإدراك ، عظيم البلادة ، غليظ الطبع .

---

(٢٥١) يعنى كتاب « كنز الدقائق » لعبد الله بن أحمد بن محمود النسفى : فقيه حنفى ، مفسر . له مصنفات جليلة غير الكنز مثل « مدارك التنزيل » فى التفسير ، و« عمدة العقائد » . توفى سنة ٧١٠ هـ = ١٣١٠ م.الفوائد البهية ١٠١ ، والجواهر المضنية ١ : ٢٧٠ ، والدرر الكامنة ٢ : ٢٤٧ ، والأعلام ٤ : ٦٧ ـ ٦٨ .

(٢٥٢) يعنى « منهاج الطالبين » ليحيى بن شرف بن مرى ، أبو زكريا النووى : (٦٣١ ـ ٦٧٦ هـ = ١٢٣٣ ـ ١٢٧٧ م) ، فقيه ، محدث . من كتبه أيضاً « التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير » فى مصطلح الحديث ، وهو من تحقيقنا وإصدار دار الكتاب العربى ـ بيروت ، وأيضاً « التبيان فى آداب حملة القرآن » . طبقات الشافعية ٥ : ١٦٥ ، والنجوم الزاهرة ٧ : ٢٧٨ ، والأعلام ٨ : ١٤٩ ـ ١٥٠ ، وتقديمنا لتحقيق « التقريب » ص ١١ ـ ١٣ .

فعليه أن يبتدىء بتهذيب فهمه ، وتلقيح فكره ، بشيء من مختصرات النحو ، ومجاميع الأدب ، حتى تثبت له الفقاهة الصورية . وأما الفقاهة الحقيقية فلا يتصف بها إلا المجتهد بلا خلاف بين المحققين .

مباحث ضرورية لطالب الحق

- ★جلب المصالح ودفع المفاسد
- ★الدلائل العامة والكليات
- ★أصالة المعنى الحقيقى وعدم جواز الانتقال عنه إلا لعلاقة أو قرينة .
- ★التحايل على أحكام الشريعة
- ★الإجماع .. القياس ..
- ★الاجتهاد .. الاستحسان ..
- ★مفاسد أصابت دين الإسلام
- ★الاعتقادات الفاسدة فى بعض الأموات
- ★تعدد المذاهب
- ★مفاسد بعض أدعياء التصوف

وإذا قد عرفت ما ينبغى لكل طبقة من تلك الطبقات من المعارف العلمية ، فلنكمل لك الفائدة بذكر مباحث ، ينتفع بها طالب الحق ، ومريد الإنصاف ، انتفاعا عاما ، ويرتقى بها إلى مكان يستغنى به عن كثير من الجزئيات .

جلب المصالح ودفع المفاسـد :

فمنها : أن يعلم أن هذه الشريعة المطهرة السمحة ، مبنية على جلب المصالح ودفع المفاسد . ومن تتبع الوقائع الكائنة من الأنبياء ، والقصص المحكية فى كتب الله المنزلة ، علم ذلك علما لا يشوبه شك ، ولا تخالطه شبهة .

وقد وقع ذلك من نبينا صلى الله عليه واله وسلم وقوعاً لا ينكره من له أدنى علم بالشريعة المطهرة ؛ فانه صلى الله عليه وآله وسلم لما تبين له نفاق بعض المنافقين ، واستحقاقه للقتل بحكم الشرع ، قال «**لا يتحدث الناس بأن محمداً يقتل أصحابه**»[٢٥٣] .

فترك قتله لجلب مصلحة ، هى أتم نفعاً للإسلام ، وأكثر عائدة على أهله ، ودفع مفسدة هى أعظم من المفسدة الكائنة بترك قتله .

وبيان ذلك أنه إذا تحدث الناس بمثل هذا الحديث ، وشاع بينهم شيوعا لا يتبين عنده السبب ، كان ذلك من أعظم المنفرات لأهل الشرك عن الدخول فى الدين ، لأنه يصد أسماعهم ذلك الحديث ، فيظنون عنده ان ما يعتقدونه من السلامة من القتل بالدخول فى الإسلام غير صحيح ، فيهربون منه هرباً شديداً ويبعدون عنه بعدا عظيما .

وهكذا وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم التأثير لجماعة ممن لم تثبت قدمه فى الإسلام بغنائم (حنين) : كأبى سفيان ، والأقرع بن حابس ، وعيينه بن حصن فكان يعطى الواحد من هؤلاء وأمثالهم المائة من الإبل وما يقوم مقام ذلك . والمهاجرون والأنصار الذين هم المقاتلة المستحقون للغنيمة ، ينظرون إلى التأثير ، ووقع فى أنفسهم ما وقع ، حتى قال قائلهم : يرحم الله رسول الله

(٢٥٣) سبق تخريجه .

يعطى هؤلاء وسيوفنا تقطر من الدماء . فلما علموا بما أراده النبى صلى الله عليه وآله وسلم من المصلحة العائدة على الإسلام وأهله بتأليف مثل هؤلاء وتأثيرهم بالغنيمة ، قبلوه أتم قبول ، وطابت أنفسهم أكمل طيبة(٢٥٤) .

وهكذا وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم العزم على مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة ، ظنا منه بأن فى ذلك جلب مصلحة ودفع مفسدة ، فلما تبين له أن الترك أجلب للمصلحة وأدفع للمفسدة صار إليه .

وهكذا وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم النهى عن تلقيح النخل ، فلما تبين له مافى ذلك من المصلحة لأهله ، أذن لهم به(٢٥٥) .

وهكذا وقع منه الأذن بالعرايا(٢٥٦) لما شكى عليه الفقراء مايلحقهم من المفسدة بالمنع من شراء الرطب بالتمر مع عظم الخطر فيما هو مظنة بالربا .

وكم يعد العاد من هذه الأمور .

وبالجملة : فكل ماوقع من النسخ ، والتخصيص ، والتقييد ، فى هذه الشريعة المطهرة ، فسببه جلب المصالح ، أو دفع المفاسد .

فإن كل عالم يعلم أن نسخ الحكم بحكم آخر يخالفه لم يكن إلا لما فى الناسخ

---

(٢٥٤) رواه البخارى : فى كتاب الخمس ، باب ١٩ ؛ وكتاب مناقب الأنصار ، باب ١ ؛ وكتاب المغازى ، باب ٥٦ . ومسلم : فى كتاب الزكاه ، حديث برقم ١٣٢ و١٣٤ . وابن حنبل : جزء ٣ ، ص ١٦٦ و ١٦٩ و ١٨٨ و ٢٠١ و ٢٤٦ و ٢٤٩ .

(٢٥٥) رواه أحمد : فى الجزء ٣ ، ص ١٥٣٢ ، بلفظ : « عن أنس قال : سمع رسول الله (ص) أصواتاً ، فقال : ماهذا ؟ قالوا : يلقحون النحل . فقال : لو تركوه فلم يلقحوه لصلح . فتركوه فلم يلقحوه فخرج شيصاً ، فقال النبى (ص) : مالكم ؟ قالوا : تركوه لما قلت . فقال رسول الله (ص) : إذا كان شىء من أمر دنياكم ، فأنتم أعلم به ، فإذا كان من أمر دينكم فإلىّ » .

(٢٥٦) رواه البخارى : فى كتاب البيوع ، باب ٧٥ ، ٨٤ ؛ وكتاب المساقاة ، باب ١٧ . ومسلم : فى كتاب البيوع ، حديث رقم ٥٧ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٨٣ . وأبو داود : فى كتاب البيوع ، باب ١٩ ، ٣٣ . والرمذى : فى كتاب البيوع ، باب ٦٢ ، ٧٠ . والنسائى : فى كتاب البيوع باب ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٧٤ . وابن ماجه : فى التجارات ، باب ٥٥ . وابن حنبل : جزء ٢ ، ص ٨ ، ١١ ، ٢٣٧ ؛ وجزء ٣ ، ص ٣١٣ . والجزء ٤ ، ص ٢ .

من جلب مصلحة أو دفع مفسدة زائدة على ماقى الأولى من النفع والدفع .

وهكذا بالتقييد كما وقع فى قوله تعالى : ﴿غير أولى الضرر﴾[٢٥٧] ، وقوله عز وجل : ﴿من الفجر﴾[٢٥٨] ، ونحو ذلك كثير جدا .

وقد كان دينه صلى الله عليه وآله وسلم وهجيره الإرشاد إلى التيسير دون التعسير ، وإلى التبشير دون التنفير ، فكان يقول : «**يسروا ولا تعسروا ولا تنفروا**[٢٥٩]» .

وكان صلى الله عليه وآله وسلم يرشد إلى الإلفة ، واجتماع الأمر . وينفر عن الفرقة ، والاختلاف ، لما فى الالفة والاجتماع من الجلب للمصالح والدفع للمفاسد ، وفى الفرقة والاختلاف من عكس ذلك .

فالعالم المرتاض بما جاءنا عن الشارع ، الذى بعثه الله تعالى متمما لمكارم الأخلاق ، إذا أخذ نفسه فى تعليم العباد ، وإرشادهم إلى الحق ، وجذبهم عن الباطل ، ودفعهم عن البدع ، والأخذ بحجزهم عن كل مزلقة من المزالق ، مدحضة من المداحض ، بالأخلاق النبوية ، والشمائل المصطفوية ، الواردة في الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، فيَسَّر ولم يعسر ، وبشر ولم ينفر ، وأرشد إلى ائتلاف القلوب واجتماعها ، ونهى عن التفرق والاختلاف ، وجعل غاية همه وأقصى رغبته جلب المصالح الدينية للعباد ودفع المفاسد عنهم ــ كان من أنفع دعاة المسلمين ، وأنجع الحاملين لحجج رب العالمين ، وانجذبت له القلوب ، ومالت إليه الأنفس ، وتذللَ له الصعب ، وتسهَّل عليه الوعر ، وانقلب له المتعصب منصفاً ، والمبتدع متسننا ، ورغبٌ في الخير من لم يكن يرغب فيه ،

---

(٢٥٧) النساء : ٩٥ .

(٢٥٨) البقرة : ١٨٧ .

(٢٥٩) رواه ابن حنبل : فى الجزء ٣ ، ص ١٣١ ، بلفظ : «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولاتنفروا» . كما رواه بألفاظ متشابهة فى : الجزء ٣ ، ص ٢٠٩ ؛ والجزء الرابع ، ص ٣٩٩ ، ٤١٢ ، ٤١٧ . والبخارى : فى كتاب الجهاد ، باب ١٦٤ ؛ والمغازى ٦٠ ، والأدب ٨٠ ، والأحكام ٢٢ . ومسلم : فى كتاب الجهاد ، حديث برقم ٧١ . وأبو داود : فى كتاب الأدب ، باب ١٧ . والدارمى : فى المدمة ، باب ٢٤ .

ومال إلى الكتاب والسنة من كان يميل عنهما ، وتردى بأثواب الرواية من كان متجلبباً بالرأى ، ومشى في رياض الاجتهاد ، واقتطف من طيب ثمراته ، واستنشق من عابق رياحينه ، من كان معتقلاً فى سجن التقليد ، مكبلا بالقيل والقال ، مكتوفاً بآراء الرجال .

فإن قلت : ماذكرته من انبناء الشريعة المطهرة على جلب المصالح ، ودفع المفاسد ، ماذا تريد به ؟ هل يلاحظ ذلك النفع والدفع مطلقاً أو فى حالة من الحالات ؟

قلت : لاأريد بما قدمته إلا أن مالم يرد فيه نص يخصه ، ولا اشتمل عليه عموم ، ولا تناوله إطلاق ، فحق على العالم المرشد للعباد الطالب للحق أن يستحضر ذلك ، ويرشد إليه ، ويهتم به ، ويدعو إليه .

وأما مواقع النصوص ، وموارد أدلة الكتاب والسنة ، ومواطن قيام الحجج ، فلا جلب نفع ولا دفع ضر أولى من ذلك ، وأقرب منه إلى الخير ، وأولى منه بالبركة ، فهو في الحقيقة مصالح مجلوبة ، ومفاسد مدفوعة ، وإن قصرت بعض العقول عن إدراك ذلك ، والإحاطة بكنهه ، والوقوف على حقيقته ، فمن قصورها أتيت ، ومن ضعف ادراكها دهيت .

ومن تدبر ذلك كل التدبر ، وتأمله بحق التأمل ، لم يخف عليه ، فإن كل جزئي من جزئيات الشريعة التى قام الدليل على طلبها ، والتعبد بها للكل أو البعض ، مطلقاً أو مقيداً لابد أن يشتمل على جلب مصلحة أو مصالح عرفها من عرفها وجهلها من جهلها . وكل جزئى من جزئيات الشريعة الواردة بالنهى عن أمر أو أمور ، لابد أن يكون المنهى عنه مشتملاً على مفسدة أو مفاسد تندفع بالنهى عنها .

ولمزيد التتبع ، وكثرة التدبر فى ذلك ، مدخلية جليلة ، لاسيما مع استحضار الاستعانة بالله ، والتوكل عليه ، والتفويض إليه .

* الدلائل العامة والكليات :

ومما يستعين به طالب الحق ، ومريد الإنصاف على ما يريده من ربط المسائل بالدلائل ، والخروج من آراء الرجال المتلاعبة بأهلها من يمين إلى شمال : أن يتدبر الدلائل العامة ، ويتفكر فيما يندرج تحتها من المسائل بوجه من وجوه الدلالة المعتبرة ؛ فإنه إذا تمرن فى ذلك ، وتدرب ، صار مستحضرا لدليل كل ما يُسأل عنه من الأحكام الشرعية ، كائنا ما كان ، وعرف معنى قوله عز وجل : ﴿**ما فرطنا فى الكتاب من شىء**﴾(٢٦٠) .

ومن أمعن النظر فيما وقع منه صلى الله عليه وآله وسلم من استخراج الأحكام الشرعية من كتاب الله تعالى ، زاده ذلك بصيرة . كما ثبت عنه أنه لما سُئل عن الحُمرْ الأهلية ، فقال : لم أجد فيها إلا هذه الآية القائلة ﴿**من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**﴾(٢٦١) . فإن فى هذا وأمثاله أعظم عبرة للمعتبرين ، وأجل بصيرة للمتبصرين ، وأوضح قدوة للمقتدين من العلماء المجتهدين . وثبت أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال لعمرو ابن العاص : « **صليت بصحابك وأنت جُنُب يا عمرو ؟** » ، فقال : سمعت الله يقول : ﴿**ولا تقتلوا أنفسكم**﴾ فقرره النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وضحك ، ولم يقل شيئا(٢٦٢) .

وهذا باب واسع يطول تعداده..

وهكذا التفكر فى الكليات الصادرة عمن أعطى جوامع الكلم ، وأفصح

---

(٢٦٠) الأنعام : ٣٨ .

(٢٦١) الزلزلة : ٧ ـ ٨ .

(٢٦٢) رواه أبو داود : فى كتاب الطهارة ، باب ١٢٤ . وابن حنبل : فى الجزء الرابع ، ص ٢٠٣ .

من نطق بالضاد ، كقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «**إنما الاعمال بالنيات**»[263] ؛ فإن هذا اللفظ الموجز ، والعبارة المختصرة ، صالحة للاستدلال بها على كل جزء من جزئيات الشرع ، فتدخل ماحصلت فيه النية فى عداد الأعمال المقبولة ، ويخرج مالم تحصل فيه النية إلى حيِّز الأعمال المردودة ، وتصير بها المباحات قربات وعبادات ، أقل أحوالها الاندراج تحت حقائق المندوبات ، ويبطل كثير من الصور والحاكية لما هو من العبادات بعقد النية وعدم وجودها أو وجودها لا على الوجه المعتبر .

وكقوله صلى الله عليه وآله وسلم : «**كل بدعة ضلالة**»[264] ، و «**من غشنا فليس منا**»[265] ، و « **الحلال بيّن والحرام بيّن** » و « **كل أمر ليس عليه أمرنا فهو رد** »[266] .

---

(٢٦٣) رواه البخارى : فى كتاب بدء الوحى ، باب ١ ؛ وكتاب الإيمان ، باب ٤١ ؛ وفى كتاب الإكراه [فى الترجمة] ، وفى كتاب النكاح ، باب ٥ ؛ والطلاق باب ١١ ؛ ومناقب الأنصار ، باب ٤٥ ؛ وكتاب العتق ، باب ٦ ؛ وكتاب الإيمان ، باب ٢٣ ؛ وكتاب الحيل ، باب ١ . ومسلم : فى كتاب الإمارة ، باب ١٥٥ . وأبو داود . فى كتاب الطلاق ، باب ١١ . والترمذى : كتاب فضائل الجهاد ، باب ١٦ . والنسائى : كتاب الطهارة ، باب ٥٩ ؛ وكتاب الطلاق ، باب ٢٤ ؛ وكتاب الإيمان ، باب ١٩ . وابن ماجه : كتاب الزهد ، باب ٢٦ . وأحمد : جزء ، ص ٢٥ ، ٤٣ . وللحديث ألفاظ أخرى عند بعضهم : مثل « العمل بالنية » ، « إنما العمل بالنية » ، « الأعمال بالنيات » .

(٢٦٤) رواه مسلم : فى كتاب الجمعة ، حديث رقم ٤٣ . وأبو داود : فى كتاب السنة ، باب ٥ . والنسائى : فى كتاب العيدين ، باب ٢٢ . وابن ماجه : فى المقدمة ، باب ٧ . والدارمى : فى المقدمة ، باب ١٦ ، باب ٢٣ . وأحمد : فى الجزء ٣ ، ص ٣١٠ ، ٣٧١ ؛ والجزء ٤ ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢٦٥) رواه مسلم : فى كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٦٤ . وأبو داود : فى كتاب البيوع ، باب ٥٠ . والترمذى : فى كتاب البيوع ، باب ٧٢ . وابن ماجه : فى كتاب التجارات ، باب ٣٦ . والدارمى : فى كتاب البيوع ، باب ١٠ . وابن حنبل : فى الجزء ٢ ، ص ٥٠ ، ٢د٢ ز ٤١٧ ؛ والجزء ٣ ، ص ٤٦٦ ؛ والجزء ٤ ، ص ٤٥ . وعند بعضهم ألفاظ أخرى للحديث ، مثل : « من غش فليس منا » ، و« ليس منا من غش » ، و« ليس منا من غشنا » .

(٢٦٦) رواه البخارى : كتاب الاعتصام ، باب ٢٠ ؛ وكتاب البيوع ، باب ٦٠ ؛ وكتاب الصلح ، باب ٥ . ومسلم : فى كتاب الأقضية ، باب ١٧ ، ١٨ . وأبو داود : فى كتاب السنة ، باب ٥ . وابن

فإن كل فرد من أفراد هذه العبارات وأمثالها ، صالح لجعله قضية كبرى للشكل الأول ، فلا يبقى فرد من الأفراد إلا وأمكن إدراجه تحت هذه الكلية باجتلاب قضية صغرى سهلة الحصول . تقول مثلا : **هذا أمر ليس عليه أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وكل أمر ليس عليه أمره رد ، فهذا رد .**

فلا يبقى فعل ، ولاقول ، ولااعتقاد ، لم يأت به الشرع ، إلا وأمكن الاستدلال على رده بهذا الحديث الصحيح .

وهكذا العمل في سائر الكليات ، والمتحلى بالمعارف العلمية ، يستغنى بمجرد الإشارة ، والإيقاظ : لأن المواد قد حصلت له بما حصلّه من العلوم ، ومارسه من المعارف ، فربما يغفل عن إخراج مافى القوة إلى الفعل ، فإذا نبُه على ذلك تنبه ، وكان العمل سهلا والانتفاع بالعلوم يسيرا .

*أصالة المعنى الحقيقى وعدم جواز الانتقال عنه إلا لعلاقة أو قرينة :

ومن جملة ماينبغى له تصوره ويعينه استحضاره : أن يعلم أن هذه الشريعة المباركة ، هى مااشتمل عليه الكتاب والسنة من الأوامر والنواهى ، والترغيبات والتنفيرات ، وسائر ماله مدخل فى التكليف ، من غير قصد إلى التعمية والالغاز ، ولا إرادة لغير مايفيده الظاهر ، ويدل عليه التركيب ، ويفهمه أهل اللسان العربى .

فمن زعم أن حرفاً من حروف الكتاب والسنة ، لايراد به المعنى الحقيقى والمدلول الواضح ، فقد زعم على الله ورسوله زعماً يخالف اللفظ الذى جاءنا عنهما . فإن كان ذلك لمسوغ شرعى ، تتوقف عليه الصحة الشرعية ، أو

ماجه : فى المقدمة ، باب ٢ . وابن حنبل : الجزء السادس ، ص ١٨٠ ، بلفظ : « من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردّ » . ورواه أحمد : الجزء ٦ ، ص ٧٣ ، بلفظ : « من صنع أمراً من غير أمرنا فهو مردود » .

العقلية التى يتفق العقلاء عليها ، لا مجرد ما يدعيه أهل المذاهب والنحل على العقل مطابقاً لما قد حببه إليهم التعصب فأدناه من عقولهم البُعد عن الإنصاف — فلا بأس بذلك ، وإلا فدعوى التجوز . مردوده — مضروب بها فى وجه صاحبها .

فاحرص على هذا ، فإنه وإن وقع الاتفاق على أصالة المعنى الحقيقى ، وعدم جواز الانتقال عنه إلا لعلاقة وقرينة ، كما صُرح به فى الأصول وغيرها ، فالعمل فى كتب التفسير والحديث والفقه يخالف هذا لمن تدبره ، وأعمل فكره ، ولم يغتر بالظواهر ، ولا جمد على قبول ما يُقال من دون بحث عن موارده ومصادره .

وكثيرا ما يجد المتعصبين يحأمون عن مذاهبهم ، ويؤثرونها على نصوص الكتاب والسنة . فإذا جاءهم نص لا يجدون عنه متحولًا ، وأعياهم رده ، وأعجزهم دفعه — أدعو أنه مجاز ، وذكروا للتجوز علاقة هى من البعد بمكان ، وقرينة ليس لها فى ذلك المقام وجود ، ولا تدعو اليها حاجة . وأعانهم على هذه الترهات استكثارهم من تعداد أنواع القرائن والعلاقات ، حتى جعلوا من جملة ما هو من العلاقات المسوغّة للتجوز **«التضاد»** .

فانظر هذا التلاعب . وتدبر هذه الأبواب التى فتحوها على أدلة الكتاب والسنة . وقبلها عنهم من لم يمعن النظر ، ويطيل التدبر ، فجعلها علما ، وقبلها على كتاب الله وسنة رسوله . وأصلها دعوى افتراها على أهل اللغة متعصب قد آثر مذهبه على الكتاب والسنة ، لم يستطع التصريح بترجيح المذهب على الدليل ، فدقق الفكر ، وأعمق النظر ، عنادا لله تعالى ، وبغياً على شريعته ، وخداعاً لعباده ، فقال : هذا الدليل وإن كان معناه الحقيقى يخالف ما نذهب إليه فهو هنا مجاز ، والعلاقة كذا ، والقرينة كذا — ولا علاقة ولا قرينة . فيأتى بعد عصر هذا المتعصب مَنْ لا يبحث عن المقاصد ، ولا يتدبر المسالك كما ينبغى ، فيجعل تلك العلاقة التى افتراها ذلك المتعصب من جملة العلائق المسوّغة للتجوز . ولهذا صارت العلاقات قريباً من ثلاثين علاقة . ثم لما كان من

جملة أنواع القرائن: القرائن العرفية والعقلية ، افترى كل متعصب على العقل والعرف ما شاء وصنع فى مواطن الخلاف ما أرد . والله المستعان .

*التحايل على أحكام الشريعة :

ومن جملة ما يستعين به على الحق ، ويأمن معه من الدخول فى الباطل وهو لا يشعر : أن يقرر عند نفسه أن هذه الشريعة لما كانت من عند عالم الغيب والشهادة ، الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ويعلم ما تكنّ الصدور وتخفيه الضمائر ، ويحول بين المرء وقلبه ــ كانت المخادعة بالحيل الباطلة ، والتخلص مما طلبه بالوسائل الفاسدة ، من أعظم المعاصى له ، وأقبح التجرؤ عليه .

وجميع هذه الحيل التى دونّها أهل الرأى ، هى ضد لما شرعه ، وعناد له ، ومراوغة لأحكامه ، ومجادلة باطلة لما جاء فى كتابه وسنة رسوله .

ومن تفكرّ فى الأمر كما ينبغى ، وتدبره كما يجب ، اقشعر له جلده ، وقف عنده شعره . فإن هذا الذى وضع للعباد هذه الحيل كأنه يقول لهم هذا الحكم الذى أوجبه الله عليكم أو حرمه قد وجدت لكم عنه مخلصاً ، ومنه متحولًا ، بذهنى الدقيق ، وفكرى العميق ، هو كذا وكذا .

فهذا المخذول قد بلغ من التجرؤ على الله تعالى مبلغاً يتقاصر عنه الوصف ؛ لانه ذهب يعانده ، ويضاد ما تعبّدنا به ، بمجرد رأيه الفايل ، وتخيّله الباطل ، مقرا على نفسه بقبيح صنعه ، وأنه جاء بما يريح العباد من الحكم الشرعى .

فإن كان مع هذا معتقدا أن ذلك التحيل الذى جاء به يحلل الحرام ويحرم الحلال ، فهو مع كذبه على الله وافترائه على شريعته ، قد ضم إلى ذلك ما يستلزم أنه يدعى لنفسه أن يشرع للعباد من عند نفسه غير ما شرعه لهم ، وذلك لا يكون إلا لله سبحانه . فإن كان هذا المخذول يدعى لنفسه الإلوهية مع

الله سبحانه ، فحسبك من شر سماعه .

وإن كان لا يدعى لنفسه ذلك ، فيقال له : ما بالك تصنع هذا الصنع ؟ وأى أمر ألجأك إليه وأوقعك فيه ؟

فإن قال : رأيت الله عز وجل قد صنع مثل هذا فى مثل قصة أيوب ، وصنعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى المريض الذى زنى .

فيقال له : ماأنت وهذا — لاكثر الله فى أهل العلم من أمثالك — ومن أنت حتى تجعل لنفسك ما جعله الله لنفسه ؟ فلو كان هذا الأمر الفظيع سائغاً لأحد من عباد الله ، لكان لهم أن يشرعوا كما شرع ، وينسخوا من أحكام الدين ما شاؤوا كما نسخ .

ثم أى جامع بين هذه أو بين ما شرعه الله من ذلك ؛ فإنه مجرد خروج من مأثم ، وتحلل من يمين ، قد شرع الله تعالى فيها إتيان الذى هو خير ، كما تواترت بذلك الأحاديث الصحيحة ، حتى ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حلف على ذلك ، فقال : «**والله لا أحلف على شىء ، فأرى غيره خيرا منه ، إلا أتيت الذى هو خير ، وكفرّت عن يمينى**»[٢٦٧] .

فأين هذا مما يصنعه أسراء التقليد ، من الكذب على الله تعالى ، وعلى شريعته ، وعلى عباده ؟

---

(٢٦٧) رواه البخارى : فى كتاب الإيمان ، باب ١ ؛ وكتاب الكفارات ، باب ٩ . ومسلم : فى كتاب الإيمان ، حديث رقم ٧ . وأبو داود : فى كتاب الإيمان ١٤ . والنسائى : فى كتاب الإيمان ، باب ١٥ . وابن ماجه : فى كتاب الكفارات ، باب ٧ . وابن حنبل : الجزء ٤ ، ص ٣٩٨ . وجاء فى بداية الحديث : « عن أبى موسى قال : أتيت رسول الله (ص) فى رهط من الأشعريين نستحمله ، فقال : لا والله ما أحملكم، وما عندى ما أحملكم عليه. فلبثنا ما شاء الله. ثم أمر لنا بثلاث ذود غر الذرى. فلما انطلقنا ، قال بعضنا لبعض : أتينا رسول الله (ص) نستحمله ، فحلف أن لا يحملنا ، ارجعوا بنا — أى حتى نذكره . قال : فأتيناه ، فقلنا : يارسول الله ، أنا أتيناك نستحملك ، فحلفت أن لا تحملنا ، ثم حملتنا ! فقال : ما أنا حملتكم ، بل الله عز وجل حملكم ، إنى والله لا أحلف على يمين ... » فذكره . ومعنى الذود : الإبل ، وغر الذرى : أى يوجد بياض فى أعلاها .

أما الكذب على الله ، فلكونهم زعموا عليه أنه أذن لهم ، وسوّغه لهم ، وهو كذب بحت ، وزور محض ، وإن كانوا لا يعتقدون ذلك ، بل جعلوه من عند أنفسهم ، جُرأة ، وعناداً ، ومكراً ، وخداعاً ، فالأمر أشد ، والقضية أعظم .

وأما كذبهم على الشريعة ، فلكونهم جعلوا ما نصبوه من الحيل الملعونة ، والذرائع الشيطانية ، والوسائل الطاغوتية ، من جملة الشريعة ، ومن مسائلها ، ودونّوه فى كتب العبادات والمعاملات .

وأما الكذب على عباده ، فلكونهم ذهبوا إليهم ، فخدعوهم ، وماكروهم ، بأن ما أوجبه الله من كذا ليس بواجب ، وما حرمه من كذا ليس بمحرم ، إذا فعلوا كذا أو قالوا كذا .

وما أشبه هذا بما كان يصنعه رؤساء الجاهلية لأهلها ، من التلاعب بهم ، كما يتلاعب الصبيان والمجانين ، وكما يصنعه المجان وأهل الدعاية . فإن تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وكذلك ما كان يفعلونه من النسيء ، وما كانوا عليه من الميسر ، والأنصاب ، والأزلام ، وما كانوا يعتمدونه مع من يطوف بالبيت الحرام من تلك الأفعال التى هى أشبه بأفعال المجانين كالتعرى وما يشاكله — لا مقصد لرؤساء الجاهلية بهذه الأمور التى كانوا يفعلونها ، ويأمرون العباد بها ، إلا مجرد ارتفاع الذكر ، وإظهار اقتدارهم على تنفيذ ما يريدونه ، وقبول الناس لما يأمرونهم به ، وإن كانت أمورا متكررة ، وبلايا متعددة ، وأعمالًا شاقة .

فتدبر هذا ، وتأمله ؛ لتكون على حذر من نفاق ما جاءوا به من الحيل الباطلة عندك ، وإلا كنت كالبهيمة التى لا تمنع ظهرها من راكب ، ولا تستعصى على مستعمل .

وقد دلت أدلة الكتاب والسنة على هذا ، وكفاك بما قصه الله سبحانه علينا من حيلة أهل السبت . وقد أورد البخاري فى كتاب الحيل من صحيحه

مايشفى ويكفى . ولبعض المتأخرين فى هذا مصنف حافل استوعب فيه جميع الأدلة ، وهى معلومة لعلماء الكتاب والسنة .

ولكننا اقتصرنا ههنا على بيان الأسباب التى تنشأ عنها الحيل والمفاسد التى تتأثر عنها ؛ ليكون ذلك أوقع للمنصف ، وأوقع فى نفسه ، كما هو دأبنا فى هذا المختصر ؛ فإنا نشير إلى القضية التى ينبغى اجتنابها بكلمات ، لا تنبو عنها مسامع المنصفين ، ولا تنكرها قلوبهم ، ولا تبعد عنها أفهامهم . وإذا حصل المقصود بالاختصار ، لم تبق للتطويل حاجة ، وقد ينفع القليل نفعا لا يبلغه الكثير . على أنَّا لم نكن بصدد نشر الأدلة وإيراد ألفاظها ، فإنها معروفة مدونة . بل نحن بصدد الإرشاد إلى الإنصاف ، بعبارات تشتمل على معان قد تحتجب عن كثير من الأذهان ، وتبعد عن غالب الأفهام .

★عدم الاغترار بمجرد الاسم دون النظر في معاني المسميات وحقائقها :

ومن جملة ما ينبغي له استحضاره : أن لا يغتر بمجرد الاسم دون النظر في معاني المسميات وحقائقها ؛ فقد يسمى الشيء باسم شرعي ، وهو ليس من الشرع في شيء ، بل هو طاغوت بحت .

وذلك كما يقع من بعض من نزعه عرق إلى ما كانت عليه الجاهلية ، من عدم توريث الإناث ، فإنهم يخرجون أموالهم أو أكثرها أو أحسنها إلى الذكور من أولادهم بصورة الهبة والنذر والوصية أو الوقف . فيأتي من لا يبحث عن الحقائق ، فينزل ذلك منزلة التصرفات الشرعية ، اغتراراً منه بأن الشارع سوّغ للناس الهبة والنذر والوصية ، غير ملتفت إلى أن هذا لم يكن له من ذلك إلا مجرد الاسم ، الذي أحدثه فاعله ، ولا اعتبار بالأسماء ، بل الاعتبار بالمسميات .

فالهبة الشرعية هي التي أرشد إليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لما سأله بشير والد النعمان عن تخصيص ولده النعمان بشيء من مال ، وطلب منه أن يشهد على ذلك ، فقال : «**لا أشهد على جور**» ، ووقع منه الأمر بالتسوية بين الأولاد . وهو حديث صحيح له طرق متعددة[(٢٦٨)]

فالهبة المشتملة على التفصيل المخالف لفرائض الله ليست بهبة شرعية ، بل جور مضاد لما شرعه الله . فاطلاق اسم الهبة عليها مخادعة لله ولعباده ، فلا ينفذ من ذلك شيء ، بل هو باطل رده ؛ لكونه ليس على أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

---

(٢٦٨) رواه مسلم : في كتاب الهبات ، حديث رقم ١٤ ـ ١٦ . والنسائي : في كتاب النحل ، باب ١ . وابن حنبل : الجزء ٤ ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ .

وهكذا من خصص بعض ورثته بنذر يخالف ما شرعه الله من الفرائض . فهذا ليس هو النذر الذى شرعه الله ، بل هو نذر طاغوتى . فإن النذر الذى شرعه الله سبحانه ، هو الذى يقول فيه النبى صلى الله عليه وآله وسلم : «**النذر ما ابتغى به وجه الله**»(٢٦٩) . ويقول : «**لا نذر فى معصية الله**»(٢٧٠) كما هو ثابت فى الصحيح .

وهذا الناذر اخرج بعض ماله إلى بعض ورثته مخالفاً لما فرضه الله تعالى من المواريث . ثم سمى ذلك البعض نذراً ، وهو لم يبتغ به وجه الله ولا أطاعه به ، بل ابتغى به وجه الشيطان الذى وسوس له بأن يخالف الشرع ، وأطاعه بمعصية الله .

وهكذا من أخرج بعض ماله على تلك الصفة بالوصية ، فإن هذه الوصية المتضمنة للمفاضلة بين الورثة ، ليست الوصية التى شرعها الله تعالى لعباده ، بل وصية طاغوتية ؛ فإن الوصية الشرعية هى التى يقول فيها النبى صلى الله عليه وآله وسلم : «**إن الله قد أعطى كل حق حقه ، ولا وصية لوارث**»(٢٧١) .

ويقول فيها الرب تبارك وتعالى : ﴿**من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار**﴾(٢٧٢) . ويقول فيها : ﴿**فمن خاف من موص جنفا أو إثما فأصلح**

---

(٢٦٩) رواه أبو داود : فى كتاب الطلاق ، باب ٧ . وابن حنبل : جزء ٢ : ١٨٥ ، بلفظ : « لا نذر إلا فيما ابتغى به وجه الله » .

(٢٧٠) رواه مسلم : فى كتاب النذر ، حديث رقم ٨ . وأبو داود : فى كتاب الإيمان ، باب ١٢ ، ١٩ . والترمذى : فى كتاب النذور ، باب ١ . والنسائى : فى كتاب الإيمان ، باب ١٧ ، ٣١ ، ٤١ ، وابن ماجه : فى كتاب الكفارات ، باب ١٦ . وابن حنبل : جزء ٢ ، ص ٢٠٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٢ ، وجزء ٦ ، ص ٢٤٧ .

(٢٧١) رواه البخارى : كتاب الوصايا ، باب ٦ . وأبو داود : كتاب الوصايا ٦ ؛ وكتاب البيوع ٨٨ . والترمذى : كتاب الوصايا ، باب ٥ . والنسائى : كتاب الوصايا ، باب ٥ . وابن ماجه : كتاب الوصايا ، باب ٦ . وللدارمى : كتاب الوصايا ، باب ٢٨ . وابن حنبل : جزء ٤ ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

(٢٧٢) النساء : ١٢ .

بينهم فلا إثم عليه﴾[٢٧٣] . والمراد بالإصلاح إبطال ما جاء من الفساد فى وصيته . وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن الضرار فى الوصية من أسباب النار ، وأنه يحبط عبادة العمر . كما أخرج ذلك جماعة وصححه من صححه[٢٧٤] .

فمن جاءته من هذه الوصايا المشتملة على الضرار بوجه من الوجوه ، فأنفذها من الثلث ، مستدلا على ذلك بمثل حديث : «**الثلث والثلث كثير**»[٢٧٥] وبمثل ماورد من سائر الآيات والأحاديث القاضية بالوصية على الإطلاق ، فقد غلط بيّنا . فإن هذه الوصية التى قال فيها النبى صلى الله عليه وآله وسلم : «**الثلث والثلث كثير**» ، هى وصية قربة ، كما فى القصة المشهورة الثابتة فى الأمهات : أن سعد بن أبى وقاص استأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يتصدق بجميع ماله ، فمازال يُنازله حتى قال له : «**الثلث والثلث كثير**»[٢٧٦] .

وهكذا ماورد من قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «**إن الله جعل لكم ثلث أموالكم فى آخر أعماركم**» ، فإنه قيّده بقوله فى آخره : «**زيادة فى حسناتكم**» ، ولا يزيد فى الحسنات إلا ما كان قربة . وأما وصايا الضرار المتضمنة لمخالفته ما شرعه الله ، فهى زيادة فى السيئات ، لا زيادة فى الحسنات .

فتبين لك أن هذه الوصية التى أذن بها النبى صلى الله عليه وآله وسلم

---

(٢٧٣) البقرة : ١٨٢ .

(٢٧٤) لفظ الحديث : « إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة ، ثم يحضرهما الموت ، فيضاران فى الوصية ، فتجب لهما النار » . رواه أبو داود : فى كتاب الوصايا ، باب ٣ . والترمذى : فى كتاب الوصايا ، باب ٢ .

(٢٧٥) رواه البخارى فى حديث مطول : فى كتاب الجنائز ، باب ٣٦ ؛ وكتاب الوصايا ، باب ٢ ، ٣ ؛ وكتاب مناقب الأنصار ، باب ٤٩ ؛ وكتاب النفقات ، باب ١ ؛ وكتاب المرضى ، بب ١٣ ، ١٦ ؛ وكتاب الدعوات ، باب ٤٣ ؛ وكتاب الفرائض ، باب ٦ . ومسلم : فى كتاب الوصية حديث رقم ٥ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ . وأبو داود : فى كتاب الفرائض ، باب ٣ . وكتاب الإيمان ، باب ٢٣ . والترمذى : كتاب الجنائز ، باب ٦ ؛ والوصايا ، باب ١ . والنسائى . كتاب الوصايا ، باب ٣ . وابن ماجه : كتاب الوصايا ، باب ٥ . ومالك فى الموطأ : الوصية حديث رقم ٤ .

(٢٧٦) المظانى السابقة .

ليست وصية الضرار ، فإن تلك قد أخرجها الله من عموم مشروعية الوصية بقوله : ﴿**غير مضار**﴾[٢٧٨] ، واخرجها النبى صلى الله عليه وآله وسلم بما تقدم من الوعيد الشديد لمن يضار فى وصيته ، ويمنع الوصية للوارث ، حتى ثبت فى بعض الروايات بلفظ : «**لاتجوز وصيته لوارث**»[٢٧٩] . وقد أوضحته فى أبحاث متعددة من مصنفاتى . وليس المراد ههنا إلا إرشاد طالب إنصاف ، إلى عدم الاغترار بما يفعله المتلاعبون بأحكام الشرع ، من تسمية أمور تصدر عنهم من الطاغوت ، بأسماء شرعية ، مخادعة لأنفسهم ، واستدراجا لمن لا فهم عنده ولا بحث عن الحقائق .

وهذه الذريعة الشيطانية ، قد عمت ، وطمّت ، خصوصاً أهل البادية ؛ فإنه بقى فى أنفسهم ماكانت عليه الجاهلية الأولى من عدم توريث الإناث ، ومن لاحظ له عندهم من الورثة وإن كانوا ذكورا ، فارادوا الاقتداء بهم ، ولكنهم لما كانوا مخبوطين بسوط الشرع ، مقهورين بسيفه ، نصبوا هذه الوسائل الملعونة ، فقالوا : نذرنا وهبنا أو وصينّا وساعدهم على ذلك طائفة من المقصرين الذين لايعقلون الصواب ، ولا يفهمون ربط المسببات بأسبابها ، فحرروا لهم تحريرات على أبلغ مايفيد النفوذ والصحة ، طمعاً فيما يتعجلونه من الحطام الذى هو من أقبح أنواع السحت . فإن مايأخذونه على ذلك هو حرام ، كما ثبت عن الشارع من تحريم حلوان الكاهن ، وأجر البغى ، ومايأخذه من يُعلمّ كتاب الله ، ونحو ذلك من الأمور .

ولا يشك من يفهم الحجج الشرعية أن سبب تحريم ذلك ، هو كونه على تحليل حرام أو تحريم حلال . وهذا الذى يكتب هذه المكاتيب الطاغوتية المتضمنة لمخالفة ماشرعه الله لعباده من المواريث ، وقدرّه لهم فى كتابه ، وقيّده بعدم الضرار ، هو أولى بتحريم مايأخذه من أولئك .

---

(٢٧٧) رواه ابن ماجه : فى كتاب الوصايا ، باب ٥ .

(٢٧٨) النساء : ١٢ .

(٢٧٩) سبق تخريجه .

وقد يقوم شيطان من شياطين المقلدة ، ومخذول من مخذولى المشتغلين بالرأى ، فيجادل عن هذه الوصايا والنذر ورد الهبات ونحوها ، وينزلها منزلة الوصايا والنذور والهبات الشرعية . ويورد ما قاله من يقلده ممن يستعظم الناس كلامه ، ويقتدون بمذهبه ، ويحكى لهم ما صرحّ به فى هذه الأبواب ونحوها من مصنفاته ، غير متعقل الفرق بين هذه الطواغيت وبين تلك الأمور الشرعية ، ولا فاهم للمغايرة الكلية ولا متأمل للأسباب التى تصدر عنها تلك الأمور ، وأن أهل العلم بأسرهم إنما تكلموا فى مصنفاتهم على الأمور الشرعية لا الأمور الجاهلية ، وأن بجرد الأسم لا يحلل الحرام ، ولا يحرم الحلال ؛ كما لو سميت الخمر ماء ، أو الماء خمراً . فإنه لو كان الحكم يدور على التسمية لكان الخمر المسمى ماء حلالًا ، وكان الماء المسمى خمراً حراماً .

وهذا خرق للشرع ، وهتك للدين . ومن اغتر فليس من النوع الانسانى ، بل من النوع البهيمى . ولا ينبغى الكلام معه ، بل يقال له : هذا الذى فيه النزاع ليس هو ماتكلم عليه من تقلده وتقتدى به ، بل هو شىء آخر يضاده ويخالفه ؛ لأن أهل الشرع إنما يتكلمون على الأمور الشرعية ، وهذا ليس شرعى ، بل طاغوتى . فإن فهم هذا استراح منه ، وإن لم يفهمه ففى السكوت راحة من تحمل كرب مخاطبة السفهاء .

ولقد وقعنا مع جماعة من مقصرى القضاة والمفتين فى هذه المسألة فى أمور عظيمة ، وخطوب جسيمة ، وفتن كبيرة ، لا يتسع المقام لبسطها . والحق منصور ، والباطل مخذول ، ولله الحمد .

وأعظم ما يتمسكون به من التغرير علي العوام ، والتزوير على الملوك ، ومن يقدر على القيام بنصرهم ، استكثارهم من قولهم : هذا خالف المذهب ــ فعل كذا قال كذا . ولم يخالف فى الواقع إلا الطاغوت ، ولا نصر إلا الشرع .

فليحذر طالب العلم من الاغترار بمثل ذلك ، والروعة منه ؛ فإن العاقبة للمتقين ، والله ناصر المحقين ، والأعمال بالنيات . ولقد تلطف المحبون لهذه الطواغيت ، والمساعدون لهم ، على كتبها ، لما صممت على إبطالها ، وأبطلها

كل من ترد عليه من قاض أو غيره ، بعد أن وقع بينى وبينهم ماأشرت إليه سابقاً . فكان من جملة ماعدلوا إليه من الذرائع والوسائل : الإقرار للذكور ، أو لمن يحبون ، بديون ونفقات ومكتسبات . ولم ينفق ذلك عليّ ، ولا التفت إليه ، بل كشفت عن أصل كل إقرار ، فما كان صادرا عن هذه المقاصد الفاسدة أبطلته .

ومن جملة ماتلطف به من له أولاد ذكورا واناثا : أن يعمدوا إلى أولاد أولادهم الذكور ، فينذرون عليهم ، ويوصون لهم ، ويقولون : إنهم فعلوا ذلك لغير وارث ، ولم يفعلوا ذلك إلا لقصد تقليل نصيب بناتهم ، وتوفير نصيب الذكور .

وقد تتبعت هذا ، فما وجدت أحداً يوصى لأولاد أولاده ، أو ينذر عليهم ، إلا ومعه بنات ، أو له ميل إلى بعض الأولاد دون بعض ، ولا يفعلون ذلك لمقصد صالح إلا فى أندر الحالات وأقلها .

ومن جملة هذه الوصايا الطاغوتية ، والنذور الشيطانية : مايفعله كثير من الناس من النذور والوصايا على قبور الأموات ؛ فإنه لا مقصد لهم بذلك إلا استجلاب الخير ، واستدفاع الشر من صاحب القبر . وهو قد صار بين أطباق الثرى ، يعجز عن نفع نفسه ، فضلا عن نفع غيره !

فلا يصح شيء من ذلك ، بل يتوجه على أهل الولايات صرفه فى مصالح المسلمين . ويعرفون الناس بقبح مايصنعونه من ذلك ، وأنه من الأمور التى لا يحل اعتقادها ، وأن الضر والنفع ، واستجلاب الخير واستدفاع الشر ، بيد الله عز وجل ، ليس لغيره فيه حكم ، ولا له عليه اقتدار .

فإن رجعوا عن ذلك وتابوا ، وإلا انتقل صاحب الولاية معهم إلى ماهو أشد من ذلك . ولا يدعهم حتى يتوبوا .

وهكذا مايقع من الأوقاف على القبور ، فإنها من الحبس الشيطانية ، والدلس الطاغوتية . ولا يحل تقرير شيء منها ، ولا السكوت عنه ، بل صرفها

فى مصالح المسلمين من أهم الأمور وأوجبها . فإن فى عدم إنكارها وإبطالها ، مفسدة عظيمة ، تنشأ عنها الاعتقادات الباطلة المفضية بصاحبها إلى نوع من أنواع الشرك وهو لا يشعر .

*الإجماع ، والقياس ، والإجتهاد ، والاستحسان :

ومن جملة ماينبغى لطالب الحق أن يتصوره ، ويحذر من قبوله ، بدون كشف عنه : مايجعله كثير من أهل العلم دليلا يستدلون به على إثبات الأحكام الشرعية على العباد ، وهو الإجماع ، والقياس ، والاجتهاد ، والاستحسان .

*الإجمـــاع :

فأما الإجماع : فقد أوضحت فى كثير من مؤلفاتى أنه ليس بدليل شرعى ، على فرض إمكانه ؛ لعدم ورود دليل يدل على حجيته .

وأوضحت أنه ليس بممكن لاتساع البلاد الإسلامية ، وكثرة الحاملين للعلم ، وخمول كثير منهم فى كل عصر من الأعصار مَنذ قام الإسلام إلى هذه الغاية ، وتعذر الاستقراء التام لما عند كل واحد منهم ، وأن الاعمار الطويلة لا تتسع لذلك فضلًا عن الأعمار القصيرة .

فإن المدينة الواسعة قد يعجز مَنْ هو من أهلها أن يعرف ما عند كل فرد من أفراد علمائها ، بل قد يعجز عن معرفة كل عالم فيها كما هو مشاهد محسوس معلوم لكل فرد ، فكيف بالمدائن المتباينة ؟ فكيف بجميع الأقطار الإسلامية

بدوها وحضرها ومدائنها وقراها ؟

فقد يوجد فى زاوية من الزوايا التى لا يؤبه لها ، ولا يرفع الرأس إليها من يقل نظيره من المشاهير فى الأمصار الواسعة . ومع هذه فهذا المذاهب قد طبقت الاقطار ، وصارت عند المنتمين الى الإسلام قدوة يقتدون بها ، لا يخرج عنها ، ويجتهد رأيه ، ويعمل بما قام عليه الدليل ، إلا الفرد بعد الفرد ، والواحد بعد الواحد ، وهم على غاية الكتم لما عندهم ، والتستر بما لديهم ، خوفا من المتمذهبين ، لأنهم قد جعلوا المذهب الذى هم عليه حجة شرعية على كل فرد من أفراد العباد ، لا يخرج عنه خارج ، ولا يخالفه مخالف ، إلا مزقوا عرضه ، وأهانوه ، وأخافوه ، والدولة فى كل أرض معهم وفى أيديهم . والملوك معهم لأنهم من جنسهم فى القصور والبعد عن الحقائق . وإذا وجد النادر من الملوك ، والشاذ من السلاطين ، له من الإدراك والفهم للحقائق مايعرف به الحق والمحقين ، فهو تحت حكم المقلدة وطوع أمرهم ؛ لأنهم جُندهُ ورعيته . فإذا خالفهم خالفوه ، فيظن عند ذلك ذهاب ملكه ، وخروج الأمر من يده .

وإذا كان الحال هكذا فكيف يمكن الوقوف على ماعند كل عالم من علماء الإسلام . هذا باعتبار الأحياء ، وهو فى أهل العصور المنقرضة من الأموات أشد بعدا ، وأعظم تعذرا ، فإنه لا سبيل إلى ذلك إلا ما يوجد فى المصنفات ، وماكل من يعتد به فى الاجماع يتشغل بالتصنيف ، بل المشتغلون بذلك منهم هم القليل النادر . ومع هذا فمن اشتغل منهم بالتصنيف لا يحظى بانتشار مؤلفاته منهم إلا أقلهم . وهذا معلوم لكل أحد لا يكاد يلتبس .

ولا شك أن من الملوك من يصر على أمر مخالف للشرع ، فلا يستطيع أحد من أهل العلم أن ينكر عليه ، أو يظهر مخالفته ، تقية ، ومحاذرة ، ورغبة فى السلامة ، وفرارا من المحنة ، وبالجملة فالدنيا مؤثرة فى كل عصر . وإذا عجز الملك عن إظهار مذهبه على فرض انه من أهل الإدراك والحال أن بيده السيف والسوط ، فما ظنك بعالم مستضعف لم يكن بيده إلا أقلامه ومحبرته .

ومما أحكيه لك مما أدركته فى أيام الحداثة ومن الصبا أن الامام المهدى العباس بن الحسين(٢٨٠) رحمه الله تعالى ، أحد ملوك اليمن ، ووالد إمامنا الإمام المنصور(٢٨١) حفظه الله ، كان له إدراك تام ، وفهم ثاقب ، واتصل بمقامه من أكابر العلماء المنصفين العالمين بالأدلة جماعة ، فأظهر فى الصلاة سننا كانت متروكة بترك المتمذهبين لها ، فقامت قيامة جماعة من المتفيهقين المقلدين ، وأثاروا حفائظ جماعة من شياطين البدوان الذين لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، ولا يدرون من الدين إلا رسمه ، فتجمعوا فى بواديهم ، وقالوا : قد خرج الإمام من مذهب الشيعة إلى مذهب السنّة ، ومن الاقتداء بعلىّ بن أبى طالب ، إلى الاقتداء بمعاوية ، كما لقنهم هذه المقالة شياطين المقلدة . ثم خرجوا عليه فى جند يعجز عن مقاومتهم ، فما وسعه إلا مصانعتهم بالمال ، والإعلان بترك تلك السنن التى هى أوضح من شمس النهار .

وأحكى لك أيضاً حادثة أشنع من هذه كائنة فى عام تحرير هذه الأحرف ، هى أنى لم أزل منذ اتصلت بخليفة عصرنا ـــ حفظه الله ـــ مرغباً له فى العدل فى الرعية على الوجه الذى ورد الشرع به ، ورفع المظالم المخالفة لقطعيات الشريعة : كالمكس(٢٨٢) ونحوه ، والاقتصار على ما ورد به الشرع ، وعدم مجاوزته فى شىء فألهمه الله سبحانه إلى الإجابة إلى ذلك بعد طول مداراة وترغيب .

فجعلت مكتوبا محكيا عنه مضمونه أنه قد أمر عماله بالعدل فى الرعية ، ورفع كل مظلمة ، والاقتصار على ما ورد به الشرع فى كل شىء ، وأن من لم

---

(٢٨٠) عباس بن الحسين بن القاسم ، من بنى الهادى إلى الحق : (١١٣١ ـ ١١٨٩ هـ = ١٧١٩ ـ ١٧٧٥ م) ، إمام زيدى يمانى ، ولد فى إبّ . وقام بالأمر بعد وفاة أبيه المنصور بالله سنة ١١٦١ هـ ، فى صنعاء . وكثرت فى أيامه الخيرات وانقطعت الفتن ، وحسنت سيرته . استمر إلى أن توفى بصنعاء . بلوغ المرام ٧٠ و ٤١٠ ، والبدر الطالع ١ : ٣١٠ والأعلام ٣ : ٢٦٠ .

(٢٨١) سبق التعريف به .

(٢٨٢) المكْس : الضريبة يأخذها المُكّاس ممن يدخل البلد من التجار

يمتثل هذا الأمر كان على القاضى فى ذلك القطر أن ينهى أمره إلى حضرة الإمام حتى يحل به من العقوبة ما يردعه ويردع أمثاله .

وفى هذا المكتوب التشديد فى الربا ، والسياسة الشيطانية ، والأخذ على قضاة الأقطار أن يبعثوا من يُعلِّم الناس أمر دينهم ، من الصلاة والصيام والحج والزكاة والتوحيد على الوجه المطابق لمراد الله عز وجل .

وقرر الإمام ذلك ، وأنفذه ، وأظهره فى الناس ، فقامت شياطين المقلدة ، وفراعين البدُوان ، وخونة الوزراء ، فى وجه هذا الأمر قياما يبكى له الإسلام ، ويموت كمدا عنده الأعلام ، فجلعوا هذا المعروف منكرا ، وما كان الأمر السابق عليه من المنكر معروفا .

وليس العجب ممن له حظ فى المظالم ، ونصيب من المكس ، وقسط من السحت ؛ فقد يفعل ذلك من يؤثر الدنيا ويبيع الآجل بالعاجل . ولكن العجب من جماعة لاحظ لهم فى شىء من ذلك ، ولهم حظ من العلم ، ونصيب من الورع ، متكئين على أرائكهم، عاكفين على دفاترهم ، صاروا ينكرون من هذا الأمر ما يعلمون أنه مخالفة لقطعيات الشريعة ، مع علمهم بحكم من خالفها ، واعترافهم بأن هذا هو الحق الذى اتفقت عليه الكتب المنزلة والرسل المرسلة ، لكنهم يتركون تدبير الشرع ، ويعودون لتدبير الدولة وما يصلحهم ويصلح لهم ، حتى كأنهم من أهل الولايات ، ومن القابضين للجبايات ، وظهر ما عندهم وتكلموا به للناس ، حتى اعتقد من لا حقيقة لديه من العامة ، ومن يلتحق بهم ومن أصحاب الدولة ومن شابههم — أنى أرشدت إلى خطأ ، وأمرت بمنكر ، فاجتمع من جميع ما قدمت ذكره تشوش خاطر الإمام ، ومن له رغبة فى شرائع الإسلام .

فتوقف الأمر ، ولم ينفذه من يقدر على التنفيذ ممن له رغبة فيه ، ووجد أعداء الله من الظلمة المجال ، فبالغوا فى المخالفة والمدافعة والمحاولة والمصاولة .

فاسمع هذه الأعجوبة واعتبر بها ، وأنى لا أشك أن الله سبحانه منفذ

شرعه ، وناصر من نصره ، وخاذل من خذله ، ومتم نوره على رغم أنف من أباه . ولكن للباطل صولة ، وللشيطان جولة ، حتى يقر الحق فى قراره ، ويتم من العدل ورفع الظلم ما أمر الله به . ومن رام أن ينصر باطلاً أو يدفع حقاً ، فهو مركوس من غير فرق بين رئيس ومرؤوس ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ، وعند عزائم الرحمن يندفع كيد الشيطان .

* القيـــاس :

وأما القياس : فاعلم أنه قد رسمه أهل الأصول : بأنه مساواة أصل للفرع فى علة حكمه . ثم شرطوه بشروط ، وقيدوه بقيود ، هى معلومة عند من يعرف الفن ، لكنهم توسعوا فى هذه المساواة ، وأثبتوها بأمور هى مجرد خيال ، ليس على ثبوته إشارة من علم .

وبيانه : أنهم جعلوا مسالك العلة أنواعاً ، فأكثر ما قيل أنها عشرة . ثم جميع هذه المسالك إلا القليل هى بحث الرأى ، ومحصل الدعاوى المجردة .

فعليك أن تضع قدمك موضع المنع ، وتقوم فى مقام الإنكار ، حتى يوجب عليك المصير إلى شىء منها ما لا يقدر على دفعه ، ولا يشك فى صحته ، كمسلك النص على العلة ، ومسلك القطع بانتفاء الفارق . ومثل هذا فحوى الخطاب ، وما شابه هذه الأمور . وإياك أن تثبت أحكام الله بخيالات تقع لك ، أو لعالم مثلك من سابق الأمة أو لاحقها ؛ فإن عليك من الوزر والوبال ما قدمنا ذكره فى هذا الكتاب .

وبالجملة : فالقياس الذى يذكره أهل الأصول ليس بدليل شرعى تقوم به الحجة على أحد من عباد الله ، ولا جاء دليل شرعى يدل على حجيته ، وإن زعم ذلك من لا خبرة له بالأدلة الشرعية ، ولا بكيفية الاستدلال بها ، يعرف هذا من يعرفه ، وينكره من ينكره .

وأما ما كانت العلة فيه منصوصة ، فالدليل هو ذلك النص على العلة ؛ لأن

الشارع كأنه صرح باعتبارها إذا وجدت فى شىء من المسائل ، من غير فرق بين كونه أصلا أو فرعا .

وهكذا ماوقع القطع فيه بنفى الفارق ، فإنه بهذا القدر قد صار الأمران اللذان لا فارق بينهما شيئا واحداً ، مادل على أحدهما دل على الآخر ، من دون أصلا أو فرعا . وهكذا ماوقع القطع فيه بنفي الفارق ، فأنه بهذا القدر قد صار الأمران اللذان لافارق بينهما شيئاً واحداً ، مادل على أحدهما دل على الآخر من دون تعدية ، ولا اعتماد أصلية ولا فرعية .

وأما فحوى الخطاب ولحنه ، فهذان هما راجعان إلى المفهوم والمنطوق ، وإن سماهما بعض أهل العلم بقياس الفحوى . وبحث العمل بالمفهوم خارج عما نحن بصدده . وقد جاءت لغة العرب الحاكية لما كانوا يفهمونه ، ويتحاورون به ، ويعملون عليه ، أن مثل هذا المفهوم كان معتبرا لديهم مأخوذا به عندهم . ولهذا قال من قال من العلماء : إنه منطوق لامفهوم .

ولقد تلاعب كثير من أهل الرأى بالكتاب والسنة تلاعبا ، لا يخفى إلا على من لا يعرف الإنصاف بهذه الذريعة القياسية ، وعولوا على ماهو منه أوهن من بيت العنكبوت ، وقدموه على آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية .

وما هذه بأول فاقرة جاء بها الشيطان ، وحسنّها لنوع الإنسان ، وذاد بها عباد الله عن شرائعه .

ومن أنكر هذا ، فلينظر المصنفات فى الفقه ، ويتتبع مسائلها المبنية على مجرد القياس ، المبنى على غير أساس ، مع وجود أدلة نيرة ، وبراهين مرضية .

ومن هذا الباب دخل أهل الرأى ، وإليه خرجوا من أبواب الأدلة الثابتة فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

فكن رجلا رجله فى الثرى وهامه همته فى الثريا

وكل من له فهم لا يغرب عنه أن الله تعالى لم يتعبد عباده بمجرد قول عالم من العلماء أنه قد أفاده مسلك تخريج المناط ، أو تنقيح المناط ، أو الشبه ، أو الدوران ، أو نحو هذا الهذيان . هذا على فرض أنه لم يوجد فى الكتاب والسنة

ما يخالف هذا المسلك الذى لا يسلكه المتورعون ، ولا يمشى عليه المتدينون ، فكيف إذا كان الدليل المخالف له واضح المنار ، ظاهر الاشتهار ، قريب الديار لمن سافر إليه من أهل الاعتبار ؟

والكلام فى هذا البحث طويل الذيول ، وقد أفرده جماعة من أهل العلم بالتصنيف ، وليس المراد هنا إلا مجرد التنبيه لطالب العلم . وإنى وإن حذرته عن العمل بهذا القياس ، فلا أحذره عن العلم به ، وتطويل الباع فى معرفته ، والإحاطة بما جاء به المصنفون من أهل الاصول فى مباحثه ؛ فإنه لا يعرف صحة ما قلته إلا من عرفه حق معرفته ، وقد يعرف الشيء ليجتنب ويحُذر ، ويعرف الشر لا للشر .

***الاستحســـــان :**

وأما الاستحسان : فاعلم أنهم رسموه بانه : دليل ينقدح فى نفس المجتهد ، ويعسر عليه التعبير عنه .

وأنت لا يخفى عليك ، إن بقي لك نصيب من فهم ، وحظ من إنصاف ، أن الله تبارك وتعالى لم يتعبد أحداً من عباده بدليل يستدل به أحد من علماء الأمة ، ويمكنه التعبير عنه ، وإبرازه من القوة إلى الفعل ، إلا إذا كان صحيحا تقوم به الحجة ؛ فكيف يتعبدهم بما انقدح فى نفس فرد من أفرادهم على وجه لا يمكنه التعبير عنه ولا إبرازه إلى الخارج ؟

فإن هذا الذى انقدح فى نفسه ، لا ندرى ما هو ، ولا كيف هو ؛ فكيف يكون حجة على أحد من الناس ، وقد عجز صاحبه عن بيانه وعسرت عليه ترجمته ؟

فيالله العجب من هذا الهذيان ، وكيف استجاز قائله أن يحكم عليه ، وأنه دليل شرعى ، ويفترى على الشرع ما ليس منه ، وعلى الله سبحانه ما لم يقله ؟

وبالجملة : تبيان فساد هذا ، لا يحتاج إلى إيضاح ، وإفهام البشر وإن بلغته فى الضعف أى مبلغ وقاربت أفهام الدواب فهى لا تطلب البرهان على بطلان

هذا الهذيان ، ولو احتاج محتاج إلى الاستدلال على بطلان هذا الباطل لزمه أن يدفع فرية كل مفتر على الله . ولله در الإمام الشافعي[٢٨٣] حيث يقول : **«من استحسن فقد شرعَّ»** .

***الاجتهـــــاد :**

وأما الاجتهاد : فقد رسموه بأنه : استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن بحكم شرعي .

ولاشك أن هذا الظن الكائن بعد الاستفراغ ، وإن تعبد الله به ذلك المستفرغ ، لكونه فرضه عند فقد الدليل ، كما تقدم البحث عن هذا والاستدلال عليه . لكن الشأن في كون هذا الظن حجة على أحد من عباد الله ممن لم يقع له هذا الظن ، ولا تقدم له استفراغ الوسع . فإن الحجة الشرعية ليست ظنون بعض المكلفين بالشرع المتعبدين به على البعض الآخر ، ولا جاء في الشريعة حرف واحد مما يفيد هذا ويدل عليه ، بل صرح الكتاب العزيز بالنهي عن اتباع الظن ، وأنه لا يغني من الحق شيئا ، وأن بعضه إثم . وهذه الأدلة الكلية توجب على الإنسان أن لا يعمل بظنه في شيء كائنا ماكان إلا ما خصصه الشرع ، فكيف بظن غيره ؟

فيا معشر المقلدة ، اسمعوا وعُوا ؛ فإنكم إنما تتبعون ظنونا خطرت لقوم ، الحجة من الله بما في كتابه وسنة نبيه قائمة عليهم كما هي قائمة عليكم ، وهم متعبدون بها كتعبدكم بها ، فمالكم ولهم ، وماذا عليكم من ظنونهم ، فقد أسفر الصبح لذي عينين ، وارتفع ما على قلوب قوم من الريَّن ، إن بقي للهداية مجال، ولاستماع الصواب احتمال . وقد كررت الكلام في المقام بما لا يحتاج معه إلى التطويل هنا .

---

(٢٨٣) سبق التعريف به .

مفاسد أصابت دين الإسلام

واعلم أن المفاسد الماحقة لبركة العلم ، والمفرقة لكلمة المسلمين ، كثيرة جدا ، والإحاطة بها تتعسر ، وقد ذكرنا هنا ماحضر عند التحرير . وأعظم ماأصيب به دين الإسلام من الدواهى الكبار ، والمفاسد التى لا يوقف لها فى الضرر على مقدار ، أمران :

*تعدد المذاهب :

أحدهما : هذه المذاهب التى ذهبت ببهجة الإسلام ، وغيرت رونقه ، وجهمت وجهه . وقد قدمنا فى هذا مايستغنى عن الزيادة ، إن بقى له فهم يرجع به إلى الحق ، ويخرج به من الباطل .

*الاعتقادات الفاسدة فى بعض الأموات :

والأمر الثانى : هذه الاعتقادات التى حدثت لهذه الامة فى صالحى الأموات ، حتى صار الرجل يقرن من يعتقده من الأموات بمن يقلده منهم . فيقول : إمامه فى المذهب فلان ، وشيخه فى الاعتقاد والمحبة فلان .

وهذا يقوله ظاهرا ، وهو لو كوشف ، ونطق بما فى ضميره ، لقال : وشيخه الذى يعوّل عليه فى زعمه عند الشدائد فى قضاء حاجاته ونيل مطالبه فلان .

وصمى صام من خلف وامام . فإن هذه الداهية الدهياء ، والمصيبة الصماء العمياء ، فقد كان أوائل المقلدة يعتمدون على أئمتهم فى المسائل الشرعية ، ويعُولّون على آرائهم ، ويقفون عند اختياراتهم ، ويدعون نصوص الكتاب والسنة ، ولكنهم لا ينزلون حوائجهم بغير الله عز وجل ، ولا يناجون سواه ، ولا يرجون غيره ، ولا يعولّون إلا عليه ، ولا يطلبون إلا منه .

فهم وإن خلطوا صومهم وصلاتهم وحجهم وزكاتهم وسائر عباداتهم ومعاملاتهم بآراء الرجال ، وقلدوا فى كثير من تفاصيلها مالم يأذن الله بتقليده ،

وأخذوا دينهم على الوجه الذى لم يأمر الله به ولا ارتضاه لهم . لكنهم لم يخلطوا فى معنى لا إله إلا الله ، ولا تلاعبوا بالتوحيد ، ولا دخلوا فى أدوار الشرك ، ومضايق الجحود ، وبلايا الجاهلية ، وما كانوا عليه .

وأما هؤلاء ، فعمدوا إلى جماعة من الأموات الذين لا يستطيعون توصية ، ولا الى أهلهم يرجعون ، فقصدوهم فى المهمات ، وعكفوا على قبورهم ، ونذروا لهم النذور ، ونحروا لهم النحاير ، وفزعوا إليهم عند المهمات .

فتارة يطلبون منهم من الحاجات مالا يقدر عليه إلا الله عز وجل وخصوهم بالنداء ، وافردوهم بالطلب . وتارة ينادونهم مع الله عز وجل ويصرخون بأسمائهم مع اسم الله سبحانه ، فيأتون بكلمات تقشعر لها جلود من يعلم معنى لا إله إلا الله ، ويعرف مدلول قل هو الله أحد ، وتلاعب بهم الشيطان فى ذلك ، ونقلهم من مرتبة إلى مرتبة ، ومن منزلة إلى منزلة ؛ حتى استعظموا من جانب هؤلاء الأموات الذين خلقهم الله ورزقهم وأحياهم وأماتهم ، مالا يستعظمونه من جانب بارىء البرية ، وخالق الخلق ، يستعظمون جل اسمه وتعالى قدره ولا إله غيره .

وأفضى ذلك إلى أن أحدهم يحلف بالله تعالى فاجرا ، ولا يحلف بمن يعتقده من الأموات . ويقدم على المعصية فى المساجد التى هى بيوت الله ، ولا يقدم عليها عند قبر من يعتقده .

وتزايد الشر ، وعظمت المحنة ، وتفاقمت المصيبة ، حتى صار كثير منهم ينسبون ماأصابهم من الخير فى الأنفس والأموال والأهل إلى ذلك الميت ، وماأصابهم من الشر فى ذلك إليه ، وقد صار تحت أطباق الثرى ، وغيِّب عن أعين البشر ، وصار مشغولا عاجزا عن جر نفع إليه أو دفع ضر عنه ، منتظرا لما ينتظر له مثله من الأموات ، لا يدرى ، مانزل به من هؤلاء النوكاء[٢٨٤] ولا يشعر بما ألصقوه به . ولو علم بذلك لجالدهم بالسيف ، ودفعهم بما يقدر عليه .

---

(٢٨٤) النوكاء : الحمقاء الجاهلون .

ومن أعظم الذرائع الشيطانية ، والوسائل الطاغوتية : أنهم بالغوا فى التأنق فى عمارة قبور من يعتقدونه من الصالحين ، ونصبوا عليها القباب ، وجعلوا على أبوابها الحجاب ، ووضعوا عليها من الستور العالية ، والآلات الرائعة ، ما يبهر الناظر إليه ، ويدخل الروعة فى قلبه ، ويدعوه إلى التعظيم ، كما جُبلت عليه طبائع العوام من دخول المهابة فى قلوبهم والروعة فى عقولهم بما يتعاطاه المريدون لذلك . كما يفعله غالب ملوك الدنيا ، من المبالغة فى تزيين منازلهم ، وتعظيمها ، والتألق فى بنائها ، والاستكثار من الحجاب ، والخدم ، والصياح ، والجلبة ، وارتباط الأسود ونحوها من الحيوانات ، ولبس فاخر الثياب ، قاصدين بذلك تربية المهابة لهم ، والمخافة منهم . وصنع هؤلاء القبوريون كصنعهم ، ففعلوا فى الأموات من جوالب التعظيم ، وأسباب الهيبة ، ما يكون له من التأثير فى قلوب من يزورهم من العامة مالا يُقادر قدره ، ثم يزيد ذلك قليلًا قليلًا حتى يحصل لهم من الاعتقاد فى أولئك الأموات ما يقدح فى إسلامهم ، ويخدش فى توحيدهم .

ولو اتبع الناس ما أرشد إليه الشارع من تسوية القبور ، كما ثبت فى صحيح مسلم وغيره ، من حديث أبى الهياج ، قال : قال لى على بن أبى طالب : **«ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أن لا تدع قبرا مشرفا إلا سويته ، ولا تمثالا إلا طمسته»**[٢٨٥] . فانظر كيف بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أميراً لهدم القبور المشرفة ، وطمس التماثيل ، هو أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه . ثم بعث علىّ أيام خلافته أميراً على ذلك ، هو أبو الهيّاج .

وأخرج أبو داود ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم ، من حديث جابر : أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم نهى أن يجصص القبور ، وأن يُبنى عليه ،

---

(٢٨٥) رواه مسلم : فى كتاب الجنائز ، حديث رقم ٩٣ . وأبو داود : فى كتاب الجنائز ، باب ٦٨ . والترمذى : فى كتاب الجنائز ٥٦ . والنسائى : فى كتاب الجنائز ، باب ٩٩ . وأحمد فى المسند : جزء ١ ، ص ٩٦ ، ١٢٩ .

وأن يكتب عليه ، وأن يوطىء[٢٨٦] . وأخرجه مسلم فى صحيحه بدون ذكر الكتابة[٢٨٧] . قال الحاكم : النهى عن الكتابة على شرط مسلم ، وهى صحيحة غريبة . قال : والعمل من أئمة المسلمين من المشرق إلى المغرب على خلاف ذلك ، يعنى يقررون كتابة الاسم من دون إنكار . انتهى[٢٨٨] .

وأقول : لا حجة فى أحد خالف السنة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كائنا من كان ، قل عددهم أو كثر ؛ فليس لهم أن يشرعوا للناس غير ما شرعه الله ، بل يُحملون على الخطأ وعدم العناية بأمر الشرع والتساهل فى أمر الدين .

وما هذا بأول باب من أبواب الشرع أهمله الناس ، وخالفوا فيه السنن الواضحة ، والشرائع الثابتة ، ولا سيما بعد أن استعلى الجهل على العلم ، وغلبت آراء الرجال ما جاء فى الكتاب والسنة ، وصار التقليد والتمذهب هو المعروف عند الجمهور ، وغيره المنكر .

ولا اعتبار بسكوت أهل العلم ، الذين هم أهله ؛ فإنهم مغلوبون مكثورون مخبوطون بسوط العامة الذين منهم السلاطين وجنودهم ، كما قدمنا الاشارة إلى

---

(٢٨٦) رواه الترمذى : فى كتاب الجنائز باب ٥٨ والنسائى فى كتاب الجنائز ، باب ٩٦ ، ٩٧ . وابن ماجه : فى كتاب الجنائز ، باب ٤٣ . وأحمد فى المسند جزء ٣ ، ص ٢٩٥ ، ٣٣٢ ، ٣٩٩ ، وجزء ٦ ، ص ٢٩٩

(٢٨٧) مسلم : فى كتاب الجنائز ، حديث رقم ٩٤ .

(٢٨٨) المستدرك على الصحيحين : الجزء الأول ، ص ٣٧٠ ، كتاب الجنائز . ونص كلام الحاكم بعد أن ذكر الحديث : « هذا حديث على شرط مسلم ، وقد خرج بإسناده غير الكتابة ، فإنها لفظة صحيحة غريبة » . وقال الذهبى فى التلخيص : « على شرط مسلم وخرج منه » . وعند الحاكم رواية أخرى عن أبى معاوية عن ابن جريج لفظها : « نهى رسول الله (ص) عن تجصيص القبور والكتاب فيها والبناء عليها والجلوس عليها » . قال الحاكم : « هذه الأسانيد صحيحة ، وليس العمل عليها ، فإن أئمة المسلمين **من الشرق إلى الغرب مكتوب على قبورهم ، وهو عمل أخذ به الخلف عن السلف » . وقال الذهبى : « كذلك رواه أبو معاوية عن ابن جريج وهو صحيح » ، ولكنه تعقب الحاكم فقال : « ما قلت طائلا ، ولا نعلم صحابياً فعل ذلك ، وإنما هو شىء أحدثه بعض التابعين ، فمن بعدهم ، ولم يبلغهم النهى » . راجع المستدرك وبهامشه التلخيص ، الموضع المذكور فى مطلع الهامش .**

هذا . وأطباق أهل المشرق والمغرب على الكتابة هو كاطباقهم على رفع القبور ، وتجصيصها ، ووضع القباب عليها ، وجعلها مساجد ؛ فخالفوا ماتقدم عنه صلى الله عليه وآله وسلم ، مع مخالفتهم لما ثبت فى الصحيح عنه ثبوتاً لا يخالفه فيه مخالف ، من أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال : «**لاتجعلوا قبرى مسجدا ، لاتجعلوا قبرى وثنا ، لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[٢٨٩] . وكان هذا القول من آخر ماقاله فى مرض موته ، كما ثبت أن آخر ماقاله صلى الله عليه وآله وسلم الأمر باخراج اليهود من جزيرة العرب[٢٩٠] وتنفيذ جيش أسامة . ثم كان الواقع من أمته بعد هذا التأكيد أنهم بنوا على قبره الشريف قبة . ومازال ملوك الإسلام يبالغون فى تحسينها ، وتزيينها ، ورفع سمكها ، ووضعوا القباب ، ورفعوا القبور ، وكانوا يفعلون هذا بأهل الصلاح ، ثم تزايد الشر ، وصاروا يفعلون ذلك لمن له رئاسة دنيوية ، وإن كان من أفجر الفجرة . وقد يوصى الميت فى وصيته بذلك .

وأعجب من هذا كله تصريح جماعة من أهل الفقه بأنه لا بأس بذلك إذا كان **الميت فاضلا ، ودونوه فى مصنفاتهم التى هى مدارس الطلبة ، وضربوا ماذكرناه من الأدلة فى وجه من جاء به ، ورموا بها خلف الحائط ، ولم يردعهم دين ، ولاوزعهم حياء ، وقابلوا بما أسلفنا بقولهم انه قد استحسن**

---

(٢٨٩) رواه أحمد ، بلفظ : « اللهم لاتجعل قبرى وثناً ، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . المسند : جزء ٢ ، ص ٢٤٦ . والدارمى عن ابن عباس وعائشة قالا : لما نزل بالنبى (ص) طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فاذا اغتم كشفها عن وجهه ، فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور انبيائهم مساجد » يحذر مثل ماصنعوا . سنن الدارمى : كتاب الصلاة ، باب النهى عن اتخاذ القبور مساجد ، الجزء ١ ، ٣٢٦ . وللحديث روايات أخرى متعددة عند : مالك : فى الموطأ ، حديث ٨٥ من السفر . والنسائى : فى كتاب الجنائز ، باب ١٠٦ .

(٢٩٠) رواه الدارمى عن أبى عبيدة بن الجراح ، قال : كان فى آخر ماتكلم به رسول الله (ص) قال : « أخرجوا اليهود من الحجاز ، وأهل نجران من جزيرة العرب » . سنن الدارمى :جزء ٢ ، ص ٢٣٣ ، باب إخراج المشركين من جزيرة العرب من كتاب السير . ونحوه فى صحيح البخارى : كتاب الجزية ، باب ٦ . ومسلم : كتاب الوصية ، حديث رقم ٢٠ ، بلفظ : « اخرجوا المشركين من جزيرة العرب » .

رفع هذه القباب وتزيين هذه القبور بعض السلف .

فلا كثر الله فى أهل العلم ، من أمثال من استحسن مخالفة الشرع من السلف الذين صرتم تقوّلون عليهم بما لم يقولوه ، فإنه إذا صح ماتزعمونه من أنه استحسن ذلك بعض السلف ، فلا حجة فى استحسان من استحسن مخالفة الشرع كائناً من كان ؛ فإنه أو مبتدع ، ومخالف للشرع ، وعاص لله ولرسوله وللشريعة المطهرة .

ولقد تزلزل بهذا السبب أقدام كثير من العباد عن الإسلام ، وذهب بهذه الذريعة إيمان جماهير من الأنام ، فإنا لله وإنا اليه راجعون .

فإنها لو كانت القبور على الصفة التى شرعها الله وعلمها الأمة رسول الله ، لم يحدث من هذه الاعتقادات الفاسدة شيء . ولا يشك عاقل أن أعظم ماأدخل فاسد الاعتقاد فى صدور كثير من العباد ، هو هذا الأمر ، مع سكوت العلماء عن البيان الذى أمرهم الله به ، ومجاملتهم للعامة ، إما مع علمهم بما فى هذا الأمر من الخطر ، أو مع غلبة العادات الطارئة عليهم لما عندهم من العلم ؛ حتى ذهب ذلك بما يعلمونه ومحق بركته وأبطل ثمرته .

ومما أحكيه لك : أنه كان يبلغنى ، وأنا فى الطلب للعلم والاشتغال به ، مايصنعه أهل القطر التهامى ، من الاجتماع لزيارة جماعة من المعتقدين لديهم ، ومايحدث منهم عند ذلك من النهيق الذى لا يعود صاحبه إلى الإسلام سالما ، مع عدم إنكار من بتلك الديار من العلماء ، بل كان الكثير منهم يحضرون تلك المجامع ، ويشهدون تلك الزيارات ، فتكون المنكرات ومايحدث من أنواع الشرك بمرأى منهم ومسمع ؛ فكتبت رسالة إلى العلماء من أهل تلك الديار ، على يد رجل من أهل العلم الراحلين إلى هنالك ، فلما عاد أخبرنى بما حصل من الاستنكار منهم لما كتبته إليهم ، وعدم الاعتداد به والالتفات إليه ؛ فقضيت من ذلك العجب .

ثم لما ولى القضاء ببعض البنادر التهامية بعض علماء صنعاء الأكابر ، وشاهد

من هذه المنكرات ما حمله على أن يحرر إلّي سؤالا ، فأجبته برسالة مطولة سميتها « **الدر النضيد فى إخلاص التوحيد** » ، وأمرته أن يكتب نسخا ويرسلها إلى القضاة فى تلك الديار ، ففعل ، ولم يؤثر ذلك شيئا بل ، كتب كثير علماء تلك الديار على رسالتى مناقشات واعتراضات .

فلم تمض إلا أيام قلائل ، حتى نزل بهم السيف ، وهدم الله تلك الطواغيت ، وذهب بتلك الاعتقادات الفاسدة . فهى الآن صافية عن تلك الأمور التى كان يتلوث بها أهلها ، فلا يقدر أحد منهم أن يستغيث بغير الله سبحانه ، أو ينادى ميتا من الأموات ، أو يجرى ذكره على لسانه . ولكنه لم يغسل أدرانهم ، ويذيب بالكدورات التى كانت تشوب صافى إسلامهم ، إلا السيف ، وهو الحكم العدل ، فى من استحكمت عليه نزعات الشيطان الرجيم ، ولم تردعه قوارع آيات الرحمن الرحيم .

*مفاسد بعض أدعياء التصوف :

ويلتحق بالأمرين المذكورين أمر ثالث ، وإن لم تكن مفسدته كمفسدتهما ، ولا شموله كشمولهما ، وهو ما صار عليه هذه الطائفة المدعوة بالمتصوفة :

فقد كان أول هذا الأمر يطلق هذا الاسم على من بلغ فى الزهد والعبادة إلى أعلا مبلغ ، ومشى على هدى الشريعة المطهرة ، وأعرض عن الدنيا ، وصد عن زينتها ، ولم يغتر ببهجتها . ثم حدث أقوام جعلوا هذا الأمر طريقا إلى الدنيا ومدرجا إلى التلاعب بأحكام الشرع ، ومسلكا إلى أبواب اللهو والخلاعة . ثم جعلوا لهم شيخا يعلمهم كيفية السلوك ، فمنهم من يكون مقصده صالحا وطريقته حسنة فيلقن أتباعه كلمات تباعدهم من الدنيا ، وتقربهم من الآخرة ، وينقلهم من رتبة إلى رتبة على أعراف يتعارفوها . ولكنه لا يخلو غالب ذلك من مخالفة للشرع ، وخروج عن كثير من آدابه .

والخير كل الخير فى الكتاب والسنة ، فما خرج عن ذلك ، فلا خير فيه ، وإن جاءنا أزهد الناس فى الدنيا ، وأرغبهم فى الآخرة ، وأتقاهم لله تعالى ، وأخشاهم له فى الظاهر ؛ فإنه لا زهد لمن لم يمش على الهدى النبوى ، ولا تقوى ولا خشية لمن لم يسلك الصراط المستقيم . فإن الأمور لا تكون طاعات بالتعب فيها ، والنصب ، وإيقاعها على أبلغ الوجوه ، بل إنما تكون طاعات خالصة محضة مباركة نافعة بموافقة الشرع ، والمشى على الطريقة المحمدية . واعتبر بالخوارج ، فقد وصفهم النبى صلى الله عليه وآله وسلم بما وصف من تلك العبادات والمجاهدات التى لا تبلغ عبادتنا ولا مجاهدتنا إلى شىء منها ، ولا تعتبر بالنسبة إليها ، ومع هذا فقال : «إنها لا تجاوز تراقيهم»(٢٩١) ، وقال : «إنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»(٢٩٢) ، وقال «إنهم كلاب النار»(٢٩٣) فانظر كيف كانت مجاهداتهم ، وعباداتهم ، وقيامهم الليل ، وصيامهم النهار ، نقمة عليهم ، وبلية ومحنة لهم ، لم تعد عليهم بنفع قط إلا ما أصيبوا به من الخسار والنكال والوبال ، فكانت تلك الطاعات الصورية من صلاة وصيام وتهجد وقيام ، هى نفس المعاصى الموجبة للنار .

وهكذا كل من رام أن يطيع الله على غير الوجه الذى شرعه لعباده وارتضاه لهم ، فإنه ربما يلحق بالخوارج بجامع وقوع ما أطاعوا الله به على غير ما شرعه لهم فى كتابه وعلى لسان رسوله .

وإنى أخشى أن يكون من هذا القبيل ما يقع من كثير من المتصوفة ، من تلك الأقوال والأفعال ، التى ظاهرها التنفير عن الدنيا ، والبعد عن أهلها ،

(٢٩١) ، (٢٩٢) رواه البخارى : كتاب الأنبياء باب ٦ ؛ وكتاب المناقب ، باب ٢٥ . ومسلم : كتاب الزكاة ، حديث رقم ١٤٢ - ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٩ . وتمامه فى الموضع الأخير : « عن يسير بن عمرو ، قال : سألت سهل بن حنيف : هل سمعت النبى ﷺ يذكر الخوارج ؟ فقال : سمعته (وأشار بيده نحو المشرق . « قوم يقرأون القرآن بألسنتهم لا يعدو تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية » . وابن حنبل أجزاء ص ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ، ٣٨٠ ، ٤٠٤ . وجزء ٢ ، ص ١٩٩ ، ٢٠٩ . وتمامه كما جاء فى الموضع الأخير : « يخرج قوم من قبل المشرق يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم ، كلما قطع قرن نشأ قرن حتى يخرج فى بقيتهم الدجال » .

(٢٩٣) رواه ابن ماجه : فى المقدمة ، باب ١٢ . وابن حنبل : جزء ٤ ، ص ٣٥٥ ، بلفظ : « الخوارج هم كلاب النار » .

والفرار عن زينتها ، مع تلك الوظائف التى يلازمونها من التخشع ، والانكسار ، والتلهب ، والتأسف ، والصراخ تارة ، والهدوء تارة أخرى ، والرياضيات ، والمجاهدات، ملازمة أذكار يذكرون بها لم ترد فى الشرع على صفات لم يأذن الله بها ، مع ملازمة تلك الثياب الخشنة الدرنة ، والقعود فى تلك المساطب القذرة ، وماينضم إلى ذلك من ذلك الهيام ، والشطح ، والأحوال ، التى لو كان فيها خير لكانت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الذين هم خير القرون .

ولا أنكر أن فى هذه الطائفة من قد بلغ فى تهذيب نفسه ، وغسلها من الطواغيت الباطنة ، والأصنام المستورة عن الناس ، كالحسد ، والكبر ، والعجب ، والرياء ، ومحبة الثناء ، والشرف ، والمال ، والجاه — مبلغا عظيما ، وارتقى مرتقا جسيما .

ولكنى أكره له أن يتداوى بغير الكتاب والسنة ، وأن يتطبب بغير الطب الذى اختاره الله لعباده ؛ فإن فى القوارع القرآنية ، والزواجر المصطفوية ، ما يغسل كل قذر ، ويرحض كل درن ، ويدمغ كل شبهية ، ويدفع كل عارض من عوارض السوء .

فأنا أحب لكل عليل فى الدين أن يتداوى بهذا الدواء ، فيعكف على تلاوة كتاب الله ، متدبرا له ، متفهما لمعانيه ، باحثا عن مشكلاته ، سائلا عن معضلاته ، ويستكثر من مطالعة السيرة النبوية ، ويتدبر ما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى ليله ونهاره ، ويتفكر فى أخلاقه وشمائله ، وهديه وسمته ، وما كان عليه أصحابه ، وكيف كان هديهم فى عباداتهم ومعاملاتهم . فإنه إذا تداوى بهذا الدواء ، ولاحظته العناية الربانية ، وجذبته الهداية الإلهية ، فاز بكل خير ، مع ماله من الأجز الكثير ، والثواب الكبير ، فى مباشرة هذه الأسباب .

وإذا حال بينه وبين الانتفاع بهذه الأمور حائل ، ومنعه من الظفر بما يترتب عليها مانع ، فقد نال بتلك الأسباب التى باشرها أجرا عظيما ، لأنه طلب الخير

من معدنه ، ورام نيل الرشد من موطنه ، فكان له فى تلك الأشغال من الأجر مالطلبة علم الشرع ؛ لأنه قد جهد نفسه فى الأسباب ، ولم يفتح له الباب .

فانظر كم بين هذين الأمرين من المسافة الطويلة ؛ فإن طالب الرشد بغير الأسباب الشرعية ، لا يأمن على نفسه بعد الوصول إلى مطلوبه ، من أن يكون صنعه كصنع الخوارج فى خسرانهم ، بما ظنوه ربحا ، ووقوعهم فى الظلمة ، وقد كانوا يظنون أنهم يلاقون صبحاً ؛ لأنهم خالفوا الطريقة التى أرشد الله إليها عباده وأمرهم بسلوكها .

وإذا كان هذا الأمر مجوزا فى طلبة الخير من غير طريق الشرع ، كصلحاء الصوفية ، اللذين لا رغبة لهم فى غير تهذيب أخلاقهم ، على وجه يوجب زهدهم فيما ترغب النفوس إليه ، وتتهالك الطبائع البشرية عليه ؛ فما ظنك بمن كان من متصوفة الفلاسفة ، الذين يدورون بمرقعاتهم ، وأبدانهم القشفة ، وثيابهم الخشنة ، ووجوههم المصفرة ، حول مايقوله الفلاسفة من تلك المقالات التى هى ضد الشرع ، وخلاف له ، وينهقون عند ادراك شىء من تلك المعارف الشيطانية نهيقا منكرا ، ويسمون ذلك حالا[٢٩٤] ، وهو عند التحقيق حال حائل عن طريق الدين ، وخيال مائل عن سبيل المؤمنين .

وللرد على هؤلاء جمعت الرسالة التى سميتها «**الصوارم الحداد**»[٢٩٥] هى من المجموعات التى جمعتها فى أيام الحداثة وأوائل الشباب .

وبعد هذا كله ، فلست أجهل أن فى رجال هذه الطائفة المسماة بالصوفية من جمع الله له بين الملازمة لهذه الشريعة المطهرة والمشى على الطريقة المحمدية

---

(٢٩٤) ليس بخاف على كل قارىء مطلع أن نسبة أولئك القوم وأقوالهم إلى الفلسفة ، هى كنسبتها إلى الإسلام ؛ فإذا كانت أفعال أولئك وأقوالهم لا تمت إلى الإسلام بصلة بل تخالف تعاليمه ومبادئه ، فإن تلك الأقوال والأفعال لا تمت إلى الفلسفة والفلاسفة الحقيقيين بصلة كما يتبين ذلك بوضوح لكل قارىء لتاريخ الفلسفة والفلاسفة .

(٢٩٥) اسم تلك الرسالة كاملًا « الصوارم الحداد القاطعة لعلائق مقالات أرباب الاتحاد » .

والصراط الإسلامى ، مع كونه قد صار من تصفية باطِنه من كدورات الكبر والعجب والحسد والرياء ونحوها بمحل يتقاصر عنه غيره ، ويعجز عنه سواه . ولكنى فى هذا المصنف بسبب الإرشاد الى العمل بالكتاب والسنة ، والتنفير عما عِداهما كائنا ما كان ، فلست أحب لمن أراد القرب إلى الله ، والفوز بما لديه ، والظفر بما عنده ، أن يتسبب إلى ذلك بسبب خارج عنهما من رياضة أو مجاهدة أو خلوة أو مراقبة ، أو يأخذ عن شيخ من شيوخ الطريقة الصوفية شيئا من الاصطلاحات الموصلة إلى الله عندهم ، بل يطلب علم الكتاب والسنة ، ويأخذهما عن العلماء المتقنين لهما ، المؤثرين لهما على غيرهما ، المتجنبين لعلم الرأى وما يوصل إليه ، النافرين عن التقليد وما يحمل عليه ؛ فإنه إذا فعل ذلك سلك مسلك النبوة ، وظفر بهدى الصحابة ، وسلم من البدع كائنة ماكانت ، فعند ذلك يحمد مسراه ، ويشكر مسعاه ، ويفوز بخير أولاه وأخراه .

تم بحمد الله

الفهرس

رقم الايداع: ٧٠٢٩ / ٨٨